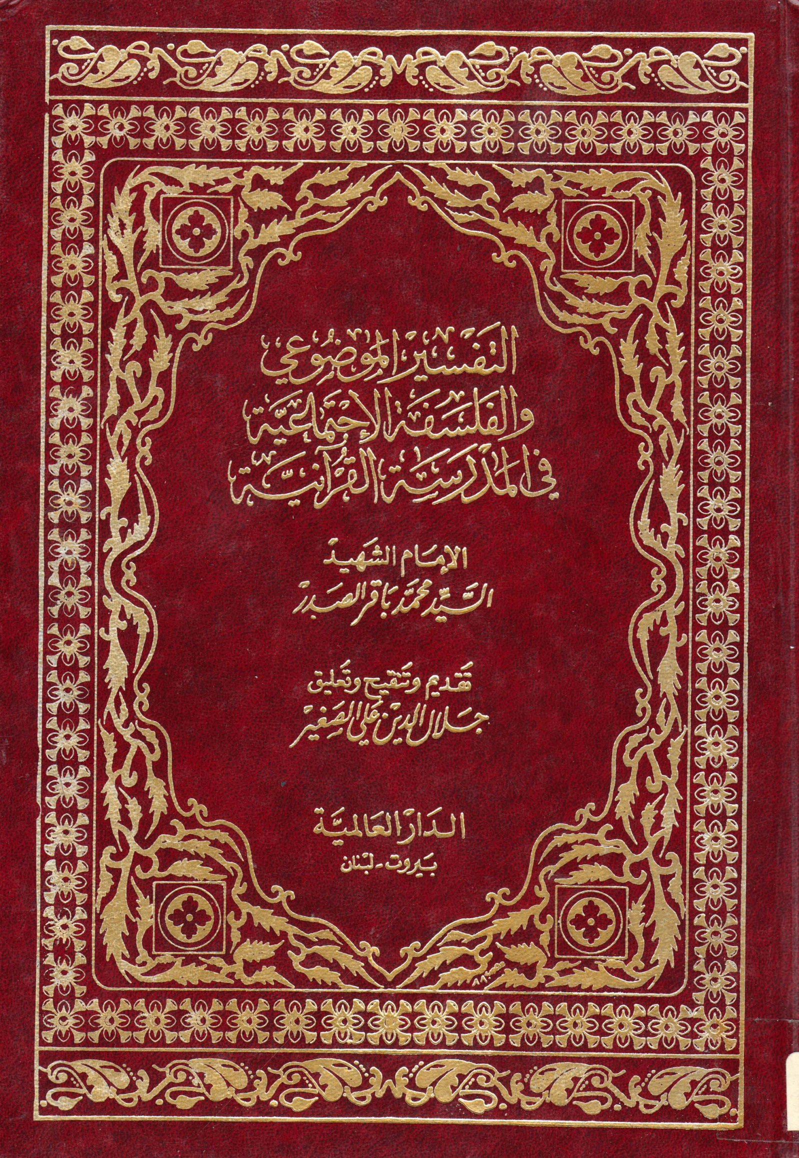


التفسير الموضوعي
والفلسفة الاجتماعية
في المدرسة القرآنية
الإمام الشهيد
السيد محمد باقر الصدر
تقديم وتنقيح وتعليق
جلال الدين علي الصغير
الدار العالمية
بيروت - لبنان

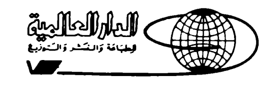
التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية

الإمام الشهيد

السيد محمد باقر الصدر

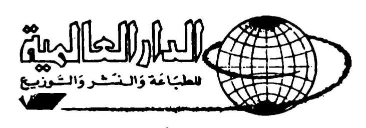
تقديم وتنقيح وتعليق

جلال الدين علي الصغير



الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م





الحمراء - بناية كومودور سنتر
ص. ب. : ٦٣٨١ / ١١٣
العنوان البرقي Inter House
تلكس ٢٢٩٢٧ LE عالمية
٤٢٠٥٤ LE فرحات
بيروت - لبنان

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد وعلى الهداة الميامين من آله الطيبين الطاهرين .

المدرسة القرآنية . . . هي مجموع المحاضرات التي ألقاها الإمام الشهيد والمرجع المظلوم آية الله العظمىٰ السيد محمد باقر الصدر ـ قدس سره ـ على طلبة العلوم الدينية في مدينة النجف الأشرف قبيل شهادته وأغتياله . وكان هدف المحاضرات الظاهري هو تناول بعض الموضوعات القرآنية . لذا فقد يفهم من عنوانها أن موضوعها هو تفسير القرآن . غير أنها لم تكن تستهدف التفسير بقدر ما كانت تستهدف عملية تلبية جملة من الاحتياجات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي كانت تعتور التحرك الاسلامي . ومن يلحظ هذه المحاضرات بشكل مجرد عن الظروف الاجتماعية والسياسية المتزامنة مع وقت إلقائها . فقد لا يلمس ذلك بشكل واضح . إلا أن الذي يطالع مواضيعها من خلال الأجواء السياسية والاجتماعية الفاعلة والمؤثرة في الإمام الشهيد والساحة الإسلامية آنذاك لا يجد صعوبة في الاستنتاج بأن هذه المحاضرات كانت تسعى لتوظيف زخم الأمل الكبير الذي تولد نتيجة لانتصار الثورة الإسلامية في إيران . ومحاولة توجيه هذا الأمل باتجاهه الصحيح وتكريس العواطف التي أججها هذا الأمل ضمن الواقع الميداني في الشارع العراقي . عبر تزويدها بالإطار العقائدي والفلسفي

اللازم لجعل التحرك المنعكس من تلك العواطف والأحاسيس إسلامياً واعياً .

ضمن هذه الظروف وفي أتونها جاءت دروس السيد الشهيد في المدرسة القرآنية . وفي هذه الدروس نجد السيد الشهيد على الرغم من اتصافه وبحق بصفات المفسر المجدد ، والباحث الاجتماعي ، والعالم التاريخي والفيلسوف السياسي ، والزاهد العارف . غير أنه في كل هذه المهمات كان قبل ذلك رجل نهضة . فهو حينما يتطرق إلى موضوعات من المذهب الاجتماعي الإسلامي أو الفلسفة السياسية الإسلامية أو المذهب التاريخي الإسلامي في هذه المحاضرات لا يسعى في كل ذلك إلا لتلبية حاجات ميدانية كانت ساحة التحرك بأمس الحاجة إليها . وهذه الصفة تميز جميع أعمال السيد الشهيد الفكرية فقد كان يكتب من أجل أن يلبي حاجات الميدان الاجتماعي والسياسي ويوفر لها دوماً الحل والتفسير الإسلامي . وهو الأمر الذي سنتحدث عنه بشكل مفصل ـ إن شاء الله ـ في فرصة لاحقة .

هذا الكتاب

سبق لهذه المحاضرات أن طبعت مرة تحت عنوان : مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن »وأخرى تحت عنوان : ـ « المدرسة القرآنية » إلا أن وجود جملة مهمة من الملاحظات على هاتين الطبعتين هو الذي دعاني إلى تنقيح هذه المحاضرات حيث كانت مليئة بالاخطاء التي لا تغتفر .

ولأن الطبعات السابقة رغم ملاحظات تصحيحها حاولت أن تبقي على النص دون أي تلاعب فيه بالخصوص فيما يتعلق بطبعة دار التعارف . لذا فقد جاءت الطبعة وهي تتسم بلغة المحاضرة . في الوقت الذي كان ينبغي فيه أن تتحول هذه اللغة إلى لغة كتاب . وذلك لأن اسلوب المحاضرة يختلف عن إخراج الكتاب بشكل كامل . لذا حاولنا اخراج هذه المحاضرات إلى أسلوب الكتاب ، الأمر الذي دفعني إلى حذف بعض العبارات المكررة التي يتطلبها أسلوب المحاضرة ـ عادة . كما أننا أضفنا إليها العناوين اللازمة وبوبناها بالشكل الذي يسهل مهمة القارىء الكريم في الاستفادة من هذا الكتاب . ونظراً إلى ان هذه المحاضرات قد ألقيت في أوساط خاصة . فقد كان المحاضر ـ رضوان الله عليه ـ سهل المؤونة في استخدام بعض المصطلحات أو ذكر بعض الوقائع التي تعتبر مألوفة في هذا الوسط . الأمر الذي حدا بي لتوضيح هذه المصطلحات والوقائع بشكل يتيح للقارىء استيعاب ما يسعىٰ السيد الشهيد إلى توضيحه

فالمحاضرات ألقيت في وسط علمائي عراقي شيعي لم يخلو من وجود بعض العلماء غير العراقيين . غير أن الجو العام كان عراقياً . وفي هذا الوسط هناك الكثير من المصطلحات المتداولة التي يتبادر معناها تلقائياً إلى ذهن المستمع . أما حينما يسمعها أشخاص آخرون من وسط آخر فقد تبدو العديد من المصطلحات غريبة وتحتاج إلى توضيح وهو ما عمدنا إليه ضمن هذه المحاولة .

ومن اللازم أن أشير إلى أنني حذفت الجزء المتعلق بحب الدنيا وهو الجزء الاكبر من المحاضرة الأخيرة لأنه لا يتعلق بسياق المواضيع المطروحة هنا ، على أننا سنعود إليها ضمن بحث آخر ان شاء الله .

يبقىٰ أن نشير إلى أننا حاولنا توضيح بعض الأفكار التي من شأنها أن تجعل مستوىٰ الكتاب في متناول عدد أكبر من القراء . نأمل من ذلك أن نكون قد أوفينا ببعض من الحق لسيدنا الشهيد . وما توفيقنا إلا بالله نعم المولى ونعم النصير .

المهجر في
١٠ محرم الحرام / ١٤٠٨
٤ / ٩ / ١٩٨٧

جلال الدين علي الصغير

الفصل الاول

الاتجاهان : الموضوعي والتجزيئي
في تفسير القرآن

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

وأفضل الصلوات على سيد الخلق محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين .

ربنا فقهنا في كتابك واكشف عن ذنوبنا ظلمات الذنوب لكي نتفهم آياتك وأزح عن بصائرنا غشاوة الدنيا وبريقها الكاذب لكي نملأ نفوسنا بهداك واجعلنا من حملة قرآنك وسنة نبيك والسائرين على طريق طاعتك . .

ندعو بلغة القرآن وبلسان القرآن **﴿ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير [2] ﴾ و﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين [3] ﴾ و ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا للإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم [4] ﴾** .

---

(١) المحاضرة الأولى التي ألقيت في ١٧ / جمادى الأولى / ١٣٩٩ هـ .
(٢) سورة التحريم ٦٦ : ٨
(٣) سورة البقرة ٢ : ٢٨٦
(٤) سورة الحشر ٥٩ : ١٠

لا شك في تنوع التفسير واختلاف مذاهبه وتعدد مدارسه ، ولا شك في وجود التباين في كثير من الأحيان بين اهتماماته واتجاهاته ، فهناك التفسير الذي يهتم بالجانب اللفظي والأدبي والبلاغي من النص القرآني [٥] .

وهناك التفسير الذي يهتم بجانب المحتوىٰ والمعنى والمضمون [٦] . وهناك التفسير الذي يركز على الحديث ويفسر النص القرآني بالمأثور عنهم عليهم السلام [٧] أو بالمأثور عن الصحابة والتابعين [٨] . وهناك التفسير الذي يعتلج العقل أيضاً كأداة من عمق التفسير . وفهم كتاب الله سبحانه وتعالى [٩] . وهناك التفسير المتحيز الذي يتخذ مواقف مذهبية مسبقة ، ويحاول أن يطبق النص القرآني على أساسها . وهناك التفسير غير المتحيز الذي يحاول أن يستنطق القرآن نفسه ويطبق الرأي على القرآن ، لا القرآن على الرأي . . . إلى غير ذلك من الاتجاهات المختلفة في التفسير الإسلامي [١٠] . إلا أن الذي يهمنا بصورة

---

(٥) كما نلمس ذلك في تفاسير متعددة كتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي . على أن هناك جملة كبيرة من التفاسير خصصت لهذا الجانب مقطعاً مهما من أجزائها كما نجد ذلك في تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي والتبيان في تفسير القرآن للطوسي .

(٦) كما في تفسير الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب وما شاكل وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا لا يعني أن تفاسير الاتجاه السابق أو اللاحق لا تهتم بجانب المحتوىٰ والمضمون أو بالعكس . بل إن المقصود هنا هو أن عنايتها الأولى قد صبّت ضمن الاتجاه الذي ذكره المصنف ـ رض ـ بحيث بدت وكأن شغلها الأساسي هو اللهجة البلاغية ـ مثلاً ـ في القرآن .

(٧) أي بالمأثور عن الرسول (ص) وأئمة أهل البيت (ع) الاثنىٰ عشر وفاطمة (ع) .

(٨) التابعون هم الجيل الذي صاحب الصحابة غير أنه لم يصاحب الرسول (ص) . ومن نماذج هذا الاتجاه من التفسير يمكن ملاحظة التفاسير التي عنت بأسباب النزول ، ومنها الدر المنثور للسيوطي وأسباب النزول للواحدي النيسابوري والتفسير المنسوب لابن عباس ، وتفسير ابن كثير الدمشقي وتفسير الطبري من تفاسير أهل السنة ، وتفاسير العياشي وعلي بن ابراهيم والصافي من التفاسير الشيعية .

(٩) كما هو الحال في تفسير صدر المتألهين الشيرازي . وتفسير الميزان للطباطبائي وتفسير الفخر الرازي .

(١٠) هناك أنماط أخرىٰ من التفسير كما في التفاسير الفقهية التي عنيت بأحكام القرآن الفقهية . ومنها يمكن الإشارة إلى تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن وكتاب أحكام القرآن للجصاص ، وما يماثله لابن العربي .

خاصة ونحن على أبواب هذه الدراسة القرآنية ، هو التركيز على إبراز اتجاهين رئيسيين لحركة التفسير في الفكر الإسلامي . أحدهما نطلق عليه اسم « الاتجاه التجزيئي في التفسير » وعلى الآخر اسم « الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير » .

١ ـ الاتجاه التجزيئي :

ونعني بالإتجاه التجزيئي ، المنهج الذي يتناول المفسر ضمن إطاره القرآن الكريم ، آية فآية ، وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف .

والمفسر في إطار هذا المنهج يسير مع المصحف ، ويفسر قطعاته تدريجاً بما يؤمن به من أدوات ووسائل للتفسير من الظهور [١١] ، أو المأثور من الأحاديث ، أو بلحاظ الآيات الأخرى التي تشترك مع تلك الآية في مصطلح أو مفهوم ، بالقدر الذي يلقي ضوءاً على مدلول القطعة القرآنية ، التي يراد تفسيرها مع أخذ السياق الذي وقعت ضمنه بعين الاعتبار من كل تلك الحالات .

ومن الطبيعي أننا هنا حينما نتحدث عن التفسير التجزيئي فإننا نقدمه في أوسع وأكمل صوره وأشكاله التي انتهىٰ إليها . حيث إن التفسير التجزيئي قد تدرج تاريخياً [١٢] إلى أن وصل إلى مستوىٰ الاستيعاب الشامل للقرآن الكريم بالطريقة التجزيئية . وكان قد بدأ في عصر الصحابة والتابعين على مستوىٰ شرح تجزيئي لبعض الآيات القرآنية وتفسير لمفرداتها، وكلما امتد الزمن ازدادت

---

(١١) الظهور مصطلح تفسيري وأصولي يطلق على عملية إسراع الذهن إلى معنى ما في حال سماعه للفظ معين . أو بعبارة أخرىٰ ما يفهم من مدلول تصديقي ما عن مدلول تصوري لغوي . ومن جملة المسائل التي يهتم بها المفسر في دراسة عملية الظهور السعي للتعرف على ما أراده المولى المقدس من هذه الكلمة أو تلك مستعيناً بكافة الوسائل التي من شأنها أن تعينه على تشخيص ذلك . كمعرفة أحكام الدلالات كصيغ الأمر والنهي أو الإطلاق والحصر أو التعميم والشرط وما شاكل وكذلك دراسة القرائن وأقسامها .

(١٢) لمزيد من التفصيل عن ذلك يستحسن الرجوع إلى كتاب القرآن في الإسلام للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي .

الحاجة إلى تفسير المزيد من الآيات إلى أن انتهى إلى الصورة التي قدم فيها ابن ماجة [13] والطبري [14] وغيرهما ممن كتب في التفسير في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع [15] . وكانت تمثل أوسع صورة للمنهج التجزيئي في التفسير .

فالمنهج التجزيئي في التفسير ، حيث إنه كان يستهدف فهم مدلول كلمة « الله » ـ مثلا ـ وحيث إن فهم مدلول كلمة « الله » كان في البداية متيسراً لعدد كبير من الناس . ثم بدأ اللفظ يتعقد من حيث المعنى بمرور الزمن ، وتراكم القدرات والتجارب ، وتطور الأحداث والأوضاع [16] . من هنا توسع التفسير التجزيئي تبعاً لما اعترض النص القرآني من غموض ومن شك في تحديد مفهوم « الله » حتىٰ تكامل في الطريقة التي نراها اليوم في موسوعات التفسير . حيث إن المفسر يبدأ من الآية الأولى من سورة الفاتحة إلى سورة الناس فيفسر القرآن آية . . آية . . وذلك لأن الكثير من الآيات ، بمرور الزمن ، أصبح معناها

---

(١٣) هو الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة أحد كبار علماء التفسير والحديث وهو صاحب السنن المعروفة باسمه توفي عام ٢٧٣ هـ .

(١٤) هو الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي عام ٣١٠هـ . أحد كبار المفسرين والمؤرخين . وله تفسير جامع البيان في تفسير القرآن . وكتاب تاريخ الرسل والملوك . ويعرفان باسمه أيضاً .

(١٥) الأعوام التي يشار إليها هنا محسوبة وفق التقويم الهجري .

(١٦) في البداية كان اللفظ في المجتمع الإسلامي الأول ـ مثلاً ـ يشير إلى معاني محددة تنتقل إلى الذهن مباشره بسهولة دون تعقيد يذكر . وذلك لأسباب متعددة أهمها أن العرف اللغوي العام الذي كان يهيمن على هذا المجتمع كان يتيح لأفراده بسهولة معرفة تفصيلية بكل كلمة تقال على مستوى مدلولها التصديقي . هذا من جهة . ومن جهة أخرىٰ ، لأن التعقيد البشري والحضاري لم يكن بالصورة التي تجعل كل كلمة محاطة بجملة عديدة من الإشكالات والدلالات وما شاكل . بالشكل الذي يجعل انتقال الذهن إلى مدلولها التصديقي تكتنفه الصعوبة . ولهذا غدا فهم هذه الكلمة أو تلك بعد مرور الزمن وهيمنة أعراف لغوية تختلف عن تلك الأعراف الأولى ، وتنامي الخبرات البشرية بجوانب كل موضوع أو مفردة ، وزيادة التعقيدات الحضارية وما إلى ذلك عسيراً قياساً إلى المرحلة الأولى . وسوف يأتي بعد برهة الحديث بشكل آخر عن هذا الموضوع . والذي يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار وبعناية في تفسير النصوص القديمة من الناحية اللغوية .

ومدلولها اللفظي بحاجة إلى إبراز أو تأكيد ونحو ذلك . هذا هو التفسير التجزيئي .

طبعاً نحن لا نعني بالتجزيئية التي نطلقها على هذا المنهج التفسيري أن المفسر يقطع نظره عن سائر الآيات ولا يستعين بها في فهم الآية المطروحة للبحث ، بل إنه قد يستعين بآيات أخرىٰ في هذا المجال كما قد يستعين بالأحاديث والروايات ، ولكن هذه الاستعانة تتم بقصد الكشف عن المدلول اللفظي الذي تحمله الآية المطروحة للبحث (١٧) .

فالهدف في كل خطوة من هذا التفسير هو فهم مدلول الآية التي يواجهها المفسر بكل الوسائل الممكنة (١٨) أي أن الهدف هنا هو « هدف تجزيئي » لأنه يقف دائماً عند حدود فهم هذا الجزء أو ذلك من النص القرآني ولا يتجاوز ذلك غالباً .

إن حصيلة تفسير تجزيئي للقرآن الكريم كله تساوي على أفضل تقدير مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظرة تجزيئية أيضاً . أي أننا سوف نحصل على عدد كبير من المعارف والمدلولات القرآنية ، ولكن في حالة تناثر وتراكم عددي من دون أن نكتشف أوجه الارتباط بينها . ومن دون أن نكتشف التركيب العضوي لهذه المجاميع من الأفكار ، ومن دون أن نحدد في نهاية

---

(١٧) فهو حينما يستعرض تفسير كلمة النصر الموجودة مثلاً في الآية ١٥٧ من سورة الأعراف فقد يستعين بآيات أخرى عديدة من سورة البقرة وآل عمران ومحمد وماشاكل وردت فيها الكلمة نفسها ليستخرج من بعد ذلك توضيحاً للمدلول اللغوي للكلمة غير أنه لا يسعى لاكتشاف التصور الإسلامي الكامل عن مفهوم النصر من حيث شروطه ومقوماته وموجبات وجوده أو عدمه وهكذا . كما أنه في نفس الوقت لا يسعىٰ للحصول على تصور متكامل عن الروح العامة التي تهيمن على تتابع مفردات : الإيمان والصبر والمصابرة والمرابطة والتقوىٰ والفلاح المشار إليها في آية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ آل عمران ٢ : ٢٠٠ بهذا الشكل ، فمن عادة التفسير التجزيئي أن يصل في أحسن الحالات إلى فهم كل مفردة من هذه المفردات بشكل مستقل عن الآخر . دون السعي لاكتشاف العلاقة القائمة في هذا التتابع .

(١٨) من آيات قرآنية وأحاديث وروايات وأبيات الشعر وملاحظات أئمة اللغة والأمثلة وماشاكل

المطاف نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة . فهناك تراكم عددي للمعلومات ، إلا أن مجموع ما بين هذه المعلومات من روابط وعلاقات ، وتحويلها إلى مركبات نظرية ومجاميع فكرية بشكل من شأنه أن يساعدنا على تحضير نظرية قرآنية لمختلف المجالات والمواضيع . إن هذا الأمر ليس مستهدفاً بالذات في منهج التفسير التجزيئي وإن حصل في بعض الأحيان . ولكن ليس هو المستهدف بالذات في هذا المنهج .

وقد أدت حالة التناثر ونزعة الاتجاه التجزيئي ، إلى ظهور التناقضات المذهبية العديدة في الحياة الإسلامية ، إذ كان يكفي أن يجد هذا المفسر أو ذاك آية تبرر مذهبه لكي يعلن عنه ويجمع حوله الأنصار والأشياع كما وقع في كثير من المسائل الكلامية (١٩) كمسألة الجبر والتفويض والاختيار (٢٠) مثلاً .

---

(١٩) المسائل الكلامية : هي المسائل المربوطة بعلم الكلام وهو العلم الذي يبحث في الأمور العقيدية كالتوحيد وما يتعلق بها من أمور .

(٢٠) مسألة الجبر : وهو البحث الذي يتعلق بمناقشة العقيدة الجبرية التي ترى أن الإنسان مجبور في أفعاله ، ومن مدارس هذه العقيدة مدرسة الكسب الأشعرية والمدرسة الجهمية .
أما التفويض فهو عقيدة المعتزلة المتعلقةبخصوص الفعل الإنساني ومدى ارتباطه بالإرادة الإلهية ، حيث يرى المعتزلة أن الإنسان يختار أفعاله دون تدخل للإرادة الإلهية في ذلك بل هي منعزلة عنه .
وهذه المسائل من أشد المسائل إثارة للجدل لا في أوساط الفكر الإسلامي فحسب ، وإنما في أرجاء المدارس الفلسفية التي عرفها البشر قديماً وحديثاً . والمدرسة الإسلامية ـ وفقاً للمفاهيم القرآنية ـ تعتقد بأن الجبر مرفوض لأنه ينفي وجود جملة من البديهيات الإسلامية كمسألة الحساب والجزاء والعقاب . كما أنها لا تعتقد بالتفويض لأنه محاولة لقطع الارتباط بين الإرادة الربانية ولطفها والإرادة الإنسانية . وهو أمر ثابت قرآنياً . وإن الموقف هو الحد الفاصل بين عقيدتي الجبر والتفويض . كما عبر عن ذلك الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) حينما سأله رجل : جعلت فداك أجبر الله على المعاصي ؟
فقال : الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي ثم يعذبهم عليها .
فقال له : ـ جعلت فداك ، ففوض الله إلى العباد ؟
فقال : لو فوّض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي .
فقال : ـ جعلت فداك فبينهما منزلة ؟
فقال : نعم . . أوسع ما بين السماء والأرض .
أنظر أصول الكافي ١ : ١٥٩ للكليني الرازي .

بينما كان بالامكان تفادي الكثير من هذه التناقضات لو أن المفسر التجزيئي خطا خطوة أخرىٰ ولم يقتصر على هذا التجميع العددي كما نرىٰ ذلك في الاتجاه الثاني (٢١) . .

٢ ـ الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي :

هذا الاتجاه لا يتناول تفسير القرآن ، آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي ، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية فيبين ويبحث ويدرس مثلاً عقيدة التوحيد في القرآن . أو يبحث عن النبوة في القرآن ، أو عن المذهب الاقتصادي

---

(٢١) باعتبار أن المفاهيم الإسلامية خالية من أي شكل من أشكال التناقض وأنها منسجمة فيما بينها تماماً . لذا فإن أي خلل في استيعاب أي مفهوم أو فهمه بشكل دقيق سيؤدي بالضرورة إلى التعارض والتضاد مع جملة كبيرة من المفاهيم الإسلامية الأخرىٰ . وهو الأمر الذي بإمكان الجمع بين هذه المفاهيم ضمن إطار واحد أن يسلط الأضواء على هذا التناقض . وبالتالي يسوق الباحث الإسلامي بشكل طبيعي نحو العثور على فهم أدق لمفاهيم الإسلام . فلو فرضنا أننا اعتقدنا بأن هذه الفكرة صحيحة . فإن هذه الصحة تتكشف لنا حتماً من خلال ملاحظة مدىٰ انسجامها مع بقية الأفكار والمفاهيم الإسلامية التي ترتبط بها : فمثلاً قد نصف صورة ما بأنها جميلة جداً ، ونثني على رسامها بأنه يمتلك قدرة جميلة على الرسم . فهل يا ترىٰ أن هذا الوصف قد انتهىٰ ؟ مما لا شك فيه أن الوصف لم ينته ، وإنما لا بد من ملاحظة الإطار الذي يؤطر هذه الصورة ، والحائط الذي توضع عليه هذه الصورة . والبناء الذي يكون فيه هذا الحائط و . . الخ . حينذاك نتمكن فقط من الحكم بشكل موضوعي على جمالية الصورة . . إن هذا الشعور لا نجده إلا من خلال وجود انسجام كامل ما بين الأشياء التي نلحظها أمامنا . وهذا الشيء نفسه يجب أن يلحظ في هذه المعايير . فالمعايير التي نمتلكها في أذهاننا ، أو لنقل في أيدينا يجب أن تكون منسجمة فيما بينها غير متنافرة أو متلائمة . وهذا ما يعني أن صلاحية هذه المعايير ، تقتضي أن تكون هذه المعايير منضوية تحت إطار واحد ، ومنطلقة من قاعدة واحدة . وبخلاف ذلك فقد يكون من المستحيل أن نحكم على شيء بأنه جميل أو جيد . اللهم إلا إذا اقتطعنا هذا الشيء من جميع روابطه ونتائجه . وهو أمر من غير الممكن وجوده وتحقيقه في عالم الأفكار* . . .

ولهذا فإن التفسير الموضوعي من خلال اتجاهه لجمع المدلولات التفصيلية ضمن مركب نظري واحد يتيح لنا قدرة أفضل على معرفة الخلل في مفاهيمنا ، ويسوقنا نحو التعرف على حقيقة اعتقاداتنا وبالتالي يدفعنا نحو تصحيحها .

*نقلاً عن كتابنا وهو قيد التحقيق : بحوث في المذهب الاجتماعي في الإسلام .

في القرآن ، أو عن سنن التاريخ في القرآن أو عن السموات والأرض في القرآن الكريم ، وهكذا . .

ويستهدف التفسير التوحيدي الموضوعي من القيام بهذه الدراسات تحديد موقف نظري للقرآن الكريم ، وبالتالي للرسالة الإسلامية عن ذلك الموضوع من موضوعات الحياة أو الكون .

وما ينبغي أن يكون واضحاً هو أن الفصل بين الاتجاهين المذكورين ليس حدياً على مستوىٰ الواقع العملي والممارسة التاريخية لعملية التفسير لأن الاتجاه الموضوعي بحاجة طبعاً إلى تحديد المدلولات التجزيئية في الآيات التي يريد التعامل معها ضمن إطار الموضوع الذي يتبناه . كما أن الاتجاه التجزيئي قد يعثر في أثناء الطريق بحقيقة قرآنية من حقائق الحياة الأخرىٰ ، ولكن الاتجاهين على أي حال يظلان على الرغم من ذلك مختلفين في ملامحهما ، وأهدافهما . وحصيلتهما الفكرية .

ومما ساعد على شيوع الاتجاه التجزيئي للتفسير وسيطرته على الساحة قروناً عديدة ، وجود النزعة الروائية والحديثية للتفسير ، حيث إن التفسير لم يكن في الحقيقة ، وفي البداية إلا شعبة من الحديث بصورة أو بأخرىٰ ، وكان الحديث هو الأساس الوحيد له تقريباً ، مضافاً إليه بعض المعلومات اللغوية والأدبية والتاريخية ، كان الحديث هو الأساس الوحيد مضافاً إليه بعض هذه المعلومات التي يعتمد عليها التفسير طيلة فترة طويلة من الزمن .

ومن هنا لم يكن بإمكان تفسير يقف عند حدود المأثور من الروايات عن الصحابة والتابعين ، وعن الرسول (ص) والأئمة (ع) ، تلك الروايات التي كانت تثيرها استفهامات عقلية على الأغلب من قبل الناس السائلين . نقول لم يكن بإمكان تفسير يعتمد على هذه الروايات التي تستثار من قبل أسئلة عقلية من هذا القبيل ، أن يتقدم خطوة أخرى وأن يحاول تركيب مدلولات القرآن ، والمقارنة بينها ، واستخراج النظرية من وراء هذه المدلولات اللفظية .

إن التفسير كان بطبعه تفسيراً لفظياً للمفردات ، وشرح بعض المستجد من المصطلحات ، وتطبيق بعض المفاهيم على روايات أسباب النزول ومثل هذه

العملية ، لم يكن بإمكانها أن تقوم بدور اجتهادي مبدع . من خلال التوصل إلى ما وراء المدلول اللغوي واللفظي ، أي التوصل إلى الأفكار الأساسية التي حاول القرآن الكريم أن يعطيها من خلال المتناثر من آياته الشريفة .

لماذا تقدمت المسيرة الفقهية ؟

ويمكننا أن نقرب إلى أذهانكم فكرة هذين الاتجاهين المختلفين ، في تفسير القرآن الكريم ، بمثال من تجربتكم الفقهية . فالفقه هو بمعنى من المعاني ، تفسير للأحاديث الواردة عن النبي (ص) والأئمة (ع) . ونحن نعرف من البحث الفقهي ، أن هناك كتباً فقهية شرحت الأحاديث حديثاً حديثاً . وتناولت كل حديث وشرحته ، وتكلمت عنه دلالة أو سنداً ، أو متنا ، على اختلاف اتجاهات الشرّاح . كما نجد ذلك في شرّاح الكتب الأربعة [٢٢] . وشرّاح الوسائل [٢٣] . غير أن القسم الأعظم من الكتب الفقهية والدراسات العلمية في هذا المجال لم يتجه هذا الاتجاه . بل صنفت البحث إلى مسائل وفقاً لوقائع الحياة وجعلت في إطار كل مسألة الأحاديث التي تتصل بها وفسرتها بالقدر الذي يلقي ضوءاً على تلك المسألة ويؤدي إلى تحديد موقف الإسلام من تلك الواقعة التي تفترضها المسألة المذكورة ، وهذا هو الاتجاه الموضوعي على الصعيد الفقهي ، بينما ذاك هو الاتجاه التجزيئي في تفسير الأحاديث على هذا الصعيد .

كتاب الجواهر [٢٤] في الحقيقة شرح كامل شامل لروايات الكتب الأربعة ، ولكنه ليس شرحاً يبدأ بالكتب الأربعة رواية رواية ، وإنما يصنف

---

(٢٢) الكتب الاربعة تعتبر من أهم مصادر الفقه الشيعي وأحاديث أهل البيت وهي : -
أ - الكافي لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي .
ب - تهذيب الأحكام لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي
جـ - من لا يحضره الفقيه لأبي جعفر محمد بن علي القمي الصدوق .
د - الاستبصار لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي .

(٢٣) وهو كتاب وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة . وهو من تأليف محمد بن الحسن الحر العاملي ، ويعد من أمهات الموسوعات الحديثية الشيعية ويشتمل على عشرين مجلداً .

(٢٤) وهو كتاب جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام من تأليف الشيخ محمد حسن النجفي ويعد من أنفس وأضخم الموسوعات الفقهية ، وتصل مجلداته إلى ٤٣ مجلداً

روايات الكتب الأربعة وفقاً للحياة ووفقاً لمواضيعها ، كتاب البيـع [٢٥] ، كتاب الجعالة [٢٦] ، كتـاب إحياء المـوات [٢٧] ، كتاب النكـاح [٢٨] ، ثم يجمع تحت كـل عنـوان من هـذه العنـاوين ، الـروايـات التي تتصـل بـذلـك المـوضــوع ، ويشرحها ، ويقارن فيما بينهما ، ومن ثم يخرج بنظرية عن هذا الموضوع . لأنه لا يكتفي بأن يفهم معنىً هذه الـرواية فقط بصـورة منفردة إذ مـع هذه الحـالة من الفردية لا يمكن أن يصـل إلى الحكم الشرعي . وإنمـا يصل إلى الحكم الشـرعي عن طـريق دراسة مجمـوعة من الـروايـات التي تحمـل مسؤوليـة تـوضيـح حكم واحد ، أو باب واحـد من أبواب الحيـاة ، ثم من طريق هـذه الدراسـة الشاملة يستخرج نظرية واحدة من معـطيات مجمـوعة من الـروايات لا من قبـل رواية ، رواية . هذا هو الاتجاه الموضوعي في شرح الأحاديث .

ومن خلال المقارنة بين الدراسات القرآنية والـدراسات الفقهيـة ، نلاحظ اختـلاف مواقـع الاتجاهـين عـلى الصعيـدين ، فبينـما انتشر الاتجـاه المـوضـوعي والتـوحيدي عـلى الصعيد الفقهي . بـاعتبار أن الفقـه والفكـر الفقهي مـا خـطا خطوات في مجال نموه وتطوره حتى ساد هذا الاتجاه جل البحوث الفقهية . نجـد أن العكس هو الصحيح عـلى الصعيد القـرآني ، حيث سيطر الاتجـاه التجزيئي للتفسير على الساحة عـبر ثـلاثة عشر قرناً تقريباً ، إذ كان كل مفسر يبدأ كما بدأ سلفه فيفسر القرآن آية ، آية .

إذن الاتجاه الموضوعي هو الذي سيطر على الساحـة الفقهية ، بينـما الاتجاه

---

(٢٥) كتاب البيع : مصطلح فقهي يطلق عـلى البحث في التشريعـات المرتبـطة بتنظيم عمليـات البيع والشراء أياً كان شكلها .

(٢٦) كتاب الجعالة : مصطلح فقهي آخر يطلق على البحث في العملية التي يتعهد فيها شخص ما لآخر بشيء من الحق قبال عمل يؤديه الثاني إلى الأول . كمن قبيـل من قال : من رمم غـرفتي هذه فله كذا .

(٢٧) كتاب إحياء الموات : هو الآخر مصطلح فقهي يطلق على البحث في طبيعة التعامـل مع الأرض التي لا ينتفع بها .

(٢٨) كتاب النكاح : وهو المبحث الذي يتعلق بالعلاقات التي تنظم الروابط الزوجية .

التجـزيئي هو الـذي سيطر عـلى الساحـة القرآنيـة . وأما مـا ظهر عـلى الصعيد القـرآني من دراسات بعض المفسـرين حول مـوضوعـات معينـة تتعلق بـالقـرآن الكـريم كأسبـاب النزول ، أو القـراءات ، أو الناسـخ والمنسـوخ ، أو مجـازات القرآن . فليست من التفسير التوحيدي والمـوضوعي بـالمعنى الذي نريده ، فـإن هذه الدراسات ليست في الحقيقة إلا تجميعاً عددياً لقضايا من التفسير التجـزيئي لوحظ فيها بينهـا شيء من التشابـه ، وبكلمة أخـرىٰ ليست كل عمليـة تجميع أو عزل دراسة موضوعية ، وإنما الدراسة المـوضوعيـة هي التي تطرح مـوضوعـاً من موضوعات الحياة العقـائديـة ، أو الاجتماعيـة ، أو الكونيـة ، وتتجه إلى درسـه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده .

وأكـثر ظني أن الاتجاه التـوحيدي والمـوضوعي في الفقـه بامتـداده وانتشاره ساعد بدرجة كبيرة على تطوير الفكـر الفقهي وإثراء الـدراسات العلميـة في هذا المجال [٢٩] . بقدر ما ساعد انتشار الاتجاه التجزيئي في التفسير على إعاقة الفكر الإسلامي القرآني عن النمو والتكامل ، وساعد على اكتسابه حالة تشبـه الحالات التكـرارية . حتىٰ نكـاد نقول إن قـروناً من الـزمن متراكمـة مرت بعـد تفـاسـير الـطبـَري ، والـرازي [٣٠] ، والـطوسي [٣١] ، لم يحقق الفكـر الإسـلامي فيهـا مكاسب حقيقية جديدة . وظل التفسير ثابتاً لا يتغير إلا قليلاً خلال تلك القرون على الرغم من ألوان التغير التي حفلت بها الحياة في مختلف الميادين . وسوف يتضح ـ إن شاء الله تعالى ـ من خلال المقارنة بين الاتجاهين : الاتجـاه التجزيئي والاتجـاه التوحيدي ، السبب والسر الذي يكمن وراء هذه الظاهرة .

---

(٢٩) من الـواضح أن هـذا الأمر يخص المـذاهب الفقهية التي أبقت عـلى باب الاجتهـاد مفتوحـاً على مصراعيه . دون غيرها .

(٣٠) هـو أبو عبـد الله محمد بن عمـر فخر الـدين الرازي الشـافعي ، أحد أعـلام القرنـين السادس والسابع ، واحد أبرز المفسرين الإسلاميين . وهو صـاحب التفسير المعـروف باسمـه وهو من ٣٠ مجلداً . وقد توفي عام ٦٠٦ هـ .

(٣١) هو شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي أحد أعلام القرن الخامس الهجري ، وأبرز محدث ورجالي ومفسر فيه ، وهو مؤسس مدرسة النجف الأشرف الدينية ، ومؤلفاته تربـو على ٤٧ مؤلفاً . توفي عام ٤٦٠ عن عمر يناهز (٧٥ عاماً) . وتفسيره هو كتاب التبيان في تفسير القرآن ، ومجلداته عشرة .

سلبيـــات الاتجـــاه التجـــزيئي ، وايجـــابيـــات الاتجـــاه الموضوعي :

لماذا كانت الطريقة التجزيئية عاملاً في إعاقة النمو ؟ .

ولماذا تكون الطريقة الموضوعية ، والاتجاه التوحيدي عاملاً في النمو والإبداع وتوسيع نطاق حركة الاجتهاد ؟ .

لكي نعرف لماذا كان هذا ؟ ولماذا كان ذاك ؟ يجب أن نكوّن انطباعات أوضح ، وأكثر تحديداً عن هذين الاتجاهين : الاتجاه التجزيئي ، والاتجاه التوحيدي . وإنما يتضح ذلك بعد أن نشرح بعض أوجه الاختلاف بين الاتجاهين . ويمكن توضيح بعض أوجه الاختلاف بين هذين الاتجاهين التفسيرين فيما يلي :

أولاً : أين يكمن التوظيف الهادف للنص القرآني ؟

إن المفسر التجزيئي دوره في التفسير على الأغلب سلبي . فهو يبدأ أولاً بتناول النص القرآني المحدد ـ آية مثلاً ـ أو مقطعاً قرآنياً دون أي افتراضات ، أو طروحات مسبقة ، ويحاول أن يحدد المدلول القرآني في ضوء ما يسعفه به اللفظ مع ما يتاح له من القرائن المتصلة والمنفصلة (٣٢) .

هنا العملية في طابعها العام ، عملية تفسير نص معين ، وكأن دور النص فيها دور المتحدث ، ودور المفسر هو الإصغاء والتفهم ، وهذا هو ما نسميه بالدور السلبي . فالمفسر هنا شغله أن يستمع لكن بذهن مضيء ، بفكر صافٍ وبروح محيطة بآداب اللغة وأساليبها في التعبير . . بمثل هذه الروح والذهنية وبمثل هذا الفكر يجلس بين يدي القرآن ليستمع . فهو ذو دور سلبي ، والقرآن

---

(٣٢) في مكان آخر عرّف السيد الشهيد القرينة المتصلة والمنفصلة بقوله : ـ القرينة المتصلة هي كل ما يتصل بكلمة أخرىٰ ، فيبطل ظهورها ، ويوجه المعنىٰ العام للسياق الوجهة التي تنسجم معه .

وقد يتفق أن القرينة بهذا المعنىٰ لا تجيءُ متصلة بالكلام ، بل منفصلة عنه فتسمىٰ قرينة منفصلة .

انظر الحلقة الأولى من كتاب دروس في علم الأصول ١ : ١٣٢ ـ ١٣٤ للسيد الشهيد الصدر . الطبعة الأولى ١٩٧٨ بيروت ـ دار الكتاب اللبناني .

ذو دور إيجابي ، حيث إن القرآن يعطي حينئذ ، وبقـدر ما يفهم هـذا المفسر من مدلول اللفظ يسجل في تفسيره .

وخـلافاً لـذلك المفسر التـوحيدي والمـوضـوعي . فهـو لا يبـدأ عمله من النص . بـل من واقع الحيـاة . حيث يركـز نظره عـلى موضـوع من موضـوعات الحياة العقائدية أو الاجتمـاعية أو الكـونية ، ويستـوعب ما أثـارته تجـارب الفكر البشري عن ذلك الموضوع من مشاكل وما قدمـه الفكر الإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقـاط فراغ ثم يـأخذ النص القـرآني ، لا ليتخذ من نفسه بالنسبة إلى النص دور المستمع والمسجل فحسب ، وإنما ليطرح بين يدي النص موضوعاً جاهزاً مشرباً بعدد كبير من الأفكار والمواقف البشرية ، ويبـدأ مع النص القـرآني حوار سؤال وجـواب . المفسر يسـأل والقـرآن يجيب . المفسر في ضـوء الحصيلة التي استطاع أن يجمعهـا من خلال التجـارب البشـريـة النـاقصة ، ومن خـلال أعمـال الخـطأ والصـواب التي مـارسهـا المفكـرون عـلى الأرض . ثم ينفصل عن هذه الحصيلة ليأتي ويجلس بين يـدي القرآن الكـريم . لا يجلس ساكتاً ليستمع فقط بل يجلس محاوراً ، يجلس سائلاً ومستفهماً ومتدبراً ، فيبدأ مع النص القرآني حواراً حول هذا الموضوع . وهـو يستهدف من ذلـك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح ، والنظرية التي بإمكانـه أن يستلهمها من النص ، ومن خلال مقارنة هـذا النص بما استـوعبه البـاحث عن الموضوع من أفكار واتجاهات (٣٣) .

---

(٣٣) لابد هنا من التحذير من أن ممارسة عمليـة التفسير الموضوعي إذا تمت على يـد أفراد لا يمتلكـون الكفاءة الفكرية اللازمة لعمل من هذا القبيل فقـد يعرض هـذه العملية لمطبات خـطيرة جـداً .
ويدعوهم لتطعيم الفكر الإسلامي بمفاهيم وأفكار لا يعترف القرآن بسلامتها .وذلك نظراً لاعتقاد الباحث مسبقاً بصحة التجربة المنعكسة من المفهوم الفلاني. فيأتي إلى القرآن فيجد فيه ايماءات أو ما يماثلها فيطوعها قسراً وبلا شعور . فيخرج بحصيلة مؤداها أن القرآن يقبل بهذا المفهوم . وما يلحظه المرء من تسميات تلفيقية ما بين الفكر البشري والفكر الإسلامي كتسميات الديمقراطية الإسلامية والإشتراكية الإسلامية وما إلى ذلك يعود إلى هذا الأمر بالتأكيد .

وقد نجد الأمر يتخذ صيغة أخرى تتمثل في المحاولات التي ترمي لإظهارمصداقية الإعجاز العلمي في القرآن ، حيث يعمد الباحث في العادة إلى محاولة التفتيش في آيـات القرآن عـما يمكن أن يكون متلائماً مع النظرية العلمية الفلانية ، أو مع الافتراض العلمي الفلاني. فيعمد إلى جعل النظرية قرآنية =

ومن هنا كانت نتائج التفسير الموضوعي نتائج مرتبطة دائماً بتيار التجربة البشرية لأنها تمثل المعالم والاتجاهات القرآنية لتحديد النظرية الإسلامية بشأن موضوع من مواضيع الحياة .

ومن هنا أيضاً كانت عملية التفسير الموضوعي عملية حوار مع القرآن الكريم واستنطاق له ، وليست مجرد استجابة سلبية . بل استجابة فعالة وتوظيفاً هادفاً للنص القرآني في سبيل الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة الكبرى .

قال أمير المؤمنين (ع)[٣٤] وهو يتحدث عن القرآن الكريم « ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ، ولكن أخبركم عنه ، ألا إن فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ، ودواء دائكم ونظم ما بينكم . . »[٣٥] .

إن التعبير بالاستنطاق الذي جاء في كلام ابن القرآن (ع)[٣٦] لهو أروع تعبير عن عملية التفسير الموضوعي بوصفها حواراً مع القرآن الكريم ، وطرحاً

= مع الإدعاء بأن القرآن قد سبق العلم الحديث في الكشف عنها .

إن الخطر بطبيعة الحال لا يكمن في أصل العملية . والسعي لتبيان الانسجام الموجود بين الآيات القرآنية والقانون العلمي هذا ، أو ذاك . فهذا الأمر قد تم ملاحظته كثيراً في القرآن . وإنما يكمن هذا الخطر في كون النظريات والافتراضات العلمية هي مجرد ملاحظات تتوافر فيها دوماً عوامل الخطأ والصواب . وهي ما لم تثبت يقينيتها لتغدو قانوناً علمياً . فإن أي محاولة لزج الآيات القرآنية في هذا الأمر وبأي شكل كان ، تجعل إمكانية تشويه هذه الآيات نفسها ، قائمة دائماً . ونحن حينما نلحظ أن التاريخ العلمي قد شهد ارتقاء نجم هذه النظرية أو تلك ، غير أن هذا الارتقاء سرعان ما تكون نتيجته الهاوية نظراً لاكتشاف ما يدحض علمية هذه النظرية أو تلك فمن الخطأ بمكان أن نزج القرآن وآياته المقدسة ضمن هذا المجال .

(٣٤) المقصود الإمام علي (ع).

(٣٥) نهج البلاغة ٢٢٣ : الخطبة ١٥٨ للامام أمير المؤمنين تحقيق الدكتور صبحي الصالح .

(٣٦) اشارة لحديث الرسول (ص) : علي مع القرآن ، والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض .

انظر الصواعق المحرقة ص ١٢٤ لابن حجر الهيثمي وتاريخ الخلفاء ص ٦٧ للسيوطي وصحيح الترمذي ٥ : ٢٩٧ (حديث رقم ٣٧٩٨) ومنتخب كنز العمال ٥ : ٣١ للمتقي الهندي وعشرات المصادر الاخرى التي اشرنا إليها في كتابنا القائد القيادة والانقياد في سيرة الإمام امير المؤمنين (ع) .

للمشاكل الموضوعية عليه بقصد الحصول على الإجابة القرآنية عنها .

إذن فأول اوجه الاختلاف الرئيسية بين الاتجاه التجزيئي في التفسير والاتجاه الموضوعي فيه. حيث نجد أن التفسير التجزيئي يكون دور المفسر فيه دوراً سلبياً فهو يستمع ويسجل ، بينما التفسير الموضوعي ليس هذا معناه ، وليس هذا كنهه . وإنما وظيفته دائماً وفي كل مرحلة وفي كل عصر أن يحمل كل تراث البشرية الذي عاشه ، يحمل أفكار عصره ، ويحمل المقولات التي تعلمها المفسر في تجربته البشرية . ثم يضعها بين يدي القرآن وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ليحكم على هذه الحصيلة بما يمكن لهذا المفسر أن يفهمه ويستشفه ويتبينه من خلال مجموعة آياته الشريفة .

إذن فهنا يلتحم القرآن مع الواقع ، ومع الحياة ، لأن التفسير يبدأ من الواقع وينتهي إلى القرآن . لا أنه يبدأ من القرآن وينتهي بالقرآن فتكون عملية منعزلة عن الواقع ومنفصلة عن تراث التجربة البشرية . بل إن هذه العملية تبدأ من الواقع وتنتهي بالقرآن بوصفه القيم والمصدر الذي يحدد المفسر على ضوئه الاتجاهات الربانية بالنسبة إلى ذلك الواقع .

ومن هنا تبقىٰ للقرآن حينئذ قدرته على القيمومة دائماً وقدرته على العطاء المستجد دائماً . وكذلك قدرته على الإبداع وذلك لأن المسألة هنا ليست مسألة تفسير لفظ حيث إن طاقات التفسير اللغوي ليست طاقات لا متناهية . بينما القرآن الكريم سبق أن دلت الروايات على أنه لا ينفد ، وصرح القرآن الكريم بأن كلمات الله لا تنفد (٣٧) .

إذن القرآن الكريم عطاء لا ينفد . بينما التفسير اللغوي ينفد لأن اللغة لها طاقات محدوده ، وليس هناك تجدد في المدلول اللغوي ، ولو وجد تجدد في

---

(٣٧) وذلك إشارة إلى قوله تعالى في محكم كتابه المجيد : ـ ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . . ﴾ لقمان ٣١ : ٢٧

وقوله تعالى أيضاً : ـ ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدادا . . ﴾ سورة الكهف ١٨ : ١٠٩ .

المدلول اللغوي ، فلا معنىٰ لتحكيمه على القرآن ، ولو وجدت لغة أخرىٰ بعد القرآن فلا معنىٰ لأن يفهم القرآن من خلال لغة جديدة أو مصطلحات جديدة ، أو ألفاظ تحمل مدلولات وضعية .

إذن هذا العطاء الذي لا ينفد للقرآن ، وهذه المعاني التي لا تنتهي للقرآن والتي نص عليها القرآن نفسه ، ونصت عليه أحاديث أهل البيت عليهم الصلاة والسلام ، إن هذه الحالة من عدم النفاد تكمن في هذا المنهج ، أي منهج التفسير الموضوعي. لأننا نستنطق القرآن ، وإن في القرآن علم ما كان وعلم ما يأتي لأن في القرآن دواء دائنا ، ولأن في القرآن نظم ما بيننا . ولأن في القرآن ما يمكن أن نستشف منه مواقف السماء تجاه تجربة الأرض .

فمن هنا كان التفسير الموضوعي قادراً على أن يتطور ، وعلى أن ينمو ، ويثري . لأن التجربة البشرية تثريه ، والدرس القرآني ، والتأمل القرآني على ضوء التجربة البشرية يجعل هذا الثراء محمولاً إلى فهم إسلامي قرآني صحيح . .

خلاصة ما سبق (٣٨) .

كنا بصدد توضيح أوجه الاختلاف الرئيسية بين اتجاهين أساسيين في التفسير أحدهما : الاتجاه الموضوعي في التفسير ، والآخر الاتجاه التجزيئي في التفسير . ويمكن أن يستخلص مما ذكرناه من التوضيحات أنه يوجد هناك فارقان ، بارزان ، رئيسيان بين هذين الاتجاهين ، وتنبع من هذين الفارقين ، فوارق أخرىٰ ثانوية .

الفارق الرئيسي الأول : هو أن التفسير الموضوعي يبدأ بالواقع الخارجي وبحصيلة التجربة البشرية . حيث يتزود بكل ما وصلت إلى يده من حصيلة هذه التجربة ، ومن أفكارها ، ومن مضامينها . ثم يعود إلى القرآن الكريم ليحكّم القرآن ويستنطقه . على حد تعبير الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة

---

(٣٨) من هنا تبدأ المحاضرة الثانية التي ألقيت في يوم الأربعاء الموافق فيه الثامن عشر من شهر جمادي الأولى عام ١٣٩٩ هـ .

والسـلام ، ويكون دوره دور المستنـطق ، وهـو دور إيجـابي ، يكـون المفسر فيـه محاوراً ، ودوره دور من يطرح المشاكل ، ومن يـطرح الأسئلة والاستفهامـات في ضوء تلك الحصيلة البشرية ، والتجربـة الثقافيـة التي استطاع الحصـول عليها ، ثم يتلقى من خـلال عملية الاستنطاق ، ومن خلال عمليـة الحوار مـع أشرف كتاب ، الأجوبة من ثنايا آياته المتفرقة .

فهنا نقطة البدء في التفسير الموضوعي تكون من الواقع ، وتعود إلى القرآن الكريم ، بينما التفسير التجزيئي يبدأ من القرآن ، وينتهي إلى القرآن ، ليس فيه حركة من الواقع إلى القرآن ومن القرآن إلى الـواقع ، وإنما يبدأ بـالقرآن وينتهي بالقرآن . ودور المفسر فيه دور سلبي حيث إنه يخلي ذهنه من أي سوابق ومن أي طروحات مسبقـة ، ويجلس بين يـدي القرآن جلوس المستمـع لا جلوس المحاور والمستفهم . يجلس جلوس من يستمع ويسجل ما ينطبق في ذهنه من نتائـج هذا الاستماع . هذا هو الامر الأول .

ثانياً : التفسير الموضوعي يتقدم خطوة إلى الأمام :

إن التفسـير المـوضـوعي يتجـاوز التفسـير التجـزيئي خــطوة لأن التفسـير التجزيئي يكتفي بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية الكريمة . بينما نجد أن التفسير الموضوعي يطمح إلى أكثر من ذلك ويتطلع إلى ما هو أوسـع من ذلك حيث يحاول أن يستحصل أوجه الارتباط بين هذه المدلولات التفصيلية ، ويحاول أن يصل إلى مركب نظري قرآني . وهذا المركب النـظري القرآني يحتـل في إطاره كل واحد من تلك المـدلولات التفصيليـة موقعـه المناسب ، وهـذا هو مـا نسميه بلغة اليوم بالنظرية . وعبر هذا الإطار يصـل المفسر إلى نظريـة قرآنيـة عن النبوة مثلاً أو عن المذهب الاقتصادي أو عن سنن التاريـخ أو عن السموات والأرض . وما إلى ذلك .

فهنا التفسير الموضوعي يتقدم خطوة على التفسير التجزيئي ، وذلك بقصد الحصـول على هـذا المركب النـظري الذي لابـد من أن يكون معبـراً عن موقف قرآني تجاه موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية .

هذان فارقان رئيسيان بين الاتجاهين الموضوعي والتجزيئي في التفسير .

الموضوعية والتوحيدية . . ماذا تعني ؟

استعملنا اصطلاح الموضوعية في ضوء الأمر الأول والفارق الأول لأن التفسير يبدأ من الموضوع ، ومن الواقع الخارجي ومن الشيء الخارجي ومن ثم يعود إلى القرآن الكريم . أي أننا حينما نعبر عن التفسير بأنه موضوعي في ضوء الأمر الأول فلأنه يبدأ من الموضوع الخارجي وينتهي إلى القرآن الكريم .

أما مصطلح التوحيدية فباعتبار أنه يوّحد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم ، لا بمعنىٰ أنه يحمل التجربة البشرية على القرآن ، وليس بمعنىٰ أنه يخضع أو يطوّع القرآن للتجربة البشرية . بل بمعنىٰ أنه يوحد بينهما في سياق بحث واحد لكي يستخرج نتيجة هذا السياق الموّحد من البحث . أي أنه يستخرج المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدد موقف الإسلام تجاه هذه التجربة أو المقولة الفكرية التي أدخلها في سياق بحثه .

أما على أساس الأمر الثاني فإن التفسير يكون موضوعياً باعتبار أنه يختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد .

وهو توحيدي باعتبار أنه يوحّد بين هذه الآيات ، ويوحد بين مدلولات هذه الآيات ضمن مركب نظري واحد . وبالتالي فإن اصطلاح الموضوعية والتوحيدية في التفسير ينسجم مع كل من هذين الفارقين بما بيّناه . .

ولا نقصد بالموضوعية هنا ، الموضوعية في مقابل التحيز ، مثلما يقال عادة بأن هذا البحث موضوعي [٣٩] في مقابل أن يكون بحثاً متحيزاً أو منحازاً . ومن الطبيعي أن الموضوعية بهذا المعنىٰ مرفوضة في التفسير التجزيئي والتفسير الموضوعي معاً .

إن الموضوعية بهذا المعنى ليست من مزايا التفسير الموضوعي في مقابل التفسير التجزيئي . حيث إن الموضوعية ضمن هذا المعنى هي عبارة عن الأمانة في البحث وعبارة عن الاستقامة على جادة البحث ، وهذه مفترضه في كلا الاتجاهين . غير أن الموضوعية التي نجعلها في مقابل التجزيئية هي غير تلك

---

(٣٩) أي أنه غير متحيز إزاء الموضوع الذي يتناوله .

الموضوعية التي تقابل الذاتية والتحيز وإنما ما نعنيه هنا بالموضوعية هو أن يبدأ المفسر من الموضوع وينتهي إلى القرآن . هذا ضمن إطار الأمر الأول . أما في مجال الأمر الثاني فهو اختيار المفسر لمجموعة من الآيات التي تشترك في موضوع واحد من أجل أن يقوم بعملية التوحيد بين مدلولات هذه الآيات من أجل أن يستخرج نظرية قرآنية شاملة بالنسبة إلى ذلك الموضوع .

الاتجاه الموضوعي وتطوير البحث الفقهي .

سبق أن ذكرنا بأن الأبحاث الفقهية سارت في الاتجاه الموضوعي (٤٠) بينما ظلت الأبحاث التفسيرية تسير في الاتجاه التجزيئي . غير أن ذلك لا يعني أن البحث الفقهي استنفد طاقة الاتجاه الموضوعي . صحيح أن البحث الفقهي قد سار في الاتجاه الموضوعي ولكنه لم يستنفد أيضاً طاقة الاتجاه الموضوعي . ولهذا فإن البحث الفقهي مدعو اليوم إلى أن يستنفد طاقة هذا الاتجاه الموضوعي أفقياً وعمودياً .

على الصعيد الأفقي لابد للبحث الفقهي من أن يستنفد طاقة الاتجاه الموضوعي باعتبار أن الاتجاه الموضوعي ـ كما قلنا ـ عبارة عن أن يبدأ الإنسان من الواقع وينتهي إلى الشريعة (٤١) .

---

(٤٠) في المدارس الفقهية التي أبقت باب الاجتهاد مفتوحاً ، ظل الفقيه في بحثه الفقهي ، وفي ممارساته لمهماته على ارتباط دائم وفاعل مع الواقع الحياتي . وهذا الارتباط أدى دوماً إلى إثراء مسيرته الفقهية كما وكيفاً لأنه كان يواجه يومياً بالعديد من الاستفسارات الذاتية والخارجية عن موقف التشريع الإسلامي إزاء هذه القضية أو تلك . وقد أدى ذلك إلى أن هذه الاستفسارات المتزايدة كانت تدفعه باتجاه تحديد الحكم الشرعي لها . مما أدى دوماً إلى تقدم المسيرة الفقهية في هذه المدارس .

أما في المدارس التي أوصدت باب الاجتهاد وأغلقته ، فإنها في واقع الحال لم تغلق باب الاجتهاد فحسب وإنما أغلقت باب تعاملها مع الواقع . بشكل أدى إلى جعل الفقه الإسلامي ضمن حدود هذه الاتجاهات أسيراً لشرح الكتاب الفلاني ثم تراكم الشروح على هذا الشرح ، بل النزوع إلى شرح الشروح . وللأسف أدى ذلك فيما بعد إلى اتجاه الكثير من أبناء الإسلام لطلب التقنين الفقهي في غالبية المسائل التي تستجد من التجارب الفقهية البشرية .

(٤١) أي سعي الفقيه لإبراز الحكم الشرعي في كل واقعة حياتية . سواء كان لهذه الواقعة وجود =

كان هذا الأمر هو ديدن العلماء والفقهاء. فلقد كانت وقائع الحياة تنعكس عليهم على شكل أحكام جعالة أو مضاربة [٤٢] أو مزارعة [٤٣] أو مساقات[٤٤] أو نكاح . إن هذه الحوادث والوقائع تنعكس عليهم ثم يأخذون هذا الواقع ويأتون إلى مصادر الشريعة [٤٥] . ليستنبطوا الحكم من هذه المصادر . إن ذلك هو الاتجاه الموضوعي لأنه يبدأ بالواقع ، وينتهي إلى الشريعة في مقام التعرف على حكم هذا الواقع .

ولكن هنا لا بد من أن يمتد الفقه أفقياً على هذه الساحة أكثر . لأن العلماء الذين ساهموا في تكوين هذا الاتجاه الموضوعي عبر قرون متعددة كانوا حريصين

= خارجي أو كانت محتملة الوقوع - مهما بدا هذا الاحتمال بعيداً - ، وفي جميع شؤون الحياة الإنسانية .

ومن المعروف أن الفقه الجعفري ، وهو الفقه الذي لم يغلق أبواب الاجتهاد ويعتبر من أكثر الاتجاهات الفقهية توسعاً وأغناها في هذا الجانب .

(٤٢) المضاربة : ضرب من المعاملات الاقتصادية ، تتم من خلال عقد يقع ما بين شخصين يكون رأس المال المعد في هذه المعاملة من أحدهما والعمل من الآخر .وعلى افتراض حصول ربح من جراء ذلك يوزع هذا الربح ما بين الاثنين . وعادة ما يختص هذا النوع من العقود الاقتصادية ببحث فقهي مستقل .

(٤٣) المزارعة : - بحث فقهي . ونمط من أنماط المعاملات يقوم على أساس زراعة الأرض لقاء أجر يتمثل في حصة من حاصلها .

(٤٤) المسافات : هي الأخرىٰ نمط من أنماط المعاملات تقوم على أساس تعهد السقي للأصول الثابتة كأشجار الفواكه وما شاكل لمدة معينة في مقابل حصة من ثمار هذه الأصول .

(٤٥) مصادر الشريعة هي كتاب الله والسنة الشريفة ، ويضاف إليها العقل والإجماع في حالة عدم وجود نص شرعي ثابت لهذه الواقعة .وهذان المصدران محددان بالأصول العامة المستخرجة من الكتاب والسنة . بحيث إن الفقيه حينما يلجأ إلى هذين العنصرين لا يدخل تقييمه الذاتي للأحداث وإنما يظل التقييم الإلهي هو الحاكم على ذلك . وقد يضيف البعض إلى ذلك مصادر أخرىٰ كالقياس وسائر الاستحسانات العقلية المبنية على حساب المصالح والمفاسد الظنية وما شاكل ذلك. غير أن التدقيق في هذه المصادر يجعلنا قبالة كون هذه المصادر تمثل تهديداً دائماً للفقه الإسلامي لكونها تسهم في إدخال عنصر التقييم البشري في التشريع وتجعله في موازاة عنصر التقييم الإلهي للأحداث والوقائع .وفي هذا الصدد يرىٰ السيد الشهيد بأن إضافة هذه المصادر يؤدي إلى تسرب شخصية الإنسان بذوقه وتصوراته الخاصة إلى التشريع . انظر كتابه بحث حول الولاية ص ٤٤ الطبعة الثانية ١٩٧٩ بيروت .

على أن يأخذوا هذه الوقائع ويحوّلوها دائماً إلى الشريعة لكي يستنبطوا أحكام الشريعة المرتبطة بتلك الوقائع . ولكن وقائع الحياة تتجدد وتتكاثر باستمرار وتتولد ميادين جديدة . إذن لابد لهذه العملية من النمو باستمرار حتىٰ تشمل كل ما يستجد من وقائع الحياة . إن الواقع الساكن المحدود الذي كان يعيشه الشيخ الطوسي أو الذي كان يعيشه المحقق الحلي (٤٦) . كان يفي بحاجات عصر الشيخ الطوسي وعصر المحقق الحلي . ولكن كم من باب وباب من أبواب الحياة فتحت بالتدرج والتي لابد من عرضها على الشريعة لتحديد الموقف الشرعي منها . ونحن اذا أردنا أن يستمر الاتجاه الموضوعي في البحث الفقهي فلا بد من أن نمدده أفقياً على مستوى ما استجد من أبواب الحياة . فكم من باب من أبواب الحياة استجد ولم يكن معروفاً في السابق : التجارة والمضاربة والمزارعة والمساقات كانت تمثل السوق قبل ألف سنة أو قبل ثمانمائة سنة (٤٧) . ولكن سوق اليوم ومعاملاته والعلاقات الاقتصادية فيه أوسع من هذا النطاق ، وأكثر تشابكاً من ذلك .

إذن لابد للفقه من أن يكون اليوم كما كان على يد أولئك العلماء الذين كانوا حريصين على أن يعكسوا كل ما يستجد من وقائع الحياة على الشريعة ليأخذوا حكم الشريعة . ولابد أيضاً من أن تسير هذه العملية أفقياً كما سارت أفقياً في البداية .

أما على الصعيد العمودي فلا بد من أن يتوغل هذا الاتجاه الموضوعي في

---

(٤٦) المحقق الحلي : ـ هو الشيخ نجم الدين أبو القاسم جعفر بن الحسن الحلي الملقب بالمحقق أحد أبرز علماء عصره وفقيهه الأول . ولد عام ٦٠٢ هـ في مدينة الحلة وسط العراق . وهو أستاذ العلامة الحلي وشيخه وخاله وصاحب كتاب شرائع الإسلام الذي يعد واحداً من أهم الكتب الفقهية حيث لا زال يدرس لحد الأن وعلى نطاق واسع في الجامعات الدينية في العراق وإيران وباكستان والخليج ولبنان والهند . وكتابه هذا هو الناسخ لكتاب النهاية للشيخ الطوسي في التدريس والذي كان لا ينافسه أحد طوال الفترة الممتدة بين الفقيهين . توفى رضوان الله عليه عام ٦٧٦ هـ .

(٤٧) من المؤسف حقاً أن نلاحظ في العديد من الكتب الفقهية وجود الكثير من المصطلحات والتسميات التي كانت سائدة بشكل عملي ـ آنذاك ـ كوحدات التسعير والوزن وما إلى ذلك من أمور فقدت أي أثر عملي لها الآن .

الفقه وينفذ عمودياً . أو بكلمة أخرىٰ لابد من أن يصل إلى النظريات الأساسية ، ولابد من أن لا يكتفي بالبناءات العلوية وبالتشريعات التفصيلية ، وإنما يجب أن ينفذ من خلال هذه البناءات العلوية إلى النظريات الأساسية التي تمثل وجهة نظر الإسلام . وذلك لأننا نعلم أن كل مجموعة من التشريعات في كل باب من أبواب الحياة ترتبط بنظريات أساسية . فأحكام الإسلام وتشريعاته في مجال الحياة الاقتصادية ترتبط بنظرية الإسلام بالمذهب الاقتصادي في الإسلام . وأحكام الإسلام في مجال النكاح والطلاق والزواج وعلاقات المرأة مع الرجل ترتبط بنظرياته الاساسية عن المرأة والرجل ودور المرأة والرجل .

إن هذه النظريات الأساسية التي تشكل القواعد النظرية لهذه الأبنية العلوية ، لابد أيضاً من التوغل إليها . كما أنه لا ينبغي أن ينظر إلى ذلك بوصفه عملاً منفصلاً عن الفقه أو بوصفه ترفاً أو نوع تفنن وأدب . كلا فالأمر ليس كذلك . بل هذا ضرورة من ضرورات الفقه ، فلا بد من النفاذ والتوغل عمودياً إلى تلك النظريات ومحاولة اكتشافها بقدر الطاقة البشرية .

التفسير الموضوعي والنظريات الإسلامية .

الآن نعود إلى التفسير بما ذكرناه من أوجه الاختلاف بين التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي . حيث تبينت لدينا عدة أفضليات تدعو إلى تفضيل المنهج الموضوعي في التفسير علىٰ المنهج التجزيئي في التفسير . فالمنهج الموضوعي في ضوء ما ذكرناه آنفاً يكون أوسع أفقاً وأرحب وأكثر عطاء باعتبار أنه يتقدم خطوة على التفسير التجزيئي كما أنه قادر على التجدد والتطور والإبداع باستمرار . وذلك لأن التجربة البشرية تغني هذا التفسير بما تقدمه له من مواد ، ثم تطرح هذه المواد بين يدي القرآن الكريم لكي يستطيع هذا المفسر أن يستحصل الأجوبة من القرآن الكريم . وهذا هو الطريق الوحيد للحصول على النظريات الأساسية للإسلام وللقرآن تجاه موضوعات الحياة المختلفة .

وقد يقال : ما هي الضرورة اللازمة إلى تحصيل هذه النظريات الأساسية ؟

وما هي الضرورة التي تدعو لأن نفهم نظرية الإسلام في النبوة مثلاً بشكل

عـام أو أن نفهم نظريـة الإسلام في سنن التـاريخ وفي التغـير الاجتمـاعي أو أن نفهم نـظرية الإسـلام في الاقتصاد الإسـلامي أو عن السموات والأرض بشكـل عام ؟

ومـا هي الضرورة لأن نـدرس ونحدد هـذه النـظريـات في الـوقت الـذي وجدنا النبي (ص) لم يعط هذه النظريات على شكـل نظريـات محدودة وبصيـغ عامه وإنما أعطىٰ القرآنِ بهذا الترتيب للمسلمين (٤٨) .

اذن مـا هي الضرورة التي تـدعو لأن نتعب أنفسنـا في سبيل تحصيـل هذه النـظريات وتحـديدهـا بعد أن لاحـظنا أن النبي (ص) قـد اكتفىٰ بإعـطاء هذا المجموع وهذا الشكل المتراكم بهذا الشكل ؟

الحقيقة هي أن هناك ضرورة أساسية لتحديـد هذه النـظريات ولتحصيـل هذه النظريـات ولا يمكن أن يفترض الاستغنـاء عن ذلك . فـالنبي (ص) كان يعطي هذه النظريات . ولكن من خلال التطبيق ومن خلال المناخ القـرآني العام الذي كان يبينه في الحياة الإسلامية . وكان كل فـرد مسلم في إطار هـذا المناخ ، يفهم هـذه النظريـة ولو فهـما اجمـاليـاً ارتكـازيـاً . لأن المنـاخ والإطـار الـروحي والاجتماعي والفكري والتربوي الـذي وصفه النبي (ص) كـان قادراً عـلى أن يعــطي النـظرة السليمــة ، والقـدرة السليمــة عـلى تقييم المــواقـع والمــواقف والأحداث .

ونحن اذا أردنا أن نقرب هذه الفكرة نقول لننظر إلى حالة بـين حالتـين : حالة إنسان يعيش داخل عـرف لغة من اللغـات ، وإنسان يـريد أن يفهم كيف تنتقل أذهان أبناء هذه اللغة وأبناء هـذا العرف إلى معـاني ألفاظ لغتهم ؟ وكيف يحددون المعاني من الألفاظ ؟

---

(٤٨) ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الترتيب الحالي لسور وآيات القرآن الكريم لا يعكس ترتيبها اثناء نزول القرآن . وإنما جاء هذا الترتيب بناء على توجيه الرسول (ص) وأوامره . فحينما كانت تنزل آية أو مجموعة آيات كان يأمر بوضعها في مكانها الحالي . وتوجـد العديـد من الآيات القـرآنية التي نزلت بعد نزول معظم السورة التي كان موضعها الآخير فيها . كما أنه (ص) وضع الصورة الحالية لتسلسل السور .

هنـا توجـد حالتـان : إحداهمـا : أن نأتي بهـذا الإنسان ونجعله يعيش في أعماق هذا العرف ، وفي أعماق هذه اللغة . ونحن إذا جعلناه يعيش في أعماق هذا العرف وفي أعماق هذه اللغة واستمرت به الحياة في إطار هذا العرف وهـذه اللغة فترة طويلة من الزمن فـإنه سـوف يتكون لـديه الإطـار اللغوي ، والإطـار العرفي الذي يستطيع من خلاله أن يتحرك ذهنه وفقاً لما يريده العرف واللغة منـه لأن مدلولات اللغة وقواعدها موجوده وجوداً إجمالياً ارتكازياً في ذهنه .

إن اللفظة السليمة والتقييم السليم للكلمة الصحيحة وتمييزها عن الكلمة غير الصحيحة تكون موجودة عنده باعتبار أنه عاش عمق اللغـة وعاش وجـدانها وإطارها وكذلك عاش تطبيقها . هذه هي الحالة الأولىٰ . أما الثانية فتلحظها إذا كان الإنسان خـارج مناخ تلك اللغـة وخارج عـرفها وأردت أن تنشيء في ذهنـه القدرة على التمييـز اللغوي الصحيـح . ترىٰ كيف تستـطيع أن تنشيء في ذهنـه القدرة على التمييز اللغوي الصحيح ؟

إن ذلك يكون عن طريق الرجوع إلى قواعد تلك اللغة ، حينئـذ لابد من أن ترجع إلى ذلك العرف الذي تربىٰ فيه ذلك الإنسان الذي أشرنا إليه في الحالة الأولىٰ . إنك ترجع إلى ذلك العرف لكي تستنتج فيه القواعد العامة والنظريات العامة .

إن هذا الأمر هو نفس ما وقع بالنسبـة إلى علوم اللغة العـربية . كيف أن ابن اللغة لم يكن بحاجة إلى أن يتعلم علوم العرب في البداية ؟ لأنـه كان يعيش في أعماق عرف اللغة ، لكن بعد أن ابتعد عن تلك الأعماق وبعـد أن اختلفت الأجواء وبعد أن ضعفت اللغة وبعد أن تراكمت لغات أخرىٰ اندست إلى داخل حياة هؤلاء . بعد كل ذلك بـدأ هؤلاء يحتاجون إلى علم اللغة ، وبـدأوا يحسون بالحاجة إلى نظريات اللغة لأن الواقع لا يسعفهم بنظرة سليمة . إذن فـلا بد من علم ولابد من نظريات . لكي يفكروا ، ولكي يناقشوا ، ولكي يتصـرفوا لغـوياً وفقاً لتلك القواعد والنظريات . كان هذا مثالاً تقريبياً لأجل توضيح الفكرة .

إذن الصحابة الذين عاشوا في كنف الرسول الأعظم (ص) . إذا كانوا لم يتلقـوا النظريـات بصيغ عـامة ، فقـد تلقوهـا تلقياً إجمـالياً ارتكـازياً انتقشت في

أذهـانهم ، وسرت في أفكـارهم ، لقـد كـان المنـاخ العـام والإطـار الاجتمـاعي والروحي والفكري الذي يعيشونه مساعـداً على تفهم هـذه النظريـات ولو تفهـماً إجمالياً ، وعلى توليد المقياس الصحيح في مقام التقييم . أما حيث لا يوجـد ذلك المنـاخ ، وحيث لا يوجـد ذلك الإطـار فإن الحـاجة إلى دراسـة نظريـات القرآن والإسلام تكون حاجة حقيقية ملحة خصوصاً مـع بروز النـظريات الحـديثة التي أعقبها تفاعل كبير بين إنسان العالم الإسلامي وإنسان العالم الغربي بكل مـا يملك هذا الإنسان من رصيـد عظيم ، ومن ثقـافة متنـوعة في مختلف مجـالات المعرفـة البشريـة .

إن هذا التفاعـل حينما وقـع بين إنسـان العالم الإسـلامي ، وإنسان العـالم الغربي ، أدى بالإنسـان المسلم إلى أن يجد نفسـه أمام نـظريات كثيـرة في مختلف مجالات الحياة . فكان لابد من تحديد موقف الإسلام من هذه النظريـات . ومن أجل ذلك كان لابد من أن يستنطق نصوص الإسلام ، ويتوغـل في أعماق هـذه النصوص لكي يصل إلى مواقف الإسلام الحقيقية سلباً وإيجـاباً ، ولكي يكتشف نظريات الإسلام التي تعالج نفس هذه المواضيع التي عالجتها التجـارب البشريـة الذكية في مختلف مجالات الحياة .

التفسير الموضوعي أفضل الاتجاهين . . ولكن . . .

إذن فالتفسير الموضوعي في المقـام هـو أفضـل الاتجاهـين في التفسير إلا أن هذا الحكم لاينبغي أن يكون المقصود منه الاستغناء عن التفسير التجـزيئي ، إن هذه الأفضلية لا تعني استبـدال اتجاه ، بـاتجاه . وطـرح التفسير التجـزيئي دفعة واحدة والأخذ بالتفسير المـوضوعي ، وإنمـا إضافـة اتجاه إلى اتجـاه ، لأن التفسير المـوضوعي ليس إلا خـطوة إلى الأمام بـالنسبة إلى التفسـير التجزيئي . ولا معنى للاستغناء عن التفسير التجزيئي باتجاه التفسير الموضوعي .

إذن فـالمسألـة هنا ليست مسـألة استبـدال ، وانما هي مسـألة ضم الاتجـاه الموضوعي في التفسير إلى الاتجاه التجزيئي في التفسير ، أي افتـراض خطوتـين . الخـطوة الأولىٰ هي التفســير التجــزيئي ، والخــطوة الأخــرىٰ هي الـتفســير الموضوعي .

مبرر عملي [٤٩]

استعرضنا فيما سبق المبررات الموضوعية والفكرية لايثار التفسير الموضوعي التوحيدي ، على التفسير التجزيئي التقليدي . وذلك باعتبار أن التفسير الموضوعي أغنىٰ عطاءً ، وأكثر قدرة على التحرك والإبداع ، وعلى تحديد المواقف النظرية الشاملة للقرآن الكريم .

الآن أود أن أذكر مبرراً عملياً وهو أن شوط التفسير التقليدي هو شوط طويل جداً . لأنه يبدأ من سورة الفاتحة وينتهي بسورة الناس ، ويحتاج هذا الشوط الطويل ، من أجل إكماله ، إلى فترة زمنية طويلة أيضاً . ولهذا لم يحظَ من علماء الإسلام إلا عدد محدود بهذا الشرف العظيم ، شرف مرافقة الكتاب الكريم من بدايته إلى نهايته . ونحن نشعر بأن هذه الأيام المحدودة المتبقية ، لا تفي بهذا الشوط الطويل [٥٠] ، ولهذا كان من الأفضل اختيار أشواط أقصر ، لكي نستطيع أن نكمل بضعة أشواط من هذه الجولات في رحاب القرآن الكريم .

لذلك سوف نختار موضوعات متعددة في القرآن الكريم ، ونستعرض ما يتعلق بذلك الموضوع ، وما يمكن أن يلقي عليه القرآن من أضواء .

وسوف نحاول أن يكون البحث مضغوطاً بقدر الإمكان ، لكي نستطيع أن نصل إلى عدد من المواضيع المهمة . فنقتصر على الأفكار الأساسية والمبادىء الرئيسية بالنسبة إلى كل موضوع . وسوف أحرص على أن لا يستوعب كل موضوع إلا عدداً محدوداً من المحاضرات . أرجو أن يكون بين خمس إلى عشر محاضرات لكي نستطيع أن نستوعب مواضيع متنوعة من القرآن الكريم .

---

(٤٩) إلى هنا انتهت المحاضرة الثانية . وابتدأت المحاضرة الثالثة التي ألقيت في يوم الثلاثاء الموافق فيه الخامس والعشرون من شهر جمادي الأول عام ١٣٩٩ هـ .

(٥٠) ترىٰ هل كان السيد الشهيد ـ رض ـ ينعىٰ نفسه .

الفصل الثاني

سنن التاريخ في القرآن الكريم

هل للتاريخ البشري سنن في مفهوم القرآن الكريم ؟

هل له قوانين تتحكم في مسيرته وفي حركته وتطوره ؟

كيف بدأ التاريخ البشري ؟

كيف نما . وكيف تطور ؟

ما هي العوامل الأساسية في نظرية التاريخ ؟

ما هو دور الإنسان في عملية التاريخ؟

ما هو موقع السماء أو النبوة على الساحة البشرية ؟

هذا كله هو ما سوف ندرسه تحت هذا العنوان : سنن التاريخ في القرآن الكريم . وهذا الجانب من القرآن الكريم قد بُحث الجزء الأعظم من مواده ومفرداته القرآنية ولكن من زوايا مختلفة . فمثلاً نجد أن قصص الأنبياء (عليهم السلام) التي تمثل الجزء الأعظم من هذه المادة القرآنية ، قد فحصت من زاوية تاريخية حيث تناولها المؤرخون واستعرضوا الحوادث والوقائع التي تكلم عنها القرآن الكريم . وحينما لاحظ هؤلاء الفراغات التي تركها هذا الكتاب العزيز حاولوا أن يملأوا هذه الفراغات بالروايات والأحاديث ، أو بما هو مأثور عن

أديان سابقة ، أو حتى بالأساطير والخرافات [1] فتكونت بذلك سجلات ذات طابع تاريخي لتنظيم هذه المادة القرآنية .

وكذلك بحثت هذه المادة القرآنية أيضاً من زاوية أخرى هي زاوية نهج القصة في القرآن [2] ، حيث سعى الباحث إلى البحث في مدى ما يتمتع به هذا المنهج من أصالة وقوة وإبداع ، وما تزخر به القصة القرآنية من حيوية ومن حركة وأحداث هذه أيضاً زاوية أخرى للبحث في هذه المادة تضاف إلى زوايا عديدة .

نحن الآن نريد أن نتناول هذه المادة القرآنية من زاوية أخرى ، هي زاوية مقدار ما تلقي هذه المادة من أضواء على سنن التاريخ ، وعلى تلك الضوابط والقوانين والنواميس التي تتحكم في عملية التاريخ . هل يوجد في مفهوم القرآن شيء من هذه النواميس والضوابط والقوانين .

هل للتاريخ سنن ؟

إن الساحة التاريخية كأي ساحة أخرى زاخرة بمجموعة من الظواهر ، كما أن الساحة الفلكية ، أو الساحة الفيزيائية أو الساحة النباتية زاخرة بمجموعة من الظواهر ، كذلك الساحة التاريخية (بالمعنى الذي سوف يفصل من التاريخ إن شاء الله بعد ذلك [3])، هي الأخرى زاخرة بمجموعة من الظواهر ، وكما أن الظواهر في كل ساحة أخرى من الساحات لها سنن ولها نواميس ، فإن من حقنا أن نتساءل : ـ هل أن الظواهر التي تزخر بها الساحة التاريخية ذات سنن وذات نواميس ؟

وإذا كان ذلك فما هو موقف القرآن الكريم من هذه السنن والنواميس ؟ وما هو عطاؤه في مقام تأكيد هذا المفهوم إيجاباً أو سلباً ، إجمالاً أو تفصيلاً .

---

(١) مما يؤسف له أن غالبية الكتب التي سطرها المؤرخون عن حياة الأنبياء حافلة بذلك ، ، وما يؤسف له أكثر أن محاولات جادة وبشكل معمق لإعادة الكتابة عن حياة الأنبياء بشكل ينسجم ورسالة الأنبياء (ع) تكاد أن لا يكون لها وجود .

(٢) كما تلحظ ذلك بوضوح في كتاب التصوير الفني في القرآن لسيد قطب .

(٣) أنظر تفصيل ذلك في المحاضرة الخامسة .

تذليل اعتراض

وقد يخيل إلى بعض الأشخاص ، بأننا لا ينبغي أن نترقب من القرآن الكريم أن يتحدث عن سنن التاريخ ، لأن البحث في سنن التاريخ بحث علمي كالبحث في سنن الطبيعة ، والذرة ، والنبات ، والقرآن الكريم لم ينزل ككتاب اكتشاف بل إنه كتاب هداية ، كما أن القرآن الكريم لم يكن كتاباً مدرسياً ، ولم ينزل على رسول الله (ص) بوصفه معلماً بالمعنىٰ التقليدي للمعلم لكي يدرس مجموعة من المتخصصين والمثقفين ، وإنما نزل هذا الكتاب عليه لكي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن ظلمات الجاهلية إلى نور الهداية والإسلام . إذن فهو كتاب هداية وتغيير وليس كتاب اكتشاف .

ومن هنا فإننا لا نترقب من القرآن الكريم أن يكشف لنا الحقائق والمبادىء العامة للعلوم الأخرىٰ . كأن يتحدث لنا عن مبادىء الفيزياء أو الكيمياء أو النبات أو الحيوان . . صحيح أن في القرآن الكريم إشارات إلى كل ذلك ولكنها إشارات بالحدود التي تؤكد على البعد الإلهي للقرآن ، وبالقدر الذي يمكن أن يثبت العمق الرباني لهذا الكتاب الذي أحاط بالماضي والحاضر والمستقبل والذي استطاع أن يسبق التجربة البشرية مئات السنين في مقام الكشف عن حقائق متفرقة من الميادين العلمية المتفرقة . ولكن هذه الإشارات القرآنية ، إنما هي لأجل غرض علمي من هذا القبيل ، لا من أجل تعليم الفيزياء والكيمياء .

كما أن القرآن لم يطرح نفسه بديلاً عن قدرة الإنسان الخلاقة [٤] ، وعن مواهبه وقابلياته في مقام الكدح ، الكدح في كلِ ميادين الحياة بما في ذلك ميدان المعرفة والتجربة. إن القرآن لم يطرح نفسه بديلاً عن هذه الميادين ، وإنما طرح نفسه طاقة روحية موجهة للإنسان ومفجرة لطاقاته ، ومحركة له في المسار الصحيح . فإذا كان القرآن الكريم كتاب هداية وتوجيه ، وليس كتاب اكتشاف

---

(٤) من المؤكد أن ما حفل به القرآن الكريم من إشارات أو دلالات علمية في ساحات العلوم كافة . إنما كان تحفيزاً لهذه الطاقة وإثارة لفضولها ، باتجاه سبر أغوار هذه الساحات وهدايتها في طريق تسخير الطبيعة لخدمة البشرية وتقدمها نحو هدفها المنشود .

وعلم . فليس من الطبيعي أن نترقب منه استعراض مبادىء عامة لكل واحد من هذه العلوم التي يقوم الفهم البشري بمهمة التوغل في اكتشاف نواميسها وقوانينها وضوابطها . أو أن يعطينا عموميات ومواقف وأن يبلور لن مفهوماً علمياً في سنن التاريخ على هذه الساحة من ساحات الكون بينما ليس للقرآن مثل ذلك على الساحات الأخرىٰ ، ولا حرج على القرآن في أن لا يكون له ذلك على الساحات الأخرىٰ ؟ لأن القرآن لو سار في مقام استعراض هذه القوانين ، وكشف هذه الحقائق لكان بذلك قد تحول إلى كتاب آخر نوعياً ، حيث سيتحول من كتاب للبشرية جمعاء إلى كتاب للمتخصصين يدرس في الحلقات الخاصة .

قد يلاحظ بهذا الشكل على اختيار هذا الموضوع . إلا أن هذه الملاحظة على الرغم من أن الروح العامة فيها صحيحة . أي بمعنىٰ أن القرآن الكريم ليس كتاب اكتشاف ، ولم يطرح نفسه ليجمد في الإنسان طاقات النمو والإبداع والبحث ، وإنما هو كتاب هداية .

ولكن مع هذا يوجد فرق جوهري بين الساحة التاريخية وبقية ساحات الكون ، هذا الفرق الجوهري يجعل من هذه الساحة ، ومن سنن هذه الساحة أمراً مرتبطاً أشد الارتباط بوظيفة القرآن ككتاب هداية ، خلافاً لبقية الساحات الكونية والميادين الأخرىٰ للمعرفة البشرية ، وذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية وعملية تغيير ، وهذه العملية هي التي عبر عنها القرآن الكريم بأنها إخراج للناس من الظلمات إلى النور .

بعدا العملية التغييرية في القرآن .

إن عملية التغيير في القرآن فيها جانبان هما : ـ الجانب الأول : ـ هو جانب المحتوىٰ والمضمون ، أو بعبارة أخرىٰ ما تدعو إليه هذه العملية التغييرية من إحكام ومناهج وما تتبناه من تشريعات ، إن هذا الجانب من عملية التغيير هو جانب رباني إلهي سماوي حيث يمثل شريعة الله سبحانه وتعالى التي نزلت على النبي محمد (ص) ، وتحدت بنفس نزولها عليه كل سنن التاريخ المادية لأن هذه الشريعة كانت أكبر من الجو الذي نزلت عليه . ومن البيئة التي حلت فيها ، ومن الفرد الذي كلف بأن يقوم باعباء تبليغها .

إن هـذا الجانب من عمليـة التغيـير ، أي جـانب المحتـوى والمضمـون ، وجانب التشريعات والأحكام والمناهج التي تـدعو إليهـا هذه العمليـة هو جـانب رباني إلهي .

ولكن هناك جانب أخر لعملية التغيير التي مارسها النبي (ص) وأصحابه الأطهار ، نراه حينما نلحظ هذه العمليـة بوصفهـا عملية متجسـدة في جماعـة من النـاس وهم النبي والصحابـة ، وبوصفهـا عملية اجتمـاعيـة متجسـدة في هـذه الصفوة، وبوصفها عملية قد واجهت تيارات اجتماعية مختلفة من حـولها واشتبكت معها في ألوان من الصراع والنزاع العقائدي والاجتماعي والسياسي والعسكري . إن هذه العملية حينما تؤخذ بوصفها تجسيداً بشريـاً واقعاً عـلى السـاحـة التاريخيـة ومترابطاً مع الجماعات والتيارات الأخـرىٰ التي تكتنف هذا التجسيـد سواء تلك التي تؤيد أو تقاوم هذا التجسيد . حينـما تؤخذ العمليـة من هذه الـزاوية تكـون عملية بشرية ، ويكون هؤلاء أناساً كسـائر النـاس تتحكم فيهم إلى درجة كبيـرة سنن التاريخ التي تتحكم في بقية الجماعات وفي بقية الفئات على مر الزمن (٥) .

إذن فعملية التغيير التي مارسها القرآن ، ومارسهـا النبي (صلى الله عليـه وآله وسلم) لها جانبان من حيث صلتها بالشريعة وبـالوحي ، فهي ربـانية وهي فـوق التـاريـخ . ولكن من حيث كـونها جهـداً بشـريـاً يقـاوم جهـوداً بشـريـة أخرىٰ ، فإنها من هذه الناحية تعتبر عملاً تاريخياً تحكمه سنن التاريخ ، وتتحكم

---

(٥) ما ينبغي الإشارة إليه هنا في هذا المقام هو أن القرآن الكريم حينما كان يتحدث عن هذا الجانب كان يحرص على وصف الأنبياء بصفات البشر ويشدد على خصائصهم البشرية ، كما يظهر ذلك واضحاً من خلال أقواله تعالى في محكم كتابه المجيد : ﴿ قالوا إن انتم إلا بشرٌ مِثلُنا تُريدونَ أن تصُدُّونا عمّا كان يعبُدُ آباؤنا فأتُونا بسُلطانٍ مُبينٍ * قالت لهم رسُلُهم إنْ نحنُ إلا بشرٌ مثلكم ﴾سـورة ابراهيم (ع) ١٤ : ١٠ ـ ١١

وقوله تعالى : ـ ﴿ قُل إنما أنَا بشرٌ مِثلُكم يُوحىٰ اليّ أنّما إلٰهُكم إلهٌ واحدٌ . . ﴾ سورة الكهف ١٨ : ١١٠

وقوله تعالى ﴿ وقالَ الملأُ من قومِهِ الذين كفروا وكذّبوا بلقاءِ الآخرةِ واترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم اذا لخاسرون . . . ﴾ سورة « المؤمنون » ٢٣ : ٣٣ ـ ٣٤،

فيه الضوابط التي وضعها الله سبحانه وتعالى لتنظيم ظواهر الكون في هذه الساحة المسماة بالساحة التاريخية .

ولهذا نرى أن القرآن الكريم حينما يتحدث عن الزاوية الثانية من عملية التغيير يتحدث عن أناس وعن بشر ، ولا يتحدث عن رسالة السماء ، بل يتحدث عنهم بوصفهم بشراً من البشر تتحكم فيهم القوانين التي تتحكم في الآخرين .

رسالة السماء لا تهزم

إن القرآن الكريم حينما أراد أن يتحدث عن خسارة المسلمين في غزوة أحد ، بعد أن أحرزوا ذلك الانتصار الحاسم في غزوة بدر . ثم بعد ذلك انكسروا وخسَروا المعركة في غزوة أحد . حينما تحدث القرآن الكريم عن هذه الخسارة . ترىٰ ماذا قال ؟

هل قال بأن رسالة السماء خسرت المعركة بعد أن كانت قد ربحت المعركة ؟ لا . . لأن رسالة السماء فوق مقاييس النصر والهزيمة بالمعنى المادي ، رسالة السماء لا تهزم . ولن تهزم أبداً ، ولكن الذي يهزم هو الإنسان ، حتىٰ ولو كان هذا الانسان مجسداً لرسالة السماء ، لأن هذا الإنسان تتحكم فيه سنن التاريخ . ولهذا قال القرآن﴿ **وتلك الأيّام نداولها بين الناس** ﴾ (٦) .

هنا أخذ يتكلم عنهم بوصفهم أناساً ، وقال بأن هذه القضية هي في الحقيقة ترتبط بسنن التاريخ ، فالمسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض أن ينتصروا، ومن ثم فقد خسروا المعركة في أحد حينما كانت الشروط الموضوعية في معركة أحد تفرض عليهم أن يخسروا المعركة : ـ ﴿ **إن يَمسَسكُم قرحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مِثلُهُ ، وتلِكَ الأيامُ نُداولها بينَ الناسِ** ﴾(٧) .

فلا تتخيلوا أن النصر حق إلهي لكم ، وإنما النصر حق طبيعي لكم بقدر ما يمكن أن توفروا الشروط الموضوعية لهذا النصر بحسب منطق سنن التاريخ

٧،٦) سورة آل عمران ٣ : ١٤٠

التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونياً [٨] لا تشريعياً [٩] . وحيث إنكم في غزوة أحد لم تتوافر لديكم هذه الشروط . فلهذا خسرتم المعركة .

إن الكلام هنا هو كلام مع بشر ، مع عملية بشرية لا مع رسالة ربانية . وليس هذا فحسب ، وإنما نجد القرآن يذهب إلى أكثر من ذلك حينما يهدد هذه الجماعة البشرية التي كانت أنظف وأطهر جماعة على مسرح التاريخ [١٠] ، بأنهم إذا لم يقوموا بدورهم التاريخي ، وإذا لم يكونوا على مستوى مسؤولية رسالة السماء . فإن هذا لا يعني أن تتعطل رسالة السماء ، ولا يعني أن تسكت سنن التاريخ عنهم . بل إنهم سوف يستبدلون ، لأن سنن التاريخ سوف تعزلهم وسوف تأتي بأمم أخرى قد تهيأت لها الظروف الموضوعية الأفضل لكي تلعب هذا الدور ، أي لكي تكون شهيدة على الناس . هذا اذا لم تتهيأ لهذه الأمة الظروف الموضوعية لهذه الشهادة ﴿ **إلّا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ، ويَستَبدلِ قوماً غيرَكُم ولا تضُرُّوهُ شيئاً واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ** ﴾[١١] .

وقوله تعالى : ﴿ **يا أيّها الذينَ آمنوا مَن يَرتَدّ مِنكُم عَن دينِهِ فسَوفَ يأتي اللهُ بِقومٍ يُحبُّهُمْ ويُحبّونَهُ أذلّةٍ عَلَى المُؤمِنينَ أعزَّةٍ على الكافرينَ يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ ولا يَخافونَ لَومَةَ لائمٍ ذلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ** ﴾ [١٢] .

اذن فالقرآن الكريم حينما يتحدث مع الجانب الثاني من عملية التغيير ،

---

(٨) كونياً أو تكوينياً : مصطلح يستعمل للاشارة إلى الأمور المتأصلة في شيء ما ، وغير القابلة للانفكاك عنه .

(٩) هو الآخر مصطلح ، يعبر عن رغبة تملىٰ من خارج الذات عليها . ولتوضيح المصطلحين نقول بأن الدين هو أمر تكويني في ذات الإنسان لأنه شيء متأصل فيه وغير قابل للانفكاك عنه أما إقامة الصلاة فهي إرادة تشريعية أمليت على الإنسان بناء على رغبة خارجية عن ذاته .

(١٠) نسترعي انتباه القارىء الكريم إلى مدلولات هذا الحديث السياسي والمنسجمة تماماً مع ما كان السيد الشهيد يسعىٰ إلى تحقيقه في إطار التعبئة السياسية والمعنوية للساحة الإسلامية في العراق تمهيداً لتفجير ثورتها ضد نظام البعث القائم في العراق .

(١١) سورة التوبة ٩ : ٣٩ .

(١٢) سورة المائدة ٥ : ٥٤ .

فإنه يتحدث مع البشر في ضعفه وقوته ، في استقامته وانحرافه ، وفي توافر الشروط الموضوعية له وعدم توافرها .

سنن التاريخ وهداية القرآن .

من هنا يظهر بأن البحث في سنن التاريخ مرتبط ارتباطاً عضوياً شديداً بكتاب الله بوصفه كتاب هدى ، وبوصفه إخراج للناس من الظلمات إلى النور ، لأن الجانب العملي من هذه العملية ، أي الجانب البشري والتطبيقي من جانب هذه العملية يخضع لسنن التاريخ ، فلا بد إذن من أن يكون للقرآن الكريم تصورات وعطاءات في هذا المجال لتكوين إطار عام للنظرة القرآنية والإسلامية عن سنن التاريخ .

إذن هذا لا يشبه سنن الفيزياء والكيمياء والفلك والحيوان والنبات ، إن تلك السنن ليست داخلة في نطاق التأثير المباشر في عملية التاريخ ، ولكن هذه السنن [١٣] داخلة في نطاق التأثير المباشر في عملية التغيير . وذلك باعتبار الجانب الثاني . ولهذا لابد من أن نترقب من القرآن إعطاء عموميات في ذلك .

نعم لا ينبغي أن نترقب من القرآن أن يتحول أيضاً إلى كتاب مدرسي في علم التاريخ وسنن التاريخ بحيث يستوعب كل التفاصيل وكل الجزئيات ، حتى تلك التي لا يكون لها دخل في منطق عملية التغيير التي مارسها النبي (ص) . غير أن القرآن الكريم يبقىٰ يحتفظ دائماً بوصفه الأساسي والرئيسي ، يحتفظ بوصفه كتاب هداية ، وكتاب إخراج للناس من الظلمات إلى النور ، وفي حدود هذه المهمات الكبيرة العظيمة التي مارسها . إنه في حدود هذه المهمة يعطي مقولاته على الساحة التاريخية ، ويشرح سنن التاريخ بالقدر الذي يلقي ضوءاً على عملية التغيير التي مارسها النبي (ص) . وبقدر ما يكون موجهاً وهادياً وخالقاً لتبصّر موضوعي للأحداث والظروف والشروط .

كيف بيّنت السنن التاريخية في القرآن ؟ .

إن هذه الحقيقة ، أي حقيقة أن للتاريخ سننا وأن الساحة التاريخية عامرة

---

(١٣) أي سنن التاريخ .

بسنن كما عمرت كل الساحات الكونية الأخرىٰ بسنن . إن هذه الحقيقة نراها واضحة في القرآن الكريم ، فقد بيِّنت هذه الحقيقة بأشكال مختلفة وبأساليب متعددة في عدد كثير من الآيات : ـ فقد بيِّنت على مستوىٰ إعطاء هذا المفهوم نفسه بالنحو الكلي ، أي القول بأن للتاريخ سنناً وأن للتاريخ قوانين .

كما أن هذه الحقيقة قد بيّنت في آيات أخرىٰ على مستوىٰ عرض هذه القوانين وبيان مصاديق ونماذج وأمثلة من هذه القوانين التي تتحكم في المسيرة التاريخية للإنسان .

وأيضاً بيِّنت في سياق آخر على نحو تمتزج فيه النظرية (مع مصداقها) أي بيِّن المفهوم الكلي في إطار مصداقه .

إضافة إلى ذلك فقد حصل الحث الأكبر في آيات أخرىٰ على الاستفادة من الحوادث الماضية ، وشحذ الهمم لإيجاد عملية استقراء [١٤] للتاريخ وعملية الاستقراء للحوادث كما تعلمون هي عملية علمية بطبيعتها ، تريد أن تفتش عن سنة ، وقانون ، وإلا فلا معنىً للاستقراء من دون افتراض سنة أو قانون . إذن هناك ألسنة متعددة درجت عليها الآيات القرآنية في مقام توضيح هذه الحقيقة وبلورتها [١٥] .

نعود ونقول بأن هذه الفكرة القرآنية عن سنن التاريخ ، قد بلورت في عدد كثير من الآيات بأشكال مختلفة وألسنة متعددة ففي بعض هذه الآيات أعطيت الفكرة بصيغتها الكلية [١٦] ، وفي بعض هذه الآيات أعطيت الفكرة

---

(١٤) الاستقراء : مصطلح يشير إلى أحدىٰ طرق البحث في شيء ما وهو أساساً يعتمد على ملاحقة جزئيات هذا الشيء من أجل الوصول إليه من خلال جمع هذه الجزئيات أو بتعبير المناطقة عملية استخراج الكليات من جمع جزئياتها. واعتماد الاستقراء كدليل موضع بحث فلسفي ومنطقي شديد اشار اليه السيد الشهيد في كتابه الاسس المنطقية للأستقراء . ويقابله مصطلح الاستنباط .

(١٥) إلى هنا انتهت المحاضرة الثالثة . وابتدأت المحاضرة الرابعة التي ألقيت يوم الأربعاء الموافق فيه السادس والعشرون من جمادى الأولى عام ١٣٩٩ هـ .

(١٦) أي أن الآيات هنا أشارت بشكل عام إلى سنة تاريخية معينة وتحدثت عن إطارها العام . وصاغته بشكل مبدأ عام . وسوف يتعرض السيد الشهيد لذكر مثل هذه الآيات .

مستوى التطبيق أي على شكل مصاديق ونماذج [17] ، وفي البعض الآخر من الآيات وقع الحث على الاستقراء وعلى الفحص الاستقرائي للشواهد التاريخية ، من أجل الوصول إلى السنة التاريخية .

إن هناك عدداً كبيراً من الآيات الكريمة التي استعرضت هذه الفكرة بشكل أو بآخر ، وسوف نقرأ جملة من هذه الآيات الكريمة ، حيث كان البعض من هذه الآيات التي سوف نستعرضها واضح الدلالة على المقصود ، أما البعض الآخر فقد كان له نحو دلالة على ذلك بشكل وأخر ، أو يكون معززاً ومؤيداً للروح العامة لهذه الفكرة القرآنية .

أولاً : السنة معروضة بشكلها الكلي

فمن الآيات الكريمة التي أعطيت فيها الفكرة الكلية ، فكرة أن التاريخ له سنن وله ضوابط ما يلي :

أ ـ الأجل : **﴿ لكُلّ امّةٍ أجلٌ اذا جاءَ أَجلُهُم فلا يستأْخِروُنَ ساعةً ولا يَستْقدمُون ﴾** [19] و**﴿ لكلّ امةٍ أجلٌ فإذا جاءَ أجلهُمْ لا يَسْتأخِرون ساعةً ولا يَسْتقدِمُون ﴾**[20] .

في هاتين الآيتين الكريمتين نلاحظ أن الأجل أضيف إلى الأمة ، أي إلى الوجود المجموعي للناس ، وليس إلى هذا الفرد أو ذاك بالذات . إذن هناك وراء الأجل المحدود المحتوم لكل إنسان بوصفه فرداً ، هناك أجل أخر وميقات أخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد ، وللأمة بوصفها مجتمعاً يُنشىء ما بين أفراده العلاقات والصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار والمبادىء

---

(١٧) أي أن الفكرة هنا طرحت من خلال مجموعة من الأحداث التي تشير بمجموعها إلى سنة أو أكثر من السنن التاريخية . وبعبارة أخرى أن الآيات تحدثت عن هذه السنة أو تلك . ولكن ليس بشكل مباشر بل إن الحديث جاء غير مباشر فقد ظل مختبئاً خلف استعراض مجموعة من الأحداث والمواقف .

(١٩) سورة يونس (ع) ١٠ : ٤٩

(٢٠) سورة الأعراف ٧ : ٣٤ .

المسندة بمجموعة من القوى والقابليات [٢١] ، ان هذا المجتمع الذي يعبر عنه القرآن الكريم بالأمة له أجل وله موت وحياة كما أن له حركة . فمثلما نرى أن الفرد يتحرك فيكون حياً ثم يموت ، كذلك الأمة تكون حية ثم تموت . وكما أن موت الفرد يخضع لأجل ولقانون ولناموس . كذلك الأمم أيضاً لها آجالها المضبوطة . ونواميس تحدد لها هذا الأجل . إذن هاتان الآيتان الكريمتان فيهما عطاء واضح للفكرة الكلية . فكرة أن التاريخ له سنن تتحكم به وراء السنن الشخصية التي تتحكم في الأفراد وبهوياتهم الشخصية .

﴿ وما أَهلَكْنا مِن قريةٍ إلاّ ولَها كِتابٌ مَّعلومٌ ما تَسبِقُ مِنْ أُمةٍ أجَلَها وَمايَستأخِرونَ ﴾[٢٢] .

﴿ ما تسبقُ من امةٍ اَجَلَها وما يَستأخِرون ﴾[٢٣] .

ب ـ موت الأمم وحياتها :

قوله تعالى : ـ **﴿ أَوَ لَم ينظُروُا في مَلَكُوتِ السمُواتِ والأرضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شيءٍ وأَن عَسىٰ أن يَكُونَ قدِ اقتَرَبَ أَجَلُهُم فَبأَيِّ حَديثٍ بَعدَهُ يؤُمِنوُنَ ﴾**[٢٤] .

---

(٢١) هنا يشير السيد الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ إلى واحدة من أهم مميزات النظرية الإسلامية الاجتماعية عن سائر النظريات الوضعية البشرية . وبالخصوص النظرية الماركسية ، وكذلك مجموع النظريات الغربية التي تبلور الموقف الرأسمالي من تكون المجتمعات .

فهنا يجعل السيد الشهيد أساس تكون المجتمعات يعود إلى الأفكار والمبادىء ليجعلها بالتالي تشكل البنية التحتية لغالبية الظواهر الاجتماعية (ضمن تفصيل سيرد فيما بعد) على العكس من النظرية الماركسية التي ترى أن البنية التحتية المطلقة التي تقوم على اساسها المجتمعات تتشكل من خلال شكل وسائل وأدوات الإنتاج ، وما تعكسه من علاقات تسميها بعلاقات الإنتاج أو الملكية . وقد ناقش السيد الشهيد الأفكار الماركسية هذه في أكثر من موضع في الجزء الأول من كتابه اقتصادنا .
كما أن هذا الموقف الإسلامي يعاكس ما تراه الغالبية العظمىٰ من النظريات الغربية التي تجعل المجتمع قائماً على أساس معايير المصلحة أو المنفعة أو اللذة أو القوة أو الجنس أو ما شاكل من معايير مادية . وقد ناقشنا هذه الأفكار بمجموعها في كتابنا قيد التحقيق : ـ بحوث في المذهب الاجتماعي في الإسلام .

(٢٢) سورة الحجر ١٥ : ٣ ـ ٤ .

(٢٣) سورة « المؤمنون » ٢٣ : ٤٣ .

(٢٤) سورة الأعراف ٧ : ١٨٥ .

ان ظاهر الآية الكريمة يشير إلى أن الأجل الذي يترقب أن يكون قريباً ، أو يهدد هؤلاء بأن يكون قريباً ، هو الأجل الجماعي وليس الأجل الفردي ، لأن قوماً بمجموعهم لا يموتون عادة في وقت واحد ، وإنما الجماعة بوجودها المعنوي الكلي هو الذي يمكن أن يكون قد اقترب أجله .

فالأجل الجماعي هنا يعبر عن حالة قائمة بالجماعة ، وليس عن حالة قائمة بهذا الفرد أو بذاك ، لأن الناس عادة تختلف آجالهم حينما ننظر إليهم بالمنظار الفردي ، ولكن حينما ننظر إليهم بالمنظار الاجتماعي بوصفهم مجموعة واحدة متفاعلة في ظلمها وعدلها ، وفي سرّائها وضرائها . حينئذ يكون لها أجل واحد فهذا الأجل الجماعي المشار إليه إنما هو أجل الأمة ، وبهذا تلتقي هذه الأية الكريمة مع الآيات السابقة .

جـ - العقاب الدنيوي : -

قوله تعالى : - **﴿ وَرَبُّكَ الغفورُ ذُو الرَّحمةِ لو يُؤاخِذُهُم بما كَسَبُوا لَعَجّلَ لَهُمُ العَذَابَ بَل لَّهُمُ مَّوعِدٌ لَّن يَجدوُا مِنْ دُونِهِ مَوْئلاً وتِلكَ القُرىٰ أهلَكناهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعلنا لِمَهلِكِهِم مَّوعِداً ﴾**[٢٥] .

﴿ ولـو يُؤَاخِذُ اللهُ النـاسَ بما كَسَبـوا ما تَـرَكَ على ظَهْـرها من دابّـةٍ ولكن يُؤخِرُهُم إلى أجلٍ مُّسمّىً فإذا جاءَ أَجَلهُمُ فإن اللهَ كانَ بِعبادِهِ بصيراً﴾[٢٦] .

في هاتين الآيتين الكريمتين تحدث القرآن الكريم عن أنه لو كان الله يريد أن يؤاخذ الناس بظلمهم ، وبما كسبوا . لما ترك على ساحة الناس من دابة يعني لأهلك الناس جميعاً .

وقد وقعت مشكلة في كيفية تصوير هذا المفهوم القرآني، حيث إن الناس ليسوا كلهم من الظالمين عادة. ففيهم الأنبياء وفيهم الأئمة والأوصياء. فهل يشمل الهلاك الأنبياء، والائمة العدول من المؤمنين؟ حتىٰ إن بعض الناس استغل هاتين الآيتين لإنكار عصمة الأنبياء (ع).

---

(٢٥) سورة الكهف ١٨ : ٥٨ - ٥٩

(٢٦) سورة فاطر ٣٥ : ٤٥ .

والحقيقة أن هاتين الآيتين تتحدثان عن عقاب دنيوي وليس عن عقاب أخروي [٢٧]، إنها تتحدث عن النتيجة الطبيعية لما تكسبه أمة من طريق الظلم والطغيان، وهذه النتيجة الطبيعية لا تختص حينئذ بخصوص الظالمين من أبناء المجتمع، بل تعم أبناء المجتمع على اختلاف هوياتهم، وعلى اختلاف أنحاء سلوكهم.

فحينما وقع التيه على بني اسرائيل نتيجة ما كسب هذا الشعب بظلمه وطغيانه وتمرده. لم يختص بخصوص الظالمين من بني إسرائيل، وإنما شمل موسى (ع) الذي يعتبر أطهر الناس وأذكاهم وأشجع الناس في مواجهة الظلم والطواغيت. نعم لقد شمل موسى (ع) لأنه جزء من تلك الأمة، وقد حل الهلاك بتلك الأمة وقدّر نتيجة ظلمهم أن يتيهوا أربعين عاماً، وبهذا شمل التيه موسىٰ (ع).

وحينما حل البلاء والعذاب بالمسلمين نتيجة انحرافهم، فأصبح يزيد بن معاوية خليفة عليهم [٢٨] يتحكم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وعقائدهم، حيثما حلّ هذا البلاء لم يختص بالظالمين من المجتمع الإسلامي وقتئذ بل إنه شمل حتىٰ الإمام الحسين (ع) الذي يعتبر أطهر الناس وأذكاهم وأطيبهم وأعدلهم. نعم لقد شمل الإمام المعصوم (ع) [٢٩] فقتل تلك القتلة الفظيعة هو

---

(٢٧) هناك جمهرة من مفسري القرآن الكريم يذهبون إلى خلاف هذا القول حيث يرون أن العقاب المشار إليه في الآية الكريمة. إنما هو عقاب يوم القيامة غير أن السيد الشهيد ومعه قلة معاصرة من المفسرين يذهبون إلى عكس ذلك.

والواضح من حقيقة العدل الإلهي وبديهية عصمة الأنبياء (ع) أن هذا العقاب ليس إلا عقاب سنن التاريخ في الحياة الدنيا. لأن الحساب في الآخرة لا يتوجه إلا إلى خصوص الفرد فإن كان قد أحسن أثيب وإن كان قد أساء عوقب. ولا شراكة له في عقابه مع أحد وفقاً للمبدأ القرآني: - ﴿ **ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ** .. ﴾ سورة الأنعام ٦ : ١٦٤، وسورة الإسراء ١٧ : ١٥.

بينما نجد أن الحديث هنا هو حديث عن الناس كمجموع وكأمة. ذلك المجموع الذي يشمل في غالبية الأحيان ثلة من الصالحين.

(٢٨) وذلك في عام ٥٩ للهجرة.

(٢٩) إن عصمة الإمام الحسين (ع) متأتية من قوله تعالى: ﴿ **انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل** =

= **البيتِ ويطهركم تطهيراً . .** ﴾ سورة الأحزاب ٢٣ : ٣٢ والتي يجمع غالبية المفسرين وأئمة الحديث بأنها قد نزلت بحق الإمام الحسين (ع) جنباً إلى جنب مع الرسول (ص) والإمام علي (ع) وفاطمة والحسن عليهم السلام أجمعين . وقد ذكر الترمذي في سننه نقلاً عن عمر بن أبي سلمة أنه قال : ـ نزلت هذه الآية على النبي (ص) ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ في بيت أم سلمة . . فدعا النبي (ص) فاطمة وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء ، وعلي خلف ظهره فجلله بكساء ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . .

وحينها أتت ام سلمة وهي زوجة الرسول (ص) وصاحبة المكانة العالية علماً وتقوىٰ وبراً برسول الله (ص) وقالت للرسول (ص) : ـ وأنا معهم يا رسول الله ؟

قال : أنت على مكانك وأنت إلى خير

انظر سنن الترمذي لمحمد بن عيسىٰ الترمذي مطبعة الفجالة ١٩٦٧ مصر ـ القاهرة ٥ : ٣٢٨ (خبر ٣٨٧٥)

وممن ذهب مذهب الترمذي وروى ذلك بشكل أو بآخر جمع غفير من أئمة الحديث والتفسير اذكر منهم : ـ الإمام أحمد في مسنده ٦ : ٣٩٢ ومسلم في الصحيح ٩ : ٢٩٩ والنووي في التعليقة (نفس الصفحة) والحاكم في المستدرك على الصحيحين ٣ : ١٤٨ والخازن في التفسير ٥ : ٢١٣ والسيوطي في تفسير الدر المنثور ٥ : ١٩٩ وابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٣ : ٤٨٤ والطبري في تفسيره ٢٢ : ٥ والرازي في تفسيره ٦ : ٧٨٣ والبيهقي في السنن ٢ : ١٥٠ والزمخشري في الكشاف ١ : ٣٦٩ . . . الخ .

وقد ذكر جمع من أصحاب الصحاح بشكل يفيد التواتر أن الرسول (ص) ظل ولمدة (٦ أشهر) يمر على بيت الإمام أمير المؤمنين (ع) أثناء ذهابه إلى المسجد لأداء الصلاة وهو يردد هذه العبارة : ـ السلام عليكم أهل البيت ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ .

انظر مسند الإمام أحمد للإمام احمد بن حنبل المِروزي البغدادي ـ مطبعة صادر بيروت ١٩٦٩ . ٣ : ٢٨٦ .

ومن الواضح أن التطهير من الرجس هنا هو الصون من الرجاسات المعنوية كالشرك والكفر وسائر الأعمال التي لا تنسجم والطاعة لله . وهذا هو مؤدىٰ العصمة ومحتواها وتعتقد الطائفة الشيعية بأن جميع الأنبياء هم من المعصومين ويماثلهم في ذلك أئمة أهل البيت الأثنىٰ عشر إضافة إلى فاطمة عليهم السلام أجمعين . وإن هذه العصمة ضرورة لازمة وهي إرادة تكوينية تكتنف ذاتهم لأن الله سبحانه وتعالى أشار إلى أن عهده لا يمنح للظالمين : **قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين** . . البقرة ٢ : ـ ١٢٤ وإن النبوة والإمامة هما عهد الله فلابد وأن يكون النبي والإمام يتميز بالعصمة . ولا يمكن تصور غير ذلك إذ ليس من المعقول أن يعهد الله عز وجل عهداً لأحد ، وهو غير مصان من الخطأ والزلل . لأن ذلك من المحتمل أن يتسرب إلى عهد الله نفسه وبالتالي يجعل أمر الهداية قبالة =

وأصحابه وأهل بيته [٣٠].

هذا كله هو منطق سنة التاريخ والعذاب حينما يـأتي في الدنيـا على مجتمـع وفق سنن التاريخ، لا يختص بخصوص الظالمين من أبناء ذلـك المجتمع، ولهـذا قـال القرآن الكـريم في آية أخـرىٰ ﴿**واتَّقُوا فِتنَـةً لا تُصيبَنَّ الذينَ ظَلَمُـوا مِنكُم خاصةً واعلَمُوا أنَّ الله شديدُ العِقَابِ**﴾ [٣١].

بينما يقول في موضع آخر: ﴿**ولا تَزِرُ وازرة وِزرَ آخرىٰ**﴾[٣٢].

فالعقاب الآخروي دائماً ينصب عـلى العامـل مباشـرة [٣٣]. وأما العقـاب الدنيوي فيكون أوسع من ذلك.

إذن هاتان الآيتان الكريمتـان تتحدثـان عن سنن التاريـخ، لا عن العقاب بالمعنىٰ الآخروي، والعذاب بمعنىٰ مقاييس يوم القيامة، بل عن سنن التاريخ وما يمكن أن يحصل نتيجة كسب الأمة وسعيها وجهدها.

د ـ دمار الأمم بإخراجها رسلها:

قوله تعالى: ﴿**وإن كادُوا لَيَستفِزُّونكَ مِنَ الأرضِ ليُخرجُوكَ منهـا وإذاً لا**

= خطر دائم. وهو محال. نكتفي بهذا القدر على الرغم من أن الموضوع فيه نقـاش كثير. غـير أننا نحيل القارىء الكريم إلى كتابنا القائد.. القيادة والانقياد في سيرة الإمام امير المؤمنين، حيث إننا قد فصلنا الحديث هناك واستوعبناه. فراجعه إن شئت.

(٣٠) قتل الإمام الحسين (ع) عام ٦١ للهجرة وذلك في العاشر من المحرم بكربلاء في العراق. وقد مثّل بجسده جيش الأمويين بقيادة عمر بن سعد بن ابي وقاص، وتم قـطع رأسه وثلة من رؤوس أهل بيته من القتلى، وطيف بهذه الرؤوس في الكوفة ودمشق، وهناك راح يزيد ينكل برأس الحسين (ع) بقضيب كان معه ويضرب به ثغر الإمام الحسين (ع) الذي طالما كان الرسول (ص) يقبّله. وقد سبيت عوائل الإمام الحسين (ع) شرسبي وكأنهم من الخوارج واقتيدوا وهم مكبلين من الكوفة إلى الشام. فيما كانت الشام قد زينت بأبهى زينة وكأنها في يوم عرس أو عيد!؟

(٣١) سورة الأنفال ٨ : ٢٥.

(٣٢) سورة فاطر ٣٥ : ١٨.

(٣٣) انظر إلى قوله تعالى: ﴿ فإذا جاءت الصَّاخَّةُ * يوم يفرُّ المَرءُ مِن أخيهِ * وأُمهِ وأبيهِ * وصاحبَتِهِ وَبَنِيهِ * لكُلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه ﴾. سورة عبس ٨٠ : ٣٣ ـ ٣٧

يلبَثونَ خِلافكَ إلاَّ قليلاً * سُنَّةَ مَن قَد أرسَلنا قَبلَكَ مِنْ رُسُلِنا، ولا تَجِـدُ لِسُنَّتِنا تَحويلاً﴾[٣٤].

هـذه الآية الكـريمة أيضـاً تؤكد المفهـوم العام، يقـول: ﴿ولا تجَدُ لسُنَّتنـا تحويلاً﴾. إن هذه سنة سلكناها مع الأنبياء من قبلك، سوف تستمر ولن تتغير. إن أهل مكة يحـاولون أن يستفزّوك لتخرج من مكـة لأنهم عجزوا عن إمكـانية القضاء عليك وعلى كلمتك، وعلى دعوتك، ولهذا صار أمامهم طريق واحد وهو إخراجك من مكة. وهناك سنة أخرىٰ من سنن التاريخ سـوف يأتي إن شـاء الله شرحها بعد ذلك[٣٥]. وهي تتمثل في ما إذا وصلت عملية المعارضة إلى مستوى إخـراج النبي من هـذا البلد. بعـد عجـز هـذه المعـارضـة عن كـل الـوسـائـل والأسـاليب الأخرىٰ، فـإنهم لا يلبثون إلا قليـلاً. وهنا ليس المقصـود من (أنهم سوف لا يلبثون إلا قليلاً)، أنه سوف ينزل عليهم عذاب الله سبحانه وتعالى من السماء، لأن أهل مكـة أخرجـوا النبي بعد نـزول هـذه الآيـة. فلقـد استفـزوه وأرعبوه وخرج النبي (ص) على أثر ذلك من مكة. إذ لم يجد له فيها ملجأً وأمـاناً فخرج إلى المدينة، ولكن العذاب لم ينزل من السماء على أهل مكة.

إن المقصـود ـ في أكبر الـظن ـ من هذا التعبـير هو أنهم سـوف لا يمكثـون كجماعة صامدة معارضة. يعني كموقع اجتمـاعي لا يمكثون، وليس كـأناس أو بشر. وإنما هذا الموقع سوف ينهار نتيجة هذه العملية، وسوف ينهار هذا المـوقع. وحينذاك فإنهم لا يمكثون إلا قليلاً. لأن هذه النبوة التي عجـز عن تطويقهـا هذا المجتمع، سوف تستطيع بعد ذلك أن تهزّ هذه الجماعة كموقع للمعارضة. وهذا ما وقع فعلاً. فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما أخرج من مكة لم يمكثوا بعده. إلا قليلاً. إذ فقدت المعارضة في مكة موقعهـا، فيما تحـولت مكة إلى جزء من دار الإسلام بعد سنين معدودة.

إذن الآيـة الكريمـة تتحدث عن سنـة من سنن التاريـخ، وتؤكد وتقـول: ﴿ولا تجدُ لسنّتنا تحويلاً . . ﴾ .

---

(٣٤) سورة الإسراء ١٧ : ٧٦ ـ ٧٧

(٣٥) انظر موضوع السنن القابلة للتحدي على الشوط القصير .

ثانياً : استعراض السنة من خلال مصاديقها .

أ ـ سنن الماضين : ـ

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خلتَ مِنْ قَبلِكُم سُنَنٌ ، فَسيروا في الأَرضِ فانظُرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المُكذِّبين ﴾[٣٦] .

إن هذه الآية تؤكد على السنن وتؤكد على الملاحقة والتتبع لأحداث التاريخ من أجل استكشاف هذه السنن ومن أجل الاعتبار بها .

﴿ ولقد كُذِّبَت رُسُلٌ مِن قَبلِكَ فَصَبَروُا على ماَ كُذِّبُوا وأُوذُوا حتىٰ أتاهْم نصرُنا ولا مُبَدِّلَ لكلماتِ اللهِ . وَلَقَد جَاءَكَ من نبإِ المُرسَلِين ﴾[٣٧] .

إن هذه الآية تثبِّت قلب رسول الله (ص) حينما تحدثه عن التجارب السابقة . وتربطه بقانون . فهي توضح له أن هناك سنة تجري عليه كما جرت على الأنبياء الذين مارسوا هذه التجربة من قبله . فالنصر سوف يأتيه ولكن للنصر شروطه الموضوعية : ـ كالصبر والثبات واستكمال بقية الشروط . حيث إن هذا هو طريق الحصول على هذا النصر ، ولهذا يقول : ﴿ فصَبَرَوُا علىٰ ما كُذِّبوا وأُوذُوا حتىٰ آتاهُم نَصرُنا ، ولا مُبدِّلَ لكلماتِ الله . . ﴾ .

إذن هناك كلمة لله لا تتبدل على مر التاريخ ، وهذه الكلمة التي لا تتبدل هي علاقة قائمة بين النصر ، وبين مجموعة من الشروط والقضايا والمواصفات وضحت من خلال الآيات المتفرقة ، وجمعت على وجه الإجمال هنا . إذن فهناك سنة للتاريخ . قال تعالى : ﴿ فَلمَّا جاءَهُم نَذيرٌ مّا زَادَهُم إلاّ نُفوراً استكباراً في الأَرضِ وَمَكرَ السيِّىء ، ولا يَحيقُ المَكرُ السَّيِّىءُ إلا بأَهلِهِ ، فَهَل ينظرون إلا سُنَّةَ الأوَّلِين فلن تَجدَ لِسُنَّة اللهِ تبديلاً ، ولن تَجدَ لُسنَّةِ الله تحويلاً . . ﴾[٣٨] .

﴿ . . وَلَو قَاتَلَكُمُ الذينَ كفرَوا لَوَلَّوُا الأَدبارَ ثُمَّ لا يجدُوُن وليّاً ولا نَصيراً سُنَّةَ اللهِ التي قد خَلَت من قَبلُ وَلْن تَجدَ لسُنَّةِ اللهِ تُبديلاً . . ﴾[٣٩] .

---

(٣٦) سورة آل عمران ٣ : ١٣٧ .
(٣٧) سورة الأنعام ٦ : ٣٤ .
(٣٨) سورة فاطر ٣٥ : ٤٢ ـ ٤٣ .
(٣٩) سورة الفتح ٤٨ : ٢٢ ـ ٢٣ .

وهناك آيات هي الأخرىٰ استعرضت نماذج من سنن التاريخ كقوله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يُغيّرُ ما بِقوم حَتّىٰ يُغيّروا ما بِأنفسِهم ﴾[٤٠] .

إن المحتوىٰ الداخلي النفسي والروحي للإنسان هو القاعدة ، والوضع الاجتماعي هو البناء العلوي[٤١] ،ولا يتغير هذا البناء العلوي إلا وفقاً لتغير

---

(٤٠) سورة الرعد ١٣ : ١١ .

(٤١) وذلك خلافاً للنظرية الماركسية التي ترىٰ أن المحتوىٰ الداخلي للإنسان سواء كان هذا المحتوى هو أفكاره أو أحاسيسه ومشاعره أو دينه وأخلاقه ، أو ذوقه الفني وما شاكل ما هو إلا انعكاس للظروف الاجتماعية المنعكسة بدورها من علاقات الإنتاج . وفي هذا الصدد يقول كارل ماركس « ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم ، بل وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم* » .

ويقول كونستانتيوف الكاتب الماركسي المعروف « إن الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الإدراك الاجتماعي . إن الأفكار الاجتماعية والسياسية والحقوقية والفنية والفلسفية هي انعكاس للشروط المادية في الحياة الاجتماعية** . . . » .

وما يثير الاستغراب أن كارل ماركس وربيبه فردريك إنجلز اللذين طرحا مثل هذا التفكير . كان ينبغي ـ وفقاً لأفكارهما ـ أن نراهما من عتاة الرأسماليين . إذ إنهما عاشا طوال حياتهما في كنف أبشع المجتمعات الرأسمالية في وقتها ـ أي بريطانيا والمانيا ـ . ولم يلاحظا أو يصطدما ولو على مستوىٰ الصورة البسيطة ، بأي شكل مهما كان بدائياً من أشكال المجتمع الاشتراكي أو الشيوعي . بحيث يعكس هذا المجتمع أو ذاك تفكيرهما الاشتراكي أو الشيوعي الذي كانا يناديان به . ونحن لا نلحظ ذلك في كارل ماركس وفردريك إنجلز وحسب ، وإنما نجد ذلك عند جميع الفلاسفة والمفكرين الذين اعتمد عليهم الوجود الفكري والفلسفي لماركس وإنجلز كالبارون هولباخ وهلفيسيوس وسان سيمون وارنست هيجل وغيرهم . وكذلك من سبقهم من الفلاسفة الماديين اليونانيين كهيرا قليطس الذي يصفه لينين بأنه أبو المادية الديالكتيكية . فلقد جاءت أفكار هؤلاء وهي لا تعبر عن وجود انعكاس حقيقي لطبيعة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تهيمن على عصورهم .

أضف إلى ذلك أن اختلاف الأوضاع التي كان يعيشها هذا الفيلسوف أو ذاك فيما بينه وبين الآخرين لم يمنع من وجود اتفاق في كثير من الآراء الفلسفية والسياسية . وهذا الأمر يمثل خرقاً للنظرية الماركسية التي تفترض أن هذا الاتفاق ينحصر عادة بين الفلاسفة الذين يعيشون أوضاعاً اجتماعية واقتصادية من سنخ واحد . ولكننا هنا نلحظ اتفاق أفكار فيلسوف العصر العبودي هيرا قليطس مع فيلسوف العصر الإقطاعي هولباخ مع فيلسوف العصر الرأسمالي ماركس . وهو أمر يسلب النظرية الماركسية شيء من مصداقيتها .

* انظر أصول الفلسفة الماركسية لجورج بوليتزر ويبدو انه اسم مستعار لكاتبين هما جي بيس وموريس كافين . ترجمة شعبان بركات . المكتبة العصرية ببيروت ١ : ٢٧٥ .

** انظر : دور الأفكار التقدمية في تطوير المجتمع لكونستانتيوف . دار دمشق ص ٨ .

القاعدة على ما سوف يأتي شرحه إن شاء الله بعد ذلك [٤٢] .

إن هذه الآية إذن تتحدث عن علاقة معينة بين القاعـدة والبناء العلوي ، أو بين الوضع النفسي والروحي والفكري للإنسان ، وبين الوضع الاجتماعي ، أو بين داخل الإنسان ، وبين خارج الإنسان . فخارج الإنسان ، يصنعه داخل الإنسان ومرتبط بداخل الإنسان ، فإذا تغير ما بنفس القوم تغير ما في وضعهم ، وما في علاقاتهم ، وما في الروابط التي تربط بعضهم ببعض .

إذن فهذه سنة من سنن التاريخ ، ربطت القاعدة بالبناء العلوي : ـ

﴿ذلِكَ بأنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعمَةً أَنعَمَها عـلىٰ قومٍ حتىٰ يُغَيِّـروا ما بـأَنفُسِهِم وإنّ اللهَ سَميعٌ عَليمٌ﴾ [٤٣] .

ب ـ لا استثناء من سنة التاريخ

قوله تعالى : **﴿ أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُوا الجَنّةَ ولَمَّا يأتِكُم مَثَلُ الذينَ خَلَوا من قَبلِكُم مسَّتهُمُ البَأساءُ والضَّرّاءُ وزُلزِلُـوا حتَّىٰ يَقولَ الـرَّسُولُ والـذينَ آمَنُوا مَعَـهُ متىٰ نصرُ اللهِ أَلا إنَّ نَصرَ اللهِ قريبٌ ﴾** [٤٤] .

هنـا يستنكر القـرآن عليهم أن يـأملوا في أن يكـون لهم استثنـاء من سنـة التاريخ ويتسـاءل : هل تـطمعون أن يكـون لكم استثناء من سنـة التاريـخ وأن تدخلوا الجنة ، وأن تحققوا النصر ، وأنتم لم تعيشوا مـا عاشتـه تلك الأمم (التي انتصـرت ، ودخلت الجنة) من ظـروف البـأسـاء والضـراء التي تصـل إلى حـد الزلزال وفقاً لما عبّر القرآن الكريم عنه ؟ .

إن هـذه الحالات ، حـالات البأسـاءَ والضراء التي تتعملق عـلى مستـوىٰ الزلزال هي في الحقيقة مدرسة للأمة . وهي امتحان لإرادة الأمـة ، ولصمودهـا وثباتها . لكي تستطيع بالتدريج أن تكتسب القدرة على أن تكون أمة وسطاً بـين الناس .

---

(٤٢) تم شرح ذلك في الفصل الثالث المحاضرة التاسعة من هذا الكتاب .

(٤٣) سورة الأنفال ٨ : ٥٣ .

(٤٤) سورة البقرة ٢ : ٢١٤ .

إذن نصر الله قريب ، لكن نصر الله له طريق ، (هكذا يريد أن يقول القرآن) حيث إن نصر الله ليس أمراً عفوياً ، كما أنه ليس أمراً يتحقق على سبيل الصدفة وليس أمراً عمياوياً . إن نصر الله قريب ولكن اهتد إلى طريقه ، ذلك الطريق الذي لابد وأن تعرف فيه سنن التاريخ ، ولابد من أن تعرف فيه منطق التاريخ . لكي تستطيع أن تهتدي إلى نصر الله سبحانه وتعالى . فقد يكون الدواء قريباً من المريض ، ولكن إذا كان هذا المريض ، لا يعرف تلك المعادلة العلمية التي تؤدي إلى إثبات أن هذا الدواء يقضي على جرثومة هذا الداء ، فإنه سوف لن يستطيع أن يستعمل هذا الدواء حتىٰ ولو كان قريباً منه .

وعليه فإن الإطلاع على سنن التاريخ هو الذي يمكن الإنسان من التوصل إلى النصر . فهذه الآية تستنكر على المخاطبين لها أن يكونوا طامعين في الاستثناء من سنن التاريخ .

جـ ـ صراع الأنبياء مع المترفين

قوله تعالى : ﴿ وَما أَرسلنا في قريَةٍ مِن نذيرٍ إلاّ قالَ مُترَفُوها إنّا بما أُرسِلتُم بِهِ كافِرونْ * وَقالُوا نَحنُ أَكثَرُ أَموالاً وأَولاداً ومَا نَحنُ بِمعُذَّبين ﴾ (٤٥) .

هذه علاقة قائمة بين النبوة على مر التاريخ ، وبين موقع المترفين والمسرفين في الأمم والمجتمعات . إن هذه العلاقة تمثل سنة من سنن التاريخ ، وليست ظاهرة وقعت في التاريخ صدفة وإلا لما تكررت بهذا الشكل المطرد ولما قال : ـ ﴿ وَما ارسَلنا في قريةٍ من نذيرٍ إلا قال مُترَفُوها . . ﴾

إذن هناك علاقة سلبية ، وهي علاقة تطارد وتناقض بين موقع النبوة الاجتماعي في حياة الناس على الساحة التاريخية والموقع الاجتماعي للمترفين والمسرفين . إن هذه العلاقة ترتبط في الحقيقة بدور النبوة في المجتمع ، ودور المترفين والمسرفين في المجتمع . هذه العلاقة هي جزء من رؤية موضوعية عامة للمجتمع ، كما سوف يتضح إن شاء الله حينما نبحث

---

(٤٥) سورة سبأ ٣٤ : ٣٤ ـ ٣٥ .

عن دور النبوة في المجتمع والموقع الاجتماعي للنبوة [٤٦] . وسوف يتضح حينئذ أن النقيض الطبيعي للنبوة هو موقع المترفين والمسرفين . إذن هذه سنة من سنن التاريخ . وفي قوله تعالى : ﴿ وَإذا أَردَنا أَنْ نهُلِكَ قَريَةً أَمَرنا مُترَفيها فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عَلَيها القولُ فَدَمّرناها تَدميراً * وَكَمْ أهلكنا مِن القُروُنِ مِن بَعدِ نُوحٍ وَكَفىٰ بِربِّكَ بِذُنوبِ عِبادِهِ خَبيراً بَصيراً ﴾ [٤٧] .

تتحدث الآية أيضاً عن علاقة معينة بين ظلم يسود وظلم يسيطر ، وبين هلاك تنجّر إليه الأمة جراً . وهذه العلاقة - كما تؤكد الآية - هي أيضاً علاقة مطلقة . وهي علاقة مطردة على مر التاريخ ، وهي سنة من سنن التاريخ

د - بين العدالة والرفاه الاجتماعي

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُم أَقاموا التَّوراةَ والإنجيلَ وَما أُنزِلَ إِلَيهِم من رَّبِّهِم لأكلوا من فوقِهِم ومن تحتِ أرجُلِهِم ﴾ [٤٨] .

﴿ ولو أنّ أهلَ القُرىٰ آمنوا واتَّقَوا لَفَتَحنا عَلَيهِم بَركاتٍ مِنَ السّماءِ والأَرضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذناهُم بِما كانُوا يَكسِبُونَ . . ﴾ [٤٩] .

﴿وان لو استَقاموا علىٰ الطريقةِ لأسقينٰهم ماءً غدقاً . . ﴾ [٥٠] .

إن هذه الآيات الثلاث هي أيضاً تتحدث عن علاقة معينة هي علاقة بين الاستقامة وتطبيق أحكام الله سبحانه وتعالى . وبين وفرة الخيرات ووفرة الإنتاج . أي بلغة اليوم بين عدالة التوزيع ، وبين وفرة الإنتاج وهنا نلحظ أن القرآن يؤكد بأن المجتمع الذي تسوده العدالة في التوزيع تلك العدالة التي عبر عنها القرآن تاره بأنه ﴿ لو استقاموا على الطريقةِ لاسقيناهُم ماءً غَدقاً . . ﴾

---

(٤٦) وذلك في المحاضرة الحادية عشرة في الفصل الثالث من هذا الكتاب . وقد سبق للسيد الشهيد أن تحدث عن ذلك في كتابه القيم : خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء .

(٤٧) سورة الإسراء ١٧ : ١٦ - ١٧ .

(٤٨) سورة المائدة ٥ : ٦٦

(٤٩) سورة الأعراف ٧ : ٩٦ .

(٥٠) سورة الجن ٧٢ : ١٦ .

وأخرىٰ بأنه ﴿ ولو أنْ أَهَلَ القُرىٰ آمنوا واتَّقوا . . ﴾ .

وثالثة بأنه ﴿ ولو أَنهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ . . ﴾ .

هو الذي يحصل على وفرة الإنتاج . وذلك لأن شريعة السماء نزلت من أجل تقرير عدالة التوزيع ، ومن أجل إنشاء علاقات التوزيع على أسس عادلة . والمجتمع إذا ما طبق عدالة التوزيع ، إذن لما وقع في ضيق من ناحية الثروة المنتجة ، ولما وقع أبناءه في فقر من هذه الناحية ، بل لازداد الثراء والمال ولازدادت الخيرات والبركات . لكنهم تخيلوا أن عدالة التوزيع تقتضي الفقر وتقتضي التقسيم وبالتالي تقتضي فقر الناس ، بينما الحقيقة نراها في السنة التاريخية التي تؤكد عكس ذلك . حيث تؤكد بأن تطبيق شريعة السماء ، وتجسيد أحكامها في علاقات التوزيع [٥١] تؤدي دائماً وباستمرار إلى وفرة الإنتاج وإلى زيادة الثروة ، بشكل يؤدي بالنهاية إلى أن تفتح على الناس بركات السماء والأرض . اذن هذه أيضاً سنة من سنن التاريخ .

ثالثاً : الحث على استقراء السنن التاريخية

إن هناك آيات أخرىٰ أكدت وحثت على الاستقراء والنظر والتدبر في الحوادث التاريخية من أجل تكوين نظرة استقرائية بهدف الخروج بنواميس وسنن كونية للساحة التاريخية . قال تعالى ﴿ أَفَلَم يَسيُروا في الَأرض فينظُروُا كيفَ كانَ عاقِبَةُ الذينَ مِن قبلِهِم دَمَّرَ اللهُ عَلَيهِم وللكافرينَ أمثالُها . ﴾ [٥٢] ﴿ أَفَلَم يسيروا في الَأرضِ فَيَنظُرُوا كيفَ كانَ عاقِبَةُ الذينَ مِن قَبلِهِم ﴾ [٥٣] .

﴿ فكأَيِّن من قريةٍ أَهلَكناها وهيَ ظالِمةٌ فهيَ خاوِيةٌ على عُرُوشِها وبئرٍ مُعَطَّلةٍ وقصرٍ مشِيدٍ * أفلَم يسيروا في الَأرضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلوبٌ يَعقِلون بِها أَو

---

(٥١) وهي مجموع الروابط والعلاقات القائمة بين المنتج من جهة والمستهلك من جهة آخرىٰ . وبين كل فئة مع أفراد سنخها .

(٥٢) سورة محمد (ص) ٤٧ : ١٠

(٥٣) سورة يوسف (ع) ١٢ : ١٠٩

آذانٌ يَسمَعُونَ بها فإنها لاتَعمَى الأبصارُ ، ولكِن تعمَى القُلُوبُ التي في الصُّدُورِ . . ﴾(٥٤) .

﴿ وكَم أهلَكنا قَبلَهُم مِن قَرنٍ هُم أَشَدُّ مِنهُم بَطشاً فَنَقَّبُوا في البِلادِ هَل مِن مَحيصٍ * إنَّ في ذلِكَ لذكرىٰ لِمَن كانَ لَهُ قَلبٌ أو أَلقىٰ السَّمعَ وهُوَ شهيد ﴾ (٥٥) .

من مجموع هذه الآيات الكريمة يتبلور المفهوم القرآني الذي أوضحناه . وهو تأكيد القرآن على أن الساحة التاريخية لها سنن وضوابط ، كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الأخرى .

إن هذا المفهوم القرآني يعتبر فتحاً عظيماً للقرآن الكريم . . لأننا في حدود ما نعلم يعتبر القرآن أول كتاب عرفه الإنسان أكد على هذا المفهوم ، وكشف عنه وأصرّ عليه وقاوم بكل ما لديه من وسائل الاقناع والتفهيم النظرة العفوية أو النظرة الغيبية الاستسلامية بتفسير الأحداث .

كان الإنسان العادي يفسر أحداث التاريخ بوصفها كومة متراكمة من الأحداث ، ويفسرها على أساس الصدفة تارة، وعلى أساس القضاء والقدر والإستسلام لأمر الله سبحانه وتعالى . ولكن القرآن الكريم قاوم هذه النظرة العفوية وقاوم هذه النظرة الاستسلامية ، ونبه العقل البشري إلى أن هذه الساحة لها سنن وقوانين وأنه لكي تستطيع أن تكون إنساناً فاعلاً ومؤثراً لابد لك من أن تكتشف هذه السنن ، ولابد لك من أن تتعرف على هذه القوانين لكي تستطيع أن تتحكم فيها ، وإلا تحكمت هي فيك وأنت مغمض العينين . ولكن افتح عينيك على هذه القوانين والسنن لكي تكون أنت المتحكم فيها وليست هي المتحكمة فيك .

إن هذا الفتح القرآني الجليل هو الذي مهد إلى تنبيه الفكر البشري بعد ذلك بقرون إلى ضرورة أن تجري محاولات لفهم التاريخ فهماً علمياً بعد نزول

---

(٥٤) سورة الحج ٢٢ : ٤٥ ـ ٤٦ .

(٥٥) سورة ق ٥٠ : ٣٦ ـ ٣٧ .

القرآن بثمانية قرون . حيث بدأت على أيدي المسلمين أنفسهم ، فقام ابن خلدون[٥٦] بمحاولة لدراسة التاريخ وكشف سننه وقوانينه . ثم بعد ذلك بأربعة قرون (على أقل تقدير) اتجه الفكر الأوروبي في بدايات ما يسمىٰ بعصر النهضة لكي يجسد هذا المفهوم الذي ضيعه المسلمون ، والذي لم يستطع المسلمون أن يتوغلوا إلى أعماقه .

إن هذا المفهوم قد أخذه الفكر الغربي في بدايات عصر النهضة ، وبدأت هناك أبحاث متنوعة ومختلفة حول فهم التاريخ وفهم سنن التاريخ . وعلى هذا الأساس نشأت اتجاهات مثالية [٥٧] ومادية[٥٨] ومتوسطة ومدارس متعددة كل واحدة منها تحاول أن تحدد نواميس التاريخ . وقد تكون المادية التاريخية [٥٩]

---

(٥٦) هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ولد عام ١٣٣٢ م في بلاد المغرب وتوفي فيها عام ١٤٠٦ م ، وتعتبر المقدمة التي كتبها في الجزء الأول من كتابه كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر والتي ظلت تعرف فيما بعد بمقدمة ابن خلدون من أهم الآثار التي أسست معالم علمي التاريخ والاجتماع على حد سواء . وقد تأثر به غالبية المفكرين السياسيين والاجتماعيين الغربيين بعد أن بدأت عملية الترجمة لهذه المقدمة عام ١٨٠٦ حيث ترجم سيلفستر دي ساسي قسم منها ، ثم اكتملت الترجمة باللغة الفرنسية عام ١٨٦٣ على يد فلينت . ويشير ارين روزنتال أهم مترجم لهذه المقدمة إلى اللغة الانكليزية إلى أن : ـ الثقافة الإسلامية استطاعت في القرن الرابع عشر أن تعرض الواقعية التاريخية بواسطة هذا العالم على أحسن وجه .

انظر تاريخ الفكر الاجتماعي (الطبعة الفارسية) Social Thought From Lore to Science لبارنز H . E . Barnes وبيكر Becker ص ٣٢٤ .

يبقىٰ أن نشير إلى أن ابن خلدون كان يعاني في فهمه للإسلام من خلل ملحوظ بدت آثاره واضحة في العديد من أنحاء كتاباته .

(٥٧) الاتجاه المثالي : ـ اتجاه فلسفي يطلق على الاتجاهات التي تعطي للقضايا المعنوية وسائر التصورات الذهنية كالدين أو الفكر أوما شاكل الدور الأساسي في فهم التاريخ ، وتحديد قوانينه .

(٥٨) الاتجاه المادي : هو الآخر اتجاه فلسفي ولكنه على النقيض من الاتجاه المثالي حيث يعطي المادة وسائر مصاديقها الدور الأساسي في هذا الفهم .

(٥٩) المادية التاريخية HistoricalMaterialism مذهب الماركسية في تفسير المجتمع والتاريخ . وتقوم على تفسير جميع الأحداث والظواهر الاجتماعية على أساس كونها أبنية فوقية لوسائل الإنتاج التي تمثل البناء التحتي لكل ما يوجد في المجتمع من أوضاع وأفكار وأحداث . وبناء على ذلك قسم ماركس التاريخ إلى خمسة مراحل مدعياً أن هذه المراحل تسير في مسيرة تصاعدية مستقيمة ولا يمكن لأحد من هذه المراحل أن يحل في التاريخ البشري من دون أن تلحظ حلول المرحلة السابقة قبله ، وهذه =

= المراحل الخمسة عبارة عن مجتمع الشيوعية الأولى أو ما يعبر عنه بالمشاعية البدائية وبعد ذلك يتحول هذا المجتمع إلى مجتمع الرق أو العبودية نتيجة للصراع الذي تخوضه العناصر التقدمية ضد عناصر الاستغلال ومن ثم يتحول هذا المجتمع بعد صراع العبيد مع الأسياد إلى المجتمع الإقطاعي الذي سرعان ما يفرز وجود صراع بين الإقطاعيين والفلاحين . ذلك الصراع الذي يجعل المجتمع البشري يتقدم باتجاه المجتمع الرأسمالي الذي تتفجر فيه التناقضات تلقائياً لتنجم عنها صراعات طبقية ما بين العمال أو طبقة البروليتاريا وبين الطبقة الرأسماليةوتدّعي المادية التاريخية أن هذا الصراع لابد من أن ينتهي بانتصار الطبقة البروليتارية التي تشكل المجتمع الشيوعي . وحينما انتصرت ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ في روسيا بقيادة لينين تم وصف عملية الانتصار بأنها قد حولت المجتمع الروسي من المجتمع الرأسمالي إلى المجتمع الشيوعي . غير أن مضي فترة قليلة من الزمن أدت إلى وجود تناقضات رهيبة مع الواقع الذي كان يراد منه أن ينسجم مع مواصفات المجتمع الشيوعي ـ الأمر الذي جعل لينين يخلق مرحلةوسطى بين المجتمعين الرأسمالي والشيوعي وصفها بالمجتمع الاشتراكي الذي يأخذ على عهدته تصفية الرأسمالية بشكل كامل ويمهد لقيام المجتمع الشيوعي .

وقد جاءت هذه النظرية وهي تعتمد ظاهرياً على المادية الديالكتيكية **Dialectic Materialism** وقوانينها الأربعة فهي ترىٰ أن كل مجتمع يحتوي على تناقضات ذاتية وأن هذه التناقضات سرعان ما تتحول إلى صراع من أجل التطور وهذا الصراع الذي تسميه الصراع الطبقي تنجم عنه حركة مستقيمة وصاعدة هي التي تجعل انتصار الطبقة المؤيدة لتطور وسائل الإنتاج حتمياً . والذي يتم على شكل قفزة تطورية وهو الاصطلاح الذي يرادف في المعنىٰ كلمة الثورة .

إن المادية التاريخية حالها في ذلك حال بقية النظريات الماركسية لم يحالفها الحظ في إثبات صحة مدعياتها . وليس أدل على ذلك من حدوث الثورة الماركسية في بلد لم تنضج فيه بشكل كامل ظروف المجتمع الرأسمالي بل كان هذا المجتمع أقرب إلى المجتمع الإقطاعي منه إلى أي مجتمع آخر ، هذا في روسيا أما في الصين فالامر لا يحتاج إلى تعليق وذلك لأن المجتمع كان ذا صورة إقطاعية كاملة وفقاً للتفسيرات الماركسية

وكان ينبغي وفقاً لهذه التفسيرات أن لا نلحظ قيام الثورة الاشتراكية في روسيا بل كان يجب أن نلحظها في بريطانيا وألمانيا وفرنسا وأميركا نظراً لاكتمال ظروف المجتمع الرأسمالي هناك ، ولبروز الرأسمالية في أبشع صورها في هذه البلدان . غير أن الواقع هو أبعد شيء من هذا الأمر . ومن سذاجة ماركس أنه كان يتنبأ بقيام الثورة الشيوعية العظيمة في كل من انكلترة وألمانيا قبل أي مكان آخر ، فيما كان لينين يتوقع ذلك في سويسرا . !! .

أما هل أن التاريخ البشري في حركة مستقيمة وصاعدة لا تراجع فيها ؟ فإن هذا الأمر تكذبه الأحداث التاريخية بشكل جازم وما قيام الحضارات السابقة ومن ثم انحلالها إلى الأبد إلا دليل موضوعي على بطلان هذا الادعاء .

وعما اذا كان المجتمع البشري يحتوي على هذه السلسلة من المجتمعات الخمسة فإن التاريخ نفسه يحيل ذلك إلى سذاجة مفرطة . وقد ناقش السيد الشهيد أفكار المادية التاريخية بشكل مستفيض وموضوعي في كتابه اقتصادنا . فما أبقىٰ شيئاً فيها يستحق النظر .

أشهر هذه المدارس وأوسعها تغلغلاً وأكثرها تأثيراً في التاريخ نفسه .

إذن كل هذا الجهد البشري في الحقيقة هو استمرار لهذا التنبيه القرآني ويبقى للقرآن الكريم مجده في أنه طرح هذه الفكرة لأول مرة على ساحة المعرفة البشرية (٦٠) .

خصائص السنة التاريخية

من خلال استعراضنا السابق للنصوص القرآنية الكريمة التي أوضحت فكرة السنن التاريخية وأكدت عليها ، يمكننا أن نستخلص من خلال المقارنة بين تلك النصوص ، ثلاث حقائق وخصائص أكد عليها القرآن الكريم بالنسبة إلى سنن التاريخ وهي : -

أولاً : الاطِّراد

إن السنة التاريخية مطردة وليست علاقة عشوائية ، وليست رابطة قائمة على المصادفة والاتفاق ، وإنما هي علاقة ذات طابع موضوعي لا تتخلف في الحالات الاعتيادية التي تجري فيها الطبيعة والكون على السنن العامة ، وكان التأكيد على طابع الاطراد في السنة تأكيداً على الطابع العلمي للقانون التاريخي . وذلك لأن القانون العلمي أهم مميز يميزه عن بقية المعادلات والفروض هو الاطِّراد والتتابع وعدم التخلف .

ومن هنا استهدف القرآن الكريم من خلال التأكيد على طابع الاطراد في السنة التاريخية ، أن يؤكد على الطابع العلمي لهذه السنة ، وأن يخلق في الإنسان المسلم شعوراً واعياً على جريان أحداث التاريخ (٦١) ، ويجعل هذا الشعور

---

(٦٠) إلى هنا انتهت المحاضرة الرابعة ، وابتدأت المحاضرة الخامسة التي ألقيت يوم الثلاثاء الموافق فيه الثالث من جمادى الثانية عام ١٣٩٩ هـ .

(٦١) ان هذا الشعور يأخذ شكله في ذهن الإنسان المسلم حينما يجد أن طريقه باتجاه النصر وتحقيق الأهداف المنشودة مرهون بجملة من الشروط والأعمال التي يجب تهيئتها وتوفيرها من أجل الوصول إلى هذا الهدف أو ذاك . ونفس هذه الحالة نجدها في سعيه نحو التخلص من الهزيمة وسائر العوامل والمظاهر السلبية في حياته الاجتماعية ، هو الآخر مرهون ومشروط بتوفير مستلزمات الخلاص والنجاة . لأن توفير تلك المستلزمات سيؤدي بالضرورة إلى التخلص من ذلك ، وهي =

شعوراً متبصراً لا عشوائياً ولا مستسلماً ولا ساذجاً ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تبديلا .. ﴾ [٦٢] .

﴿ ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تحويلاً .. ﴾ [٦٣]

﴿ ولا مُبَدِّلَ لكلماتِ الله .. ﴾ [٦٤]

إن هذه النصوص القرآنية التي تقدم استعراضها تؤكد طابع الاستمرارية والاطراد . أي طابع الموضوعية والعلمية للسنة التاريخية ، كما أن هذه النصوص الشريفة تستنكر ـ كما تقدم في بعضها ـ أن يكون هناك تفكير أو طمع لدى جماعة من الجماعات بأن تكون مستثناة من سنة التاريخ ﴿ أَم حَسبتُم أَن تَدخُلوا الجنَّة وَلمّا يأْتِكُم مَثَلُ الذينَ خَلَوا مِنْ قَبلِكُم مَسَّتْهُمُ البأساءُ والضَّراَّء وزُلزِلُوا حتىٰ يَقولَ الرَّسُولُ والذينَ آمَنوا مَعَهُ متىٰ نَصرُ اللهِ أَلآ إنَّ نَصرَ اللهِ قريبٌ ﴾[٦٥] .

إن هذه الآية تستنكر على من يطمع في أن يكون حالة استثنائية من سنة التاريخ كما شرحنا فيما مضى .

اذن الروح العامة للقرآن تؤكد على هذه الحقيقة الأولى ، وهي حقيقة الاطراد ، في السنة التاريخية الذي يعطيها الطابع العلمي من أجل تربية الإنسان على ذهنية واعية علمية يتصرف في إطارها ، ومن خلالها مع أحداث التاريخ [٦٦]

= حالة تشبه إلى حد بعيد (مع الحفاظ على الفارق) حالة طرفي المعادلات الكيمياوية التي متىٰ ما توفرت عناصر الطرف الأول من المعادلة أدت بالضرورة إلى توافر عناصر الطرف الثاني منها .
إن هذه الحالة تتيح دوماً للأمة الإسلامية القدرة على التخلص من مشاكلها ومعاناتها، من خلال سعيها لإحلال عناصر الخلاص وتجسيدها في الواقع الميداني ، وبالتالي توفير فرص الرقي إلى المجد والخلود .

(٦٢) سورة الأحزاب ٣٣ : ٦٢

(٦٣) سورة الإسراء ٧ : ٧٧ .

(٦٤) سورة الأنعام ٦ : ٣٤ .

(٦٥) سورة البقرة ٢ : ٢١٤ .

(٦٦) وذلك لأن الإنسان هنا سيكون على بصيرة من أمره حينما يتصرف ويعطي لتفاعله مع أحداث =

. . . .

حياته شكلاً خاصاً . كما أن هذا الإنسان سيكون بصيراً بما اذا كانت الأمة التي يحيا فيها هل أنها تسير باتجاه النمو الحضاري ، أو أنها في طريق الانحطاط والتلاشي والانهيار .

إن طبيعة الاطراد تقضي أن أي عمل معين ، إنما يؤدي إلى نتيجة محددة مرتبطة بطبيعة ذلك العمل . وأن هذه النتيجة تبقىٰ في متناول اليد طالما تكرر هذا العمل ضمن الظروف نفسها . فالأمة التي توفر عناصر الاستقامة والثبات والصبر والتضحية والجهاد من أجل تحقيق أهدافها ضمن وضوح أيديولوجي ينسجم مع تلك العناصر إن مثل هذه الأمة لابد من أن تحصل على جملة من الميزات تتسم بالسير بها في ركب النمو والفاعلية والانبعاث الحضاري . وإن هذه الأمة حينما تنال ذلك فليس لشيء إلا لأنها وفرت مثل تلك العناصر وبالتالي فإن أي امة مرشحة دوماً وفي كل زمان للحصول على ذلك إذا ما وفرت هذه العناصر وحصلت على ظروفها نفسها . وبديهي أن العكس صحيح أيضاً . وهذا الأمر من شأنه أن يجعل الإنسان بصيراً بما يمكن لعمله أن يؤدي إلى نتيجة وهدف . ولهذا فإن مستقبل هذا الإنسان ، تلك الأمة يبقىٰ ملحوظاً بشكل وآخر . وتبقىٰ القدرة على تحسين أوضاع المستقبل إلى حد كبير بيد هذا الإنسان وتلك الأمة .

إن هذا الأمر يظهر بوضوح أن إنسان المجتمع الإسلامي يتفاعل باستمرار مع المستقبل من خلال أمل صادق وجهد دؤوب في الحاضر . هذا على عكس إنسان المجتمع الرأسمالي الذي صور له جان بول سارتر المستقبل بأنه سيف الرعب القاتل ، وجعل صفحة الحياة المستقبلية أمامه سوداء قاتمة ، مجرداً إياه من كل أمل في حياة سعيدة وشاهراً في وجهه سيف القلق من كيفية استغلال اللحظة المعاصرة الآنية . من دون أن يزوده بأي مؤونة أخلاقية تمكنه من التفاعل مع المجتمع بشكل صادق ودونما أي جشع واستغلال وسوء ظن . وليس ارتفاع بارومتر الجنايات الخلقية والاجتماعية كالإنتحار والسرقة والقتل وما شاكل في الحضارة الغربية إلا شاهداً على ذلك .

على أن إنسان المجتمع والحضارة الماركسيين ليس بأحسن حظاً من أخيه في المجتمع والحضارة الرأسماليين . لأن الماركسية فعلت عكس ما فعلته الحضارة الرأسمالية في هذا المجال فهي لم ترسم أمامه مستقبلاً قاتم الصورة . وإنما رسمت أمامه مستقبلاً سعيداً كل السعادة . هو الذي ستزول فيه معاناة الإنسان وبؤسه وشقاؤه غير أنها جردته في الوقت نفسه من كل الدواعي والحوافز الداعية للعمل والجهد في الواقع الحاضر . باعتبار أن النتيجة السعيدة ويوم الخلاص هما مصير حتمي لمسار المجتمعات . حيث إن هذا الحلم قد سبق للمادية التاريخية أن ضمنته لهذا الإنسان ، وما دام ذلك فإن ليس ثمة حافز يتبقىٰ للعمل خصوصاً وأن الشيوعية عبر شعارها من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته قد أمنت له معاشه اليومي . وعلى الرغم من أن الماركسية قد أحست بفداحة هذا التفكير في الواقع الميداني . وعملت على علاج ما يترتب عليه . غير أنها بعملها هذا قد توسلت بأساليب ووسائل رأسمالية !! وخالفت مبادئها نفسها .

أما إنسان المجتمع الإسلامي فإنه لا يزال يتمتع بصفة الحرص على اللحظة الراهنة وضرورة استغلالها بصورة حسنة تنسجم وأهدافه الإسلامية . كما أنه يلحظ في المستقبل (نتيجة لهذا الاستغلال الجيد للحاضر) صورة مطمئنة سواء وصل إلى هدفه الدنيوي ، أم لم يصل ، لأن =

ثانياً : ربانية السنة التاريخية

إن الحقيقة الثانية التي أكدت عليها النصوص القرآنية ، هي حقيقة ربانية السنة التاريخية . فالسنة التاريخية ربانية مرتبطة بالله سبحانه وتعالى هي سنة الله وكلمات الله على اختلاف التعبير . بمعنىٰ أن كل قانون من قوانين التاريخ ، فهو كلمة من الله سبحانه وتعالى ، وهو قرار رباني .

إن هذا التأكيد من القرآن الكريم على ربانية السنة التاريخية وعلى طابعها الغيبي . يستهدف شدّ الإنسان ـ حتىٰ حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون ـ بالله سبحانه وتعالى . وكذلك أشعار الإنسان بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية . والاستفادة من مختلف القوانين والسنن التي تتحكم في هذه الساحات ، فإن ذلك لا يعني انعزالاً عن الله سبحانه وتعالى ، لأن الله يمارس قدرته من خلال هذه السنن ، ولأن هذه السنن هي إرادة الله . وهي ممثلة لحكمة الله وتدبيره في الكون .

وهم وخطأ

وقد يتوهم البعض حينما يتصورون بأن هذا الطابع الغيبي الذي يلبسه

عمله سوف لن يضيع إن كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة . ففي الدنيا يبقىٰ عمله يمثل لبنة صالحة في طريق الوصول إلى الهدف . وذلك باعتبار أن هذا العمل يمثل جزءاً من عمل المسيرة الرسالية التي ينضوي ضمن إطارها جميع الأنبياء والركب الايماني السابق والحاضر واللاحق ولعل القرآن يعني ذلك حينما يقول ﴿ وقُلِ اعمَلُوا فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ والمُؤمِنونَ ﴾ سورة التوبة ٩ : ١٠٥

﴿ وأمّا الزَبَدُ فَيَذهَبُ جُفاءً وأمّا ما يَنفَعُ النّاسَ فَيمكُثُ في الأرضِ كذلِكَ يَضرِبُ اللهُ الأمثالَ ﴾ سورة الرعد ١٣ : ١٧ .

ولهذا فهو غير مطالب إسلامياً بالوصول إلى الهدف وتحقيق نتيجة أعماله في الدنيا . وإنما هو مطالب أساساً بالسعي فقط ﴿ وأن ليسَ للإنسانِ إلاّ ما سَعىٰ * وَأَنَّ سَعيَهُ سوف يُرىٰ . . ﴾ سورة النجم ٥٣ : ٣٩ ـ ٤٠

أما في الآخرة فإن أي عمل مهما بدا صغيراً أو كبيراً فإنه لا يضيع في حساب الله . وهذا مؤدى قوله تعالى ﴿ فاستَجابَ لَهُم رَبُّهُم أني لا أُضيعُ عَمَلَ عاملٍ مِنكُم مِنْ ذَكَرٍ أو أُنثىٰ بَعضُكُم من بعضٍ ﴾ سورة آل عمران ٣ : ١٩٥

القرآن الكريم للتاريخ وللسنن التاريخية يبعّد القرآن عن التفسير العلمي الموضوعي للتاريخ ويجعله يتجه اتجاه التفسير الإلهي للتاريخ الذي مثلته مدرسة من مدارس الفكر اللاهوتي [٦٧] على يد عدد كبير من المفكرين المسيحيين اللاهوتيين [٦٨] حيث فسروا التاريخ تفسيراً إلهياً . إن ذلك قد يخلط هذا الاتجاه القرآني بذلك التفسير الإلهي الذي اتجه إليه أوغسطين [٦٩] وغيره من المفكرين اللاهوتيين .

فيقال بأن إسباغ هذا الطابع الغيبي على السنة التاريخية يحول المسألة إلى مسألة غيبية وعقائدية ، ويخرج التاريخ من إطاره العلمي الموضوعي .

لكن الحقيقة أن هناك فرقاً أساسياً بين الاتجاه القرآني ، وطريقة القرآن في ربط التاريخ بعالم الغيب ، وفي إسباغ الطابع الغيبي على السنة التاريخية ، وبين

---

(٦٧) الفكر اللاهوتي : ـ وهو الفكر الذي سيطر على الفلسفة المسيحية منذ عهد القديس أوغسطين . ولا زال يضرب بأطنابه على أفكار العديدين من منظري المسيحية . وخلاصته في هذا المقام تقوم على أساس إرجاع كل شيء في التفسير إلى الإرادة الإلهية ، حيث يرى أنها سبب كل شيء . وفي هذا الصدد يقول القديس توما الأكويني S . Thomas Aquinatis (١٢٢٠ ـ ١٢٧٤) : ـ إن حركاتي قد سبق تحديدها تحديداً أزلياً من قبل الله(*) ويقول نيقولا مالبرانش N . Malebranche (١٦٣٨ ـ ١٧١٥) : ـ إن الإنسان بذاته عدم محض ، فهو لا يستطيع بدون الله أن يفكر أو أن يتحرك (**) .

(*) انظر مشكلة الحرية ص ١٤٩ لزكريا إبراهيم . مكتبة مصر . القاهرة .

(**) ن . م ص ١٤٣ .

وليس المسيحيون وحدهم الذين يتبنون فكرة الجبر الإلهي أو الحتمية الإلهية بل إن هناك العديد من المسلمين الذين يؤمنون بذلك أيضاً كما هي الحال في المدرسة الجهمية التي ترى بأن الإنسان في أفعاله مجبور ولا قدرة له ولا اختيار . وقد خلق الله الأفعال فيه كما خلق سائر الجمادات وقريب منهم الأشاعرة .

(٦٨) من أرباب هؤلاء يمكن ذكر كل من القديس أوغسطين والقديس توما الأكويني ونيقولا مالبرانش وباروخ اسبينوزا Baruch Spinoza (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) .

(٦٩) القديس أوغسطين Saint Augustin ولد عام ٣٥٤ في إحدى مدن شمال إفريقية ومات عام ٤٣٠ . ويعد من أهم فلاسفة المسيحية إذا لم يكن هو الواضع لأساسها . وقد كانت كتبه الثلاثة : اعترافات وحول الثالوث ومدينة الله بمثابة القاعدة التي تمحورت عليه هذه الفلسفة وفي بداية شبابه كان مانياً .

ما يسمىٰ بالتفسير الإلهي للتاريخ الذي تبناه اللاهوت . نعم هناك فرق كبير بين هذين الاتجاهين ، وهاتين النزعتين ، وحاصل هذا الفرق هو أن الاتجاه اللاهوتي ، والتفسير الإلهي للتاريخ يتناول الحادثة نفسها ، ويربط هذه الحادثة بالله سبحانه وتعالى قاطعاً صلتها وروابطها مع بقية الحوادث ، فهو يطرح الصلة مع الله بديلاً عن صلة الحادثة مع بقية الحوادث [٧٠] ، وبديلاً عن العلاقات والارتباطات التي تزخر بها الساحة التاريخية والتي تمثل السنن والقوانين الموضوعية لهذه الساحة .

بينما القرآن الكريم لا يسبغ الطابع الغيبي على الحادثة بالذات، كما أنه لا ينتزع الحادثة التاريخية من سياقها ليربطها مباشرة بالسماء . ولا يطرح صلة الحادثة بالسماء كبديل عن أوجه الانطباق والعلاقات والأسباب والمسببات علىٰ هذه الساحة التاريخية بل إنه يربط السنة التاريخية بالله ، ويربط أوجه العلاقات والارتباطات بالله ـ فهو يقرر أولاً إيمانه بوجود روابط وعلاقات بين الحوادث التاريخية ، إلا أن هذه الروابط والعلاقات بين الحوادث التاريخية ، هي في الحقيقة تعبير عن حكمة الله سبحانه وتعالى ، وحسن تقديره وبنائه التكويني للساحة التاريخية . ونحن اذا أردنا أن نستعين بمثال لتوضيح الفرق بين هذين الاتجاهين من الظواهر الطبيعية . فإننا نستطيع أن نستخدم هذا المثال :

قد يأتي إنسان فيفسر ظاهرة المطر التي هي ظاهرة طبيعية ، فيقول بأن المطر نزل بإرادة من الله سبحانه وتعالى ، ويجعل هذه الإرادة بديلاً عن الأسباب الطبيعية ، التي نجم عنها نزول المطر . فكأن المطر حادثة لا علاقة لها ، ولا

---

(٧٠) من الواضح أن عدم التمييز بين هذا التفسير الساذج للأحداث ، وبين التفسير الإسلامي لها . هو الذي جعل الفلاسفة الماديين يتهمون الفلسفة الميتافيزيقية . بأنها تنفي وجود الارتباط والعلاقات بين الأشياء، وتنظر إلى كل شيء بشكل مستقل عن غيره وبمعزل عنه . ولعل أحد أسباب هذا الوهم هو نزوع المنطق القديم لملاحقة الأشياء بشكل مستقل عن غيرها . غير أن هذه الحالة انتهت منذ عصر صدر المتألهين الشيرازي (الفيلسوف الإسلامي الكبير) أي منذ حوالي أربعمائة سنة حينما اكتشف الحركة الجوهرية . ثم أتم السيد الشهيد ذلك في كتابه : ـ الأسس المنطقية للاستقراء . حينما نسف منطق أرسطو بشكل مذهل . ومن ثم وضع الحجر الأساس لنهاية سيطرة هذا المنطق علىٰ المناطقة الإسلاميين .

نسب . وإنما هي حادثة مفردة ترتبط مباشرة بالله سبحانه وتعالى بمعزل عن تيار الحوادث .

إن هذا النوع من الكلام يتعارض مع التفسير العلمي لظاهرة المطر ، ولكن إذا جاء شخص وقال بأن الظاهرة ، لها أسبابها ، وعلاقاتها ، وأنها مرتبطة بالدورة الطبيعية للماء الذي يتبخر. فيتحول إلى غاز ، والغاز يتصاعد سحاباً والسحاب يتحول بالتدريج إلى سائل ، نتيجة انخفاض الحرارة فينزل المطر .

إن هذا التسلسل السببي المتقن وهذه العلاقات المتشابكة بين هذه الظواهر الطبيعية ما هي إلا تعبير عن حكمة الله ، وتدبيره ، وحسن رعايته . . إن هذا الكلام لا يتعارض مع الطابع العلمي والتفسير الموضوعي لظاهرة المطر ، لأننا هنا ربطنا السنة بالله سبحانه وتعالى لا الحادثة مع عزلها عن بقية الحوادث . وقطع ارتباطها مع مؤثراتها وأسبابها .

إذن القرآن الكريم حينما يسبغ الطابع الرباني على السنة التاريخية فإنه لا يريد أن يتجه اتجاه التفسير الإلهي في التاريخ نفسه . ولكنه يريد أن يؤكد بأن هذه السنن ليست بخارجة عن قدرة الله سبحانه وتعالى ، أو أنها قد تمت من ورائها . وإنما هي تعبير وتجسيد وتحقيق لقدرة الله . فهي كلماته وهي سننه وإرادته وحكمته في الكون . لكي يبقىٰ الإنسان مشدوداً إلى الله ، ولكي تبقىٰ الصلة الوثيقة بين العلم والإيمان ، فهو في الوقت نفسه الذي ينظر فيه إلى هذه السنن نظرة علمية ، ينظر أيضاً أليها نظرة إيمانية .

العمليات الغيبية وارتباطها بالسنة التاريخية

وقد بلغ القرآن الكريم في حرصه على تأكيد الطابع الموضوعي للسنن التاريخية ، وعدم جعلها مرتبطة بالصدف . أنه أناط العمليات الغيبية نفسها في كثير من الحالات بالسنة التاريخية نفسها أيضاً . فعملية الامداد الإلهُي والغيبي بالنصر أو الذي يساهم في كسب النصر قد جعله القرآن الكريم مشروطاً بالسنة التاريخية ، ومرتبطاً بظروفها غير منفك عنها .

إن هذه الروح هي أبعد ما تكون عن أن تكون روحاً تفسر التاريخ على

أساس الغيب ، وإنما هي روح تفسر التاريخ على أساس المنطق والعقل والعلم إلى الحد الذي جعلها تريد الإمداد الإلهي الذي يساهم بالنصر بالسنة التاريخية . فلقد قرأنا فيما سبق صيغة من صيغ السنن التاريخية للنصر . حينما قرأنا قوله سبحانه وتعالى ﴿ **أَمْ حَسِبتُم أَنْ تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يأتِكُم مَثَلُ الذينَ خَلَوا مِنْ قَبلِكُم مَسَّتهُمُ البأساءُ والضَّرَّاءُ وَزُلزِلوُا حتى يَقُولَ الرَّسولُ والذينَ آمَنوا مَعَهُ متىٰ نصرُ الله** ﴾ (٧١) .

والان تعالوا لنقرأ الآيات التي تتحدث عن الامداد الإلهي الغيبي ولنلاحظ كيف أن هذه الآيات قد ربطت هذا الإمداد الإلهي الغيبي بتلك السنة نفسها إذ تقول للمؤمنين ﴿ **أَلَنْ يَكفِيَكُم أَن يُمِدَّكُم رَبّكُمُ بثلاثةِ آلافٍ مِنَ الملائِكَةِ مُنزَلينَ * بَلىٰ إنْ تَصبِروا وَتَتَقُوا وَيَأتُوكُم مِنْ فَورهِم هذا يُمدِدكُمْ ربُكُمُ بخَمسَةِ آلافٍ مِنَ الملائكةِ مُسَوِّمينَ * وَما جَعَلَهُ اللهُ إلا بُشرى لَكُم وَلِتَطمئنَ قُلوبُكُم بِهِ وَما النَّصرُ إلاّ مِن عِندِ اللهِ العزيزِ الحَكيمِ** ﴾ (٧٢) .

إنها تقول إن هناك إمداداً إلهياً غيبياً ، ولكن ذلك مشروط بسنة التاريخ ، مشروط بقول الآية الكريمة ﴿ **بلىٰ إن تصبروا وتتقوا** ﴾ لقد اجملت الآية هنا شروط التاريخ التي فصلت في الآيات الأخرىٰ . وهكذا نرى أن هذا الإمداد الغيبي أيضاً مرتبط بسنة التاريخ .

إذن فمن الواضح أن الطابع الرباني الذي يسبغه القرآن الكريم ليس بديلاً عن التفسير الموضوعي ، وإنما هو ربط لهذا التفسير الموضوعي بالله سبحانه وتعالى من أجل إكمال اتجاه الإسلام نحو التوحيد بين العلم والإيمان في تربية الإنسان المسلم .

ثالثاً : دور الإرادة الانسانية في السنة التاريخية

أما الحقيقة الثالثة التي أكد عليها القرآن الكريم من خلال النصوص المتقدمة ، فهي حقيقة اختيار الإنسان وإرادته .

---

(٧١) سورة البقرة ٢ : ٢١٤ .

(٧٢) سورة آل عمران ٣ : ١٢٤ ـ ١٢٦ .

إن التأكيد على هذه الحقيقة في مجال استعراض سنن التاريخ مهم جداً ـ إذ سوف يأتي إن شاء الله تعالى بعد محاضرتين ـ إن البحث في سنن التاريخ قد خلق وهما . وحاصل هذا الوهم الذي خلقه هذا البحث عند كثير من المفكرين . ما توهمه هؤلاء من أن هناك تعارضاً وتناقضاً بين حرية الإنسان واختياره ، وبين سنن التاريخ . فأما أن نقول بأن للتاريخ سننه وقوانينه . وبهذا نتنازل عن إرادة الإنسان واختياره وعن حريته . وأما أن نسلم بأن الإنسان كائن حر مريد مختار ، وبهذا يجب أن نلغي سنن التاريخ وقوانينه (٧٣) ، ونقول بأن هذه الساحة قد أعفيت من القوانين التي لم تعف منها بقية الساحات الكونية .

إن وهم التعارض والتناقض بين فكرة السنة التاريخية أو القانون التاريخي وبين فكرة اختيار الإنسان وحريته . كان من الضروري للقرآن الكريم أن يزيحه وهو يعالج هذه النقطة بالذات .

ومن هنا أكد سبحانه وتعالى على أن المحور في تسلسل الأحداث والقضايا إنما هو إرادة الإنسان (وسوف اتناول : إن شاء الله تعالى ـ بعد محاضرتين

---

(٧٣) يعتبر هذا البحث من أعقد البحوث الفلسفية التي لم يحتدم عليها الجدل الفكري والفلسفي في إطار الفلسفة الحديثة فحسب ، وإنما كان عقدة المشاكل في الفلسفة القديمة أيضاً . وبالنظر لدقته ظل الباحث الاجتماعي مضطرباً في موقفه حتىٰ لقد أدىٰ بالبعض إلى افتراض موقف معين في المجال النظري ، غير أنه نسف هذا الموقف في المجال العملي . وفي هذا الخصوص لقد أدىٰ هذا الوهم إلى انقسام الفلاسفة الاجتماعيين إلى عدة أقسام فيما بينهم لأن الذي ثبتت لديه مسألة الحرية الانسانية واتخذ منها موقفاً إيجابياً دعاه هذا الأمر إلى القول بعدم وجود ضرورة حتمية في المجال الاجتماعي كما نلحظ ذلك لدى فلاسفة الوجودية كسورن كيركجارد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) وجان بول سارتر Jean Paul Sarter وكارل ياسبرز Karl Jaspers ١٨٨٣ ـ على أن أولئك الذين آمنوا بوجود العلية في المجال الاجتماعي قد ساقهم هذا الأمر إلى نفي الحرية الانسانية كما نلحظ ذلك لدى كل من ديفيد هيوم David Hume (١٧١١ ـ ١٧٧٦) وتوماس هوبز Thomas Hob-bes (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) غير أن البعض الآخر قد أدت به الحيرة إلى اتخاذ مواقف نظرية مناقضة لآرائه العملية فجان استيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣) قد نفى الحرية في المجال النظري غير أنه دعا لها ودافع عنها في المجالين الاجتماعي والسياسي . ويماثله في ذلك فولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) ولا ينحصر التناقض عند هذا الحد بل إن العديد من الفلاسفة الذين نادوا بالحرية قد أقاموا مناداتهم هذه على مبادىء من شأن التدقيق فيها أن يوصل بهم إلى القول بالجبرية .

الـطريقة الفنيـة في كيفيـة التـوفيق بـين سنن التـاريـخ وإرادة الإنسـان ، وكيف استطاع القرآن الكـريم أن يجمع بـين هذين الأمـرين من خلال فحص للصيـغ التي يمكن في إطارها صيـاغة السنـة التاريخيـة . ولكن يكفي الآن أن نستمع إلى قوله تعالى ﴿ **إنّ الله لا يُغيّرُ ما بِقومٍ حَتّىٰ يُغيّروا ما بأنفسِهِم** ﴾ [٧٤] .

﴿ **وَأَن لَّوِ استقاموا علىٰ الطَّريقةِ لَأسقيناهُم ماءً غَـدَقاً** . . ﴾ [٧٥]

﴿ . . **وَتِلكَ القُرىٰ أَهلَكناهُم لَمّاَ ظَلمَوُا وَجَعَلنا لِمَهلِكِهِم مَّوعِداً** ﴾ [٧٦] .

انـظروا كيف أن السنن التاريخيـة لا تجري من فـوق رأس الإنسان ، بـل تجري من تحت يديه فإن الله لا يغيـر ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم ، وإن هؤلاء لو استقاموا على الـطريقة لأسقينـاهم ماءً غدقاً . إذن فـإن هناك مـواقف ايجابيـة للإنسان تمثل حريته واختياره وتصميمه . وهذه المـواقف تستتبع ضمن عـلاقات السنن التاريخية جزاءاتها المناسبة ، ومعلولاتها المناسبة [٧٧] وهكذا نرىٰ أن اختيار الإنسان له موضعه الـرئيسي في التصور القـرآني لسنن التاريـخ وسوف أعـود إلى هذه النقطة مرة أخرىٰ إن شاء الله تعالى .

ونستخلص مما سبق أن السنن القرآنية في التاريـخ ذات طابـع علمي لأنها تتميز بالاطراد الذي يميز القانـون العلمي . وذات طابـع رباني لأنها تمثـل حكمة الله وحسن تدبيره عـلى الساحـة التاريخيـة ، وذات طابـع إنساني لأنها لا تفصـل الإنسان عن دوره الإيجابي ، ولا تعطل فيه إرادته وحريتـه واختياره . وإنمـا تؤكد أكثر فأكثر مسؤوليته على الساحة التاريخية .

ميدان السنة التاريخية :

بعـد أن استعرضنـا الخصائص الثـلاث التي تتميز بهـا السنن التاريخيـة في

---

(٧٤) سورة الرعد ١٣ : ١١

(٧٥) سورة الجن ٧٢ : ١٦ .

(٧٦) سورة الكهف ١٨ : ٥٩

(٧٧) أي أن هـذه المواقف الإنسـانيـة هي العلة والسبب للنتـائج الحـاصلة عنهـا في مستقبـل حيـاة الإنسان .

القرآن الكريم . نواجه هذا السؤال : ـ ما هو ميدان هذه السنن التاريخية ؟

فلقد كنا حتىٰ الآن نعبر ونقول بأن هذه السنن تجري على الساحة التاريخية . ولكن هل أن الساحة التاريخية بما لها من امتداد ، هي ميدان للسنن التاريخية أو أن ميدان السنن التاريخية يمثل جزءاً من الساحة التاريخية ؟ بمعنىٰ أن الميدان الذي يخضع للسنن التاريخية بوصفها قوانين ذات طابع نوعي مختلف عن القوانين الأخرى الفيزيائية والفسيولوجية والبيولوجية والفلكية . أقول : ـ إن هذا الميدان الذي يخضع لقوانين ذات طابع نوعي مختلف هل تتسع له كل الساحة التاريخية ؟ وهل أنه يستوعب كل الساحة التاريخية ، أو أنه يعبر عن جزء من هذه الساحة ؟ .

إن ما يجدر بنا قبل هذا هو معرفة ماذا نقصد بالساحة التاريخية ؟ إن الساحة التاريخية هي عبارة عن الساحة التي تحوي تلك الحوادث والقضايا التي يهتم بها المؤرخون ، حيث إن المؤرخين وأصحاب التواريخ يهتمون بمجموعة من الحوادث والقضايا يسجلونها في كتبهم . ولهذا فإن الساحة التي تزخر بتلك الحوادث التي يهتم بها المؤرخون ويسجلونها هي الساحة التاريخية ؟ .

فالسؤال هنا هو هكذا : هل أن كل هذه الحوادث والقضايا التي يربطها المؤرخون وتدخل في نطاق مهمتهم التاريخية والتسجيلية هل أنها كلها محكومة بالسنن التاريخية وبسنن التاريخ ذات الطابع النوعي المتميز عن سنن بقية حدود الكون والطبيعة ؟ أو أن جزءاً معيناً من هذه الحوادث والقضايا هو الذي تحكمه سنن التاريخ ؟

الصحيح هو أن جزءاً معيناً من هذه الحوادث والقضايا هو الذي تحكمه سنن التاريخ ، حيث إن هناك حوادث لا تنطبق عليها سنن التاريخ وإنما تنطبق عليها القوانين الفيزيائية أو الفسلجية أو قوانين الحياة أو أي قوانين أخرىٰ لمختلف الساحات الكونية الأخرىٰ . ولنضرب مثلاً على ذلك : فموت أبي طالب ، وموت خديجة في سنة معينة [٧٨] تعتبر حادثة تاريخية مهمة وهي تدخل

---

(٧٨) حدث ذلك في العام العاشر بعد بعثة الرسول الأكرم (ص) وأثناء حصار مشركي قريش=

في نطاق ضبط المؤرخين ، وأكثر من هذا . هي حادثة ذات بعد في التاريخ إذ ترتبت عليها آثار كثيرة في التاريخ ، ولكنها غير محكومة بالسنة التاريخية . وإنما كانت محكومة بالقوانين الفسلجية وقوانين الحياة التي فرضت أن يموت أبو طالب (رضوان الله عليه) وأن تموت خديجة (ع) في ذلك الوقت المحدد .

إن هذه الحادثة تدخل في نطاق صلاحيات المؤرخين ، ولكن الذي يتحكم في هذه الحادثة هي قوانين فسلجة جسم أبي طالب وجسم خديجة التي تفرض المرض والشيخوخة ضمن شروط معينة وظروف معينة .

ومثال آخر حياة عثمان بن عفان وطول عمر الخليفة الثالث هذه حادثة تاريخية ايضاً . فالخليفة الثالث ناهز الثمانين . إن هذا الأمر هو حادثة تاريخية كان لها أثر عظيم في تاريخ الإسلام . حيث إنه لو قدر لهذا الخليفة أن يموت موتاً طبيعياً وفقاً لقوانينه الفسلجية قبل يوم الثورة عليه [٧٩] لكان من

= للمسلمين في شعب أبي طالب . والذي استدام قرابة الثلاثة سنين . وقد تزامنت وفاة أبي طالب (رض) مؤمن قريش مع وفاة سيدتنا خديجة الكبرىٰ (زوجة الرسول (ص) واهم المصادر المالية لرسالته وهو المصدر الذي اعتمد عليه الاسلام في نهوضه والمسلمون في صمودهم في هذا الشعب) . خلال فترة وجيزة جداً ذكر أنها قد لا تتجاوز الثلاثة أيام . ومن فرط شدة حزن الرسول (ص) على فقد هذين العمادين أنه قال : « اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشد حزناً . . * »

وقد اطلق على هذا العام اسم عام الحزن نتيجة لذلك .

* انظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٥ دار صادر ـ بيروت .

(٧٩) اشتركت العديد من العوامل في حدوث التمرد الإسلامي على الخليفة عثمان بن عفان ، الذي أودىٰ بحياته بعد أن حوصر في بيته ومن ثم اقتحام البيت من قبل مجموعة من هؤلاء المتمردين ، واصابته بإصابات متعددة كان فيها حتفه .

ومن بين الصخب الشديد الذي يلاحظه المرء في كتب التاريخ ، وما بين التناقض الفاحش الموجود في أخبارها ورواياتها . يمكن إرجاع غالبية هذه العوامل إلى السياسة المالية التي اتبعها الخليفة ، وما ترتب على ذلك فيما بعد من سياسات أمنية استهدفت في الأساس الحفاظ على مسار السياسة المالية . فقد أدت هذه السياسة إلى بروز ارستقراطية فاحشة لدىٰ قطاع معين من بيت الخليفة وآقاربه . فيما ظلت الغالبية العظمىٰ من المسلمين أسيرة لفقر مدقع . وبالخصوص المجاهدين والفاتحين الذين ذهبت الغنائم التي حصلوا عليها ـ وبالخصوص غنائم شمال إفريقية ـ وقد زاد هذه الأوضاع دراماتيكية أن الأفراد المقربين كانوا إما من مطرودي رسول الله (ص) من =

الممكن أن تتغير كثير من معالم التاريخ . فلقد كان من المحتمل أن يأتي الإمام أمير المؤمنين إلى الخلافة بدون تناقضات وبدون ضجيج وبدون خلاف [٨٠] ولكن قوانين فسلجة جسم عثمان بن عفان اقتضت أن يمتد به العمر إلى أن يقتل على يد الثائرين عليه من المسلمين .

إن هذه حادثة تاريخية ، وأعني أنها تدخل في اهتمامات المؤرخين ، ولها بعد تاريخي أيضاً حيث لعبت دوراً سلباً أو إيجاباً في تكييف الأحداث التاريخية الأخرى ، ولكنها غير محكومة بسنن التاريخ بل إن الذي يتحكم فيها هو قوانين بنية جسم عثمان بن عفان . وقوانين الحياة وقوانين جسم الإنسان التي أعطت عثمان بن عفان عمراً طبيعياً ناهز الثمانين .

إن مواقف عثمان بن عفان وتصرفاته الاجتماعية تدخل في نطاق سنن

= المدينة كمروان بن الحكم والحارث أخيه وإما من الذين أمر الرسول (ص) بقتلهم كعبد الله بن أبي سرح ، وإما من المعروفين بفسقهم كالوليد بن عقبة بن أبي معيط (شقيق الخليفة) الذي سبق أن وصفه القرآن بالفسق مرتين في آيتين ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ سورة السجدة ٣٢ : ١٨ و﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ . سورة الحجرات ٤٩ : ٦ أو من المعنيين بكلمة الشجرة الملعونة في القرآن « سورة الإسراء ١٧ : ٦٠ » كمعاوية بن أبي سفيان وأبيه أو من مسلمي الفتح كيعلي بن منية . وكثيرممن لم يحتفظ لهم المسلمون بخاطرة حسنة أو بسابقة فضل .

ثم جاءت السياسة الأمنية بعد ذلك لتضاعف مأساوية هذه الأوضاع ومن ثم لتشعل نار الفتنة التي كانت مدعومة بتأييد عدد كبير من الصحابة وأولادهم كطلحة والزبير وعائشة التي كانت تكفر الخليفة وأخيها محمد الذي اشترك في عملية ضرب الخليفة وعمار بن ياسر وزيد بن ارقم والمقداد بن الأسود الكندي . فقد أدت هذه السياسة إلى أن يموت شيخ القراء عبد الله بن مسعود إثر ضرب شديد تلقاه على يد الخليفة وكذلك موت الصحابي أبي ذر الغفاري بعد ضرب ونفي إلى الربذة وكذلك ضرب عماربن ياسر ، وتهديد الإمام أميرالمؤمنين (ع) واستفزازه . وللتفصيل نوصي القارىء الكريم بالرجوع إلى الجزء الثالث من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي . وإلى من كتابنا : القائد القيادة والانقياد ص ٣٩٤ ـ ٤٠١ .

(٨٠) من الواضح أن قتل عثمان،بالصورة المأساوية التي تمت قد أدت إلى إيجاد جملة من الأوضاع التي جعلت الإمام أمير المؤمنين (ع) أمام ظروف كانت في غاية الصعوبة والخطورة . هي التي أدت فيما بعد إلى أن تتلون فترة خلافته بلون تلك الظروف ومن ثم ليتحول التأزم السياسي الذي ورثه الإمام من خلافة عثمان إلى حروب داخلية طاحنة .

التاريخ ولكن طول عمره مسألة أخرىٰ فهي مسألـة حياتيـة أو مسألـة فسلجية أو مسألة فيزيائية ، وليست مسألة تتحكم فيها سنن التاريخ .

إذن سنن التاريخ لا تتحكم على كل الساحة التاريخية ولا تتحكم على كل القضايا التي يدرجها الطبري [٨١] في تاريخه مثلاً . بل على ميدان معين من هذه الساحة [٨٢] .

مميزات الظواهر المؤطرة بالسنن التاريخية

سبق أن ذكرنا أن الساحة التاريخية أي ساحة اهتمامات المؤرخين لا تستوعبها سنن التاريخ لأن هذه الساحة تشتمل على ظواهر كونية وطبيعية وفيزيائية وحياتيه وفسلجية أيضاً . وأن هذه الظواهر تحكمها قوانينها النوعية على الرغم من أن بعض هذه الظواهر ذات أهمية بالناظور التاريخي ، فهي من منظار المؤرخين تعتبر حوادث ذات أهمية ، لها بعد زمني في امتداد تيار الحوادث التاريخية ولكنها مع هذا لا تحكمها سنن التاريخ بل تحكمها سننها الخاصة . أما سنن التاريخ فإنها تحكم ميداناً معيناً من الساحة التاريخية . وهذا الميدان يشتمل على ظواهر متميزه تميزاً نوعياً عن سائر الظواهر الكونية ، وباعتبار هذا التميز النوعي استحقت سنناً متميزة أيضاً تميزاً نوعياً عن سنن بقية الساحات الكونية .

إن المميز العام للظواهر التي تدخل في نطاق سنن التاريخ هو أن هذه الظواهر تحمل علاقة جديدة لم تكن موجودة في سائر الظواهر الأخرىٰ الكونية والطبيعية والبشرية ، حيث إن الظواهر الكونية والطبيعية كلها تحمل علاقة ظاهرة بسبب ، أو مسبّب بسبب أو نتيجة بمقدمات . وهذا النوع من العلاقة موجود في كل الظواهر الكونية والطبيعية ، فالغليان ظاهرة طبيعية مرتبطة

---

(٨١) هو المؤرخ أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبري المتوفي عام ٣١٠ وكتابه المعروف بتاريخ الرسل والملوك يعد أحد المصادر التاريخية التي لا غنى عنها للباحث ويتكون من ٨ مجلدات . على أن هذا لا يعني أن كتابه لا يخلو من ملاحظات وانتقادات كثيرة . بل أن العكس هو الصحيح . حاله في ذلك حال سائر الكتب التاريخية وقد فصلنا الحديث عن ذلك في مقدمة كتابنا القائد القيادة والانقياد في سيرة الإمام أمير المؤمنين (ع) . ص ١٩ ـ ٢٤ .

(٨٢) إلى هنا تنتهي المحاضرة الخامسة لتبتدأ من بعدها المحاضرة السادسة التي ألقيت يوم الاربعاء الموافق فيه الرابع من جمادى الثانية عام ١٣٩٩ هـ .

بظروف معينة وبـدرجة حـرارة معينة ، أو بـدرجة معينـة من قرب هـذا الماء من النـار . إن هذا الارتبـاط هو ارتبـاط المسبب بالسبب والعـلاقة هنـا هي علاقـة السببيـة ، وعلاقـة الحاضر بـالماضي وبـالظروف المسبقـة المنجـزة . ولكن هنـاك ظواهر على الساحـة التاريخيـة تحمل عـلاقة من نمط آخـر ، وهي علاقـة ظاهـرة بهدف ، وعلاقة نشاط بغاية أو ما يسميه الفلاسفة بـالعلة الغائيـة [٨٣] تمييزاً لهـا عن العلة الفاعلية [٨٤] .

إن هذه العلاقة هي علاقة جديـدة متميزة . فغليـان الماء بـالحرارة يحمـل علاقة مع سببه أي مع ماضيه ، لكن لا يحمل عـلاقة مـع غايـة وهدف . مـا لم يتحول إلى فعل إنساني وإلى جهد بشـري . بينما العمـل الإنساني الهـادف يحتوي على علاقة ليس مع السبب أو مـع الماضي فقط ، وانمـا مع الغـاية التي هي غـير موجودة حين انجاز هذا العمل ، وإنما يترقب وجودها . أي أن العلاقة هنـا هي عـلاقة مـع المستقبل لا مـع الماضي ، فـالغايـة دائماً تمثـل المستقبل بـالنسبـة إلى العمل ، بينما السبب يمثل الماضي بالنسبة إلى هذا العمل .

فالعلاقة التي يتميز بها العمل التاريخي الذي تحكمه سنن التاريـخ هو أنـه عمل هادف،وأنـــه يرتبط بعلة غائية سواء أكانت هذه الغاية صـالحة أم طـالحة ، نـظيفة كـانت أو غير نـظيفة . وعـلى أي حال يعتبـر هذا العمـل عملاً هـادفاً ، ويعتبر نشاطاً تاريخياً يدخل في نطاق سنن التاريخ على هذا الأساس .

إن هذه الغايـات التي يرتبط بهـا هذا العمـل الهادف المسؤول ، حيث إنها مستقبلية بالنسبة إلى العمل . فهي تؤثر من خلال وجودها الذهني في العامـل لا محالة ، لأنها بوجودها الخارجي . وبوجودها الواقعي إنمـا هي طموح وتـطلع إلى

---

(٨٣) العلة الغائية : وهي العلة والسبب الذي يحرك الفاعل باتجاه فعله ويدفعه إليه . وحيث إن لكل فاعل غاية في فعله . فإن هذه العلاقة التي تربط بين الفاعل وغايته وهـدفه هي التي يـطلق عليها مصطلح العلة الغائية للفعل .

(٨٤) العلة الفاعلية : وهي العلة التي تكمن وراء حدوث حدث ما . فهي السبب لوجوده . والعلاقة المترتبة عليها هي علاقة السبب بالمسبب والعلة بـالمعلول . وهي مورد بحث فلسفي مثلما هـو حال بقيـة العلل . غير أن هنـاك من ينكر وجـودها من الفـلاسفة . وأقسـامها عنـد الفلاسفـة ثمانيـة أقسام .

المستقبل ، وليست موجودة وجوداً حقيقياً وإنما تؤثر من خلال وجودها الذهني في الفاعل [٨٥] .

اذن فالمستقبل أو الهدف الذي يشكل الغاية للنشاط التاريخي يؤثر في تحريك هذا النشاط ، وفي بلورة هذا النشاط من خلال الوجود الذهني ، أي من خلال الفكر الذي يتمثل فيه الوجود الذهني للغاية ضمن شروط ومواصفات . حينئذ يؤثر في إيجاد هذا النشاط .

إذن حصلنا الآن على مميز نوعي للعمل التاريخي . وهذا المميز غير موجود بالنسبة إلى سائر الظواهر الأخرىٰ على ساحات الطبيعة المختلفة . وهذا المميز هو ظهور علاقة فعل بغاية ، ونشاط بهدف ووفقاً للتفسير الفلسفي .ظهور دور العلة الغائية ، وكون هذا العقل متطلعاً إلى المستقبل ، بالإضافة إلى تحول المستقبل إلى محرك لهذا الفعل من خلال الوجود الذهني الذي يرسم للفاعل غايته ، أي من خلال الفكر .

إذن هذه في الحقيقة هي دائرة السنن النوعية للتاريخ . مما يعني أن السنن النوعية للتاريخ موضوعها ذلك الجزء من الساحة التاريخية الذي يمثل عملاً له غاية ، وعملاً يحمل علاقة إضافية إلى العلاقات الموجودة في الظواهر الطبيعية وهي العلاقة القائمة مع الغاية والهدف وبكلمة أخرىٰ مع العلة الغائية .

ولكن ينبغي هنا أن نشير إلى أنه ليس كل عمل له غاية فهو عمل تاريخي ، وهو عمل تجري عليه سننِ التاريخ . وإنما يوجد بُعد ثالث لابد من أن يتوفر في هذا العمل كي يكون عملاً تاريخياً تحكمه سنن التاريخ . فلقد كان البعد الأول هو « السبب » والبعد الثاني هو الغاية أو « الهدف » . أما البعد الثالث فهو أن يكون لهذا العمل أرضية تتجاوز ذات العامل ، وبعبارة أخرىٰ أن

---

(٨٥) الهدف والغاية تمثل دائماً تصوراً ذهنياً للفاعل لأنه ليس مرئياً أو محسوساً بحيث يمكنه أن يلحظ مصداقه . وإنما هو يتصوره ويستحضره في ذهنه ثم يسعىٰ إليه أو يسير باتجاهه . على أن هذا لا يعني أن الفاعل لا يملك صوراً أو افكاراً مسبقه عن الهدف والغاية ، لأن هذه الصور أو الأفكار مهما كانت غائمة أو ناقصة وغير مكتملة غير أنها في الحقيقة هي وحدها التي تمثل عنصر التحفيز على السير باتجاه الهدف والسعي للوصول إليه .

تكون أرضية العمل متمثلة بالمجتمع نفسه . بمعنىٰ أن هذا العمل يخلق موجاً ، وهذا الموج أو التيار يتعدىٰ الفاعل نفسه لتكون أرضية الجماعة التي يكون هذا الفرد،جزءاً منها .

ومن الطبيعي أن المقصود هنا هو الأمواج على اختلاف أنواعها . فهناك موج محدود ، وهناك موج كبير . لكن العمل لا يكون عملاً تاريخياً إلا اذا كان له موج يتعدىٰ حدود العامل الفردي . فقد يأكل الفرد إذا جاع ، وقد يشرب إذا عطش ، وقد ينام إذا أحس بحاجته إلى النوم . لكن هذه الأعمال على الرغم من أنها أعمال هادفة أيضاً ، تريد أن تحقق غايات ، ولكنها أعمال لا يمتد موجها أكثر من العامل ، خلافاً لعمل يقوم به الإنسان من خلال نشاط اجتماعي وعلاقات متبادلة مع أفراد جماعته . فالتاجر حينما يعمل عملاً تجارياً ، والقائد حينما يعمل عملاً حربياً ، والسياسي حينما يمارس عملاً سياسياً والمفكر حينما يتبنى وجهة نظر معينة في الكون والحياة . إن جميع هذه الأعمال لها موج يتعدىٰ شخص العامل ليتخذ من المجتمع أرضية له . ويمكننا أيضاً أن نستعين هنا بمصطلحات الفلاسفة فنقول : ـ نحن نتذكر من مصطلحات الفلاسفة ، التمييز الأرسطي بين العلة الفاعلية والعلة الغائية والعلة المادية (٨٦) . لنستعين بهذه المصطلحات لتوضيح الفكرة : فالمجتمع هنا يشكل علة مادية لهذا العمل .

في حالة من هذا القبيل ، يعتبر هذا العمل عملاً تاريخياً . إذ يعتبر عملاً للأمة وللمجتمع . وإن كان الفاعل المباشر في جملة من الأحيان لا يكون إلا فرد واحد أو عدد من الأفراد ، ولكن باعتبار الموج والتيار الناشىء من ذلك يعتبر عمل المجتمع .

إذن العمل التاريخي الذي تحكمه سنن التاريخ هو العمل الذي يكون

---

(٨٦) العلة المادية : وهي العلة الناشئة من تقبل حدوث حدث معين . فالمادة لها علية خاصة بالنسبة إلى النوع المادّي المركب منها ومن الصورة لتوقف وجود هذه المادة عليها توقفاً ضرورياً . يجعل عدم وجودها نافياً لوجود المادة لأن وجود المادة مرهون على وجود ذلك النوع وتلك الصورة . وهي العلة الوحيدة التي يقبل بها الفلاسفة من الماديين الذين ينكرون وجود سائر العلل الآخرىٰ وهي الفاعلية والغائية والصورية والجسمانية .

حاملاً لعلاقة مع هدف وغاية ، ويكون في الوقت نفسه ذا أرضية أوسع من حدود الفرد ، وذا موج يتخذ من المجتمع علة مادية له ، وبهذا يكون عمل المجتمع .

التمييز القرآني بين عمل الفرد وعمل الجماعة

في القرآن الكريم نجد تمييزاً بين عمل الفرد وعمل المجتمع . حيث نلاحظ في القرآن الكريم أنه من خلال استعراضه للكتب الغيبية الاحصائية [٨٧] . تحدث عن وجود كتاب للفرد ، وتحدث عن كتاب للأمة ، عن كتاب يحصي على الفرد عمله وعن كتاب يحصي على الأمة عملها ، وهذا تمييز دقيق بين العمل الفردي الذي ينتسب إلى الفرد ، وبين عمل الأمة ، أي العمل الذي له ثلاثة أبعاد [٨٨] ، والعمل الذي له بعدان [٨٩] .

إن العمل الذي له بعدان لا يدخل إلا في كتاب الفرد ، وأما العمل الذي له ثلاثة أبعاد فيدخل في الكتابين معاً باعتبار البعدين في كتاب الفرد ويحاسب الفرد عليه ، وباعتبار البعد الثالث يدخل في كتاب الأمة ويعرض على الأمة ، وتحاسب الأمة على أساسه . لاحظوا قوله تعالى ﴿ **وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةٍ ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدعىٰ إلى كِتابِها ، اليوَمَ تُجزوَنَ ما كُنتُم تَعملونَ * هٰذا كِتابُنا يَنطِقُ عَلَيكمُ بالحَقِّ إنّا كُنَّا نَستَنسِخُ ما كُنتُم تَعمَلُونَ** ﴾ [٩٠]

يتحدث القرآن الكريم في هاتين الآيتين عن كتاب للأمة ،عن أمة جاثية بين يدي ربها ، ويقدم لها كتابها ، يقدم لها سجل نشاطها وحياتها التي مارستها كأمة ، هذا العمل الهادف ذو الأبعاد الثلاثة يحتويه هذا الكتاب ، (انظروا إلى العبارة التي تقول) : ـ ﴿ انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . . ﴾ .

---

(٨٧) أي الكتب التي تكلفت بتسجيل واحصاء مقادير الثواب والعقاب ، ولم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا واحصتها .

(٨٨) أي العمل المتشكل من السبب والهدف والموج .

(٨٩) أي العمل المتشكل من السبب والهدف فقط .

(٩٠) سورة الجاثية ٤٥ : ٢٨ ـ ٢٩ .

ليس هـذا الكتاب تـاريخ الـطبرى [٩١] بحيث يسجـل الوقـائع الـطبيعية والفسلجية والفيزيـائية . إنمـا هو يحـدد ويستنسخ مـا كانـوا يعملون كأمـة ، وما كـانت الأمة تعمله . وكـأنه بذلك يعني العمل الهادف ذا الموج بحيث ينسب للأمة وتكون الأمة مدعوة إلى كتابها . إن هذا النوع من العمـل هو الـذي يحويـه هذا الكتاب بينما نلاحظ في آية آخرىٰ قوله سبحانه وتعالى ﴿ **وَكُلَّ إنسانٍ ألزمناهُ طائرَهُ في عُنُقِهِ وَنَخرِجُ لَهُ يَومَ القيامَةِ كِتـاباً يَلقـاهُ منشُوراً * اقـرَأ كِتابَـكَ كَفَىٰ بِنَفسِكَ اليومَ عَلَيكَ حَسِيباً** ﴾ [٩٢]

هنا الموقف يختلف ، فهنا كل إنسان مرهون بكتابـه ، ولكل إنسـان كتاب لا يغـادر صغيرة ولا كبيـرة من أعمالـه ، ومن حسناتـه وسيئاتـه ، من هفـواتـه وسقـطاته ، من صعـوده ونزولـه إلا وهو يحصى في ذلـك الكتاب . إنـه الكتاب الذي كتب بعلم من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض والسـماء . إن كل إنسان قد يفكر أن بامكانه أن يخفي نقـطة ضعف أو أن يخفي ذنباً ، أو أن يخفي سيئة عن جيرانه وعن قومـه وعن أمته وعن أولاده . بـل إنه قـد يحاول أن يخفي حتىٰ عن نفسه ، فيخدعها ويريها أنه لم يرتكب سيئة . ولكن هـذا الكتاب الحق لا يغادر صغيرة ولا كبير إلا أحصاها . في ذلك اليوم يقال للإنسان أنت حاسب نفسك لأن هذه الأعمال التي مارستها سوف تواجهها في هذا الكتاب تحكم عـلى نفسـك بموازين ومقـاييس الحق في يوم القيـامة . ففي ذلـك اليـوم لا يمكن لأي إنسان أن يخفي شيئاً عن الموقف ، وعن الله سبحانه وتعالى ، وعن نفسه .

إن هذا كتاب الفرد وذاك كتاب الأمة . فهناك كتاب لأمة جاثية بـين يدي ربها ، وهنا لكـل فرد كتـاب . وهذا التمييـز النوعي القـرآني بين كتـاب الأمة .

---

(٩١) وهو كتاب تاريخ الرسل والملوك الـذي أشرنـا اليه في الهـامش رقم (٨١) ومن عادة الـطبري في هذا الكتاب أن يثبت كل ما سمعه من روايات وقصص تاريخية من دون أن يبذل أي جهد في التنقيب عن صحة هذه الـروايات وتلك القصص أو سقمهـا . ولهذا فقـد جاء الكتـاب محتويـاً على مقـدار لا يستهان به من الأكـاذيب والخرافـات . على أن ذلـك لا ينفي قيمة الكتـاب العلمية فهـو يعد من أوائل الكتب الموسوعية التي تحدثت عن التاريخ . كما أنه يعكس ثروة هائلة في مجال تصوير ثقـافة عصره .

(٩٢) سورة الإسراء ١٧ : ١٣ ـ ١٤ .

وكتاب الفرد هو تعبير آخر عما قلناه من أن العمل التاريخي هو ذاك العمل الذي يتمثل في كتاب الأمة ، أي العمل الذي له أبعاد ثلاثة .

وما يستظهر ويلاحظ من خلال عدد آخر من الآيات القرآنية الكريمة أنه لا يوجد فقط كتاب للفرد وكتاب للأمة فحسب . وإنما يوجد أيضاً إحضار للفرد وإحضار للأمة . حيث إن هناك احضاران بين يدي الله سبحانه وتعالى ، فالاحضار الفردي يأتي فيه كل إنسان فرداً فرداً ، لا يملك ناصراً ولا معيناً ولا يملك شيئاً يستعين به في ذلك الموقف إلا العمل الصالح والقلب السليم والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . هذا هو الإحضار الفردي الذي قال عنه الله تعالى : ـ ﴿ **إنْ كُلُّ مَنْ في السَمَواتِ والأرضِ إلاّ آتي الرحمنِ عَبداً * لَقَد أحصاهُم وَعَدَّهُم عَدّاً * وَكُلُّهمْ آتيهِ يَومَ القيامَةِ فَرداً** ﴾ [٩٣] ، إن هذا الإحضار هو إحضار فردي بين يدي الله تعالى .

وهناك إحضار آخر هو إحضار للفرد في وسط الجماعة ، وإحضار للأمة بين يدي الله سبحانه وتعالى . فكما يوجد سجّلان ، كذلك يوجد إحضاران ـ كما تقدم ـ حيث ترىٰ كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها . ذاك هو إحضار للجماعة . على أن المستأنس به من سياق الآيات الكريمة أن هذا الإحضار الثاني يكون من أجل إعادة العلاقات إلى نصابها الحق . إذ إن العلاقات من داخل كل أمة قد تكون غير قائمة على أساس الحق ، وقد يكون الإنسان المستضعف فيها جديراً بأن يكون في أعلى مواقع الأمة . إن هذه الأمة تعاد فيها العلاقات إلى نصابها الحق . وهذا هو الشيء الذي سمّاه القرآن الكريم بيوم التغابن .

أما كيف يحصل التغابن ؟

فإن ذلك يحصل عن طريق اجتماع المجموعة ثم كل إنسان كان مغبوناً في موقعه في الأمة وفي وجوده في الأمة ، بقدر ما كان مغبوناً في موقعه في الأمة يأخذ حقه يوم لا كلمّة إلا للحق . وفي هذا الصدد يقول تعالى : ـ ﴿ **يَومَ**

---

(٩٣) سورة مريم ١٩ : ٩٣ ـ ٩٥ .

يجمعُكمْ ليوم الجمع ، ذلِكَ يومُ التَّغابُنِ ﴾ [٩٤] .

إذن فهناك سجلان : ـ الأول سجل لعمل الفرد ، والآخر سجل لعمل الأمة ذلك العمل الذي هو عبارة ـ عما قلناه ـ عن العمل الذي يكون له ثلاثة أبعاد . بعد من ناحية العامل أو ما يسميه أرسطو [٩٥] بـ « العلة الفاعلية » وبعد من ناحية الهدف أو ما يسميه أرسطو « بالعلة الغائية » ، وبعد من ناحية الأرضية وامتداد الموج ما يسمونه « بالعلة المادية » . هذا هو عمل المجتمع .

المجتمع ليس كائناً عضوياً

لكن لا ينبغي أن يوهم ذلك ما توهمه عدد من المفكرين الفلاسفة الأوروبيين [٩٦] من أن المجتمع كائن عملاق له وجود وحدوي عضوي متميز

---

(٩٤) سورة التغابن ٦٤ : ٩ .

(٩٥) أرسطو هو كبير الفلاسفة اليونانيين وأعظمهم أثراً في الفكر الفلسفي والمنطقي البشري . حيث لا تزال آثاره الفلسفية والسياسية والمنطقية تقابل بعناية شديدة . وهو مؤسس مدرسة اللوقيون التي قامت على اثر الخلاف الذي نشب بينه وبين أفلاطون في الأيام الأخيرة من عمر الأخير . وقد ولد عام ٣٨٤ ق . م في مدينة مقدونية ، وتتلمذ على يد أفلاطون طوال عشرين سنة . وهو أستاذ الاسكندر المقدوني . مما أدى إلى ذيوع فلسفته وانتشارها نتيجة للتوسع الهائل الذي ألحقته فتوحات الاسكندر المعروفة الامبراطورية اليونانية .

أما كتب أرسطو وأعماله فهي كثيرة جداً بحيث إن البعض يقدرها بألف كتاب فيما يقدرها البعض الآخر بأربعمائة كتاب . وقد مات مريضاً أو منتحراً عام (٣٢٢ ق . م) عن عمر يناهز الاثنين والستين ، وذلك بعد موت الاسكندر الفجائي .

(٩٦) يرى البعض أن لنظرية دارون Charles Darwin (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) البيولوجية ومنحاها في تفسير تطور الأنواع ، عميق الأثر في إيجاد مثل هذا الوهم لدى الفلاسفة الأوروبيين . حينما تبنى هربرت سبنسر (Herbert Spencer ١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) ومن بعده مدرسته التي عرفت بالداروينية الاجتماعية Social Darwinism هذه النظرية فلسفياً وحاولوا أن يعمموا نظرياتها في علم الأحياء على علم الاجتماع محتسبين أن الظواهر الطبيعية هي الظواهر الاجتماعية نفسها من حيث التركيب والقوانين التي تحكمها ولهذا كان يعتقد : بأن المجتمع كائن عضوي ، له أعضاء للتغذية وله دورة دموية وفيه تعاون بين الأعضاء كما له تناسل وافراز تماماً مثل الأفراد لا غير* . غير أن الأثر العظيم الذي تركته نظرية دارون ومن قبله آراء لا مارك Lamarck (١٧٤٨ ـ ١٨٢٩) في هذا الخصوص على فلسفة سبنسر ، لا يمنع من أن نرى التأثر الكبير ايضاً لدى الرجل بنظريات كل من كوندرسيه Condorcet وسان سيمون Saint Simon (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) وهيجل F . Hegel =

عن سائر الأفراد ، وكل فرد ليس إلا بمثابة الخلية في هذا العملاق الكبير ، هكذا تصوّر هيجل [٩٧] مثلاً وجملة من الفلاسفة الأوروبيين ، حيث تصوروا عمل المجتمع على هذا النحو ، فأرادوا أن يميزوا بين عمل المجتمع وعمل الفرد فقالوا بأنه يوجد عندنا كائن عضوي واحد عملاق هذا الكائن الواحد هو في الحقيقة يلف في أحشائه كل الأفراد ويندمج في كيانه كل الأفراد . كل فرد يشكل خلية في هذا العملاق الواحد ، وهو يتخذ من كل فرد نافذة على الواقع وعلى العالم بقدر ما يمكن أن يجسد في الفرد من قابلياته هو ومن إبداعه هو . إذن كل قابلية وكل إبداع وكل فكرة هي قابلية ذلك العملاق وإبداعه وفكرة ذلك العملاق الطاغية ، وكل فرد إنما هو تعبير عن نافذة من النوافذ التي يعبر عنها ذلك العملاق الهيجلي .

اعتقد بهذا التصور جملة من الفلاسفة الاوروبيين تمييزاً لعمل المجتمع عن عمل الفرد . إلا أن هذا التصور ليس صحيحاً . ولسنا بحاجة إليه . كما أننا لسنا بحاجة إلى كل الإغراق في الخيال إلى هذه الدرجة لكي ننحت هذا العملاق الأسطوري من هؤلاء الأفراد . فليس عندنا إلا الأفراد المتشكلين من زيد وبكر وخالد . وليس عندنا ذلك العملاق المستتر من ورائهم ومن الطبيعي أن مناقشة هيجل من الزاوية الفلسفية يخرج من حدود هذا البحث ، وهي متروكة إلى بحث آخر لأن هذا التفسير الهيجلي للمجتمع مرتبط بحسب الحقيقة بكامل الهيكل النظري لفلسفته . إلا أن الشيء الذي نريد أن نعرفه ، ونعرف

= (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) واوغست كومت Auguste Comte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) . على أن ذلك يجب أن لا يعني أن هذا الوهم هو من اختراع ذهنية سبنسر . بل إننا نستطيع القول بأنه قد تبلور بوضوح لدى سبنسر .

انظر كتاب قصة الفلسفة لول ديورانت مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٢ ص ٤٨١ .

(٩٧) هو جورج ويلهم فردريك هيجل ولد عام ١٧٧٠ في المانيا الغربية (في تعريف اليوم) ضمن عائلة كانت في خدمة حكام زمانها . وحينما تخرج من الجامعة كان يلاحظ عليه أنه ضعيف جداً في الفلسفة . غير أنه سرعان ما علا باعه في الفلسفة ليمثل بعد ذلك أحد أهم الفلاسفة الوضعيين . ويعتبر أحد المخترعين الأساسيين للمنهج الديالكتيكي غير أنه كان ـ في تعريف الماركسيين ـ مثالياً لأنه كان يعطي الفكر القيمة الأولى في الحياة . وأهم آثاره الفلسفية كتاب علم المنطق وكتاب فلسفة الحق وفلسفة التاريخ . وقد مات عام ١٨٣١ .

مـواقع أقـدامنا من هـذا التصور . أنـه ليس تصوراً صحيحـاً (٩٨). ونحن لسنا بحـاجة إلى مثـل هذا الافتـراض الأسطوري لكي نميـز بين عمـل الفـرد وعمـل المجتمـع . إذ إن التمييـز بـين عمـل الفـرد وعمـل المجتمـع يتم من خـلال مـا أوضحنـاه من البعد الثـالث . حيث إن عمل الفـرد هو العمـل الذي يكـون له بعدان فإن اكتسب بعداًثالثاً كان عمل المجتمع بـاعتبار أن المجتمـع يشكل أرضيـة له ، يشكل علة مادية له . فيدخل حينئذ في سجل كتاب الأمة الجاثية بين يـدي ربها . وهذا هو ميزان الفرق بين العملين .

إذن الشيء الـذي نستخلصه مما تقدم أن مـوضـوع السنن التـاريخية هـو العمل الهادف الذي يشكل أرضيـة ويتخذ من المجتمـع أو الأمة أرضيـة له عـلى

---

(٩٨) هذا التصور هو إغراق ساذج في الخيال . مما جعله يفقد أي سند علمي . فمن جهة اعتمد هذا التصـور على التشبيـه التطابقي مـا بين الـظاهرة البيـولوجيـة للكائنـات الحية ، ومـا بين الـظاهرة السـوسيولـوجية (الاجتمـاعية) بشكـل جعل بعض فـلاسفة هـذا التصور وبـالخصـوص سبنسر يعمدون إلى الإقذاع في التشبيه ما بين الظاهرتين . هذا في الوقت الـذي غدا فيـه واضحاً بشكـل علمي أن مجال التشبيه ما بين الظاهرتين محدود بل ومحدود جداً .

ومن جهـة أخرىٰ فـإن هذا التصـور ترك الكثـير من التساؤلات الأسـاسية في البحث الاجتمـاعي والسياسي مبهمة ومن دون أن يعثر لها على إجابـة واضحة ودقيقـة . اذ إنـه بـاعتماده عـلى مفاهيم التطور اللاماركية والـداروينية . لم يعـالج جملة من المسائل الحساسـة كمسائـل الحتمية ، والثـورة والاستعمـار مثلاً عـلى المستوىٰ النـظري . بالـرغم من أن هذا التصـور قد قـدم خـدمـات جليلة للسياسات المعاصرة له . أي أنه في المستوىٰ النظري أو الفلسفي تـرك هذه المسـائل رغم أنـه في الجانب العملي قـد بحث فيها مفصـلاً ـ . فالمجتمـع نتيجة لمبـدأ التطور الحتمي يجب أن يخلد إلى الـراحة وإشـاعة السيـاسة المحـافظ لأن التطور المنشـود سيحصل حتـماً . وبما أن هـذا التـطور في المجتمعات المتطورة . أو مجتمعات المركب الثلاثي ـ كما يسميها سبنسر ـ يكون تـطوراً تكامليـاً فلا حـاجة بعـدئذ للثـورة . فيما يسلم هـذه المجتمعات حق قيـادة وتوجيـه المجتمعات الأقـل تـطوراً كالمجتمع البسيط ، والمركب ، والمركب المضاعف ـ وفقاً لتسميات سبنسر ـ وبالتـالي الهيمنة عليهـا ونهبها وفقاً لمبدأ تنازع البقاء .

غير أن هذه المسائل من الناحية الفلسفية لا تجد جواباً دقيقاً لها فالتطور الارتقائي المزعـوم مثلاً لا يمكن التـدليل عليـه فلسفياً كـما أنه لا يحـظىٰ بتأييـد منهج الاستقـراء التاريخي . فـالمجتمعـات ، صحيح أن نسب التطور فيها متفاوتة ، إلا أن هذا لا يعني أنها دومـاً تسير من الأسفـل إلى الأعلىٰ فكم من مجتمعـات عظيمـة وصلت بالمجـد إلى مستويـات شاهقـة . غير أنها سـرعـان مـا هـوت وتلاشت . وكم من مجتمعات كانت ولا تزال بدائية أو قريبة من ذلك .

اختلاف سعة الموجة ، وضيق الموجة . وهذا هو موضوع السنن التاريخية .

أشكال السنة التاريخية في القرآن [99]

لقد حان الأوان لكي نتعرف على الصيغ المتنوعة التي تتخذها السنة التاريخية القرآنية .

فكيف تم التعبير موضوعياً عن القانون التاريخي في القرآن الكريم ؟ .

وما هي الأشكال التي تتخذها سنن التاريخ في مفهوم القرآن الكريم ؟

هناك ثلاثة أشكال تتخذها السنة التاريخية في القرآن الكريم لابد من استعراضها ومقارنتها والتدقيق في أوجه الفرق بينها .

أولاً : شكل القضية الشرطية

إن الشكل الأول للسنة التاريخية هو شكل القضية الشرطية ، ففي هذا الشكل تتمثل السنة التاريخية في قضية شرطية تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية ، وتؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء . حيث إنه متىٰ ما تحقق الشرط تحقق الجزاء . وهذه صياغة نجدها في كثير من القوانين والسنن الطبيعية والكونية في مختلف الساحات الأخرىٰ .

فمثلاً : ـ حينما نتحدث عن قانون طبيعي لغليان الماء ، فإننا نتحدث بلغة القضية الشرطية ـ فنقول بأن الماء اذا تعرض للحرارة ، وبلغت هذه الحرارة درجة مائة مثلاً وذلك في مستوىٰ معين من الضغط . حينئذ سوف يحدث الغليان . إن هذا القانون الطبيعي يربط بين الشرط والجزاء ، ويؤكد أن حالة التعرض للحرارة ضمن مواصفات معينة تذكر في طرف الشرط تستتبع حادثة طبيعية معينة وهي غليان هذا الماء . أو تحول هذا الماء من سائل إلى بخار .

إن هذا القانون مصاغ على نهج القضية الشرطية ، ومن الواضح أن هذا القانون الطبيعي لا ينبئنا عن تحقق الشرط وعدم تحققه . فهو لا ينبئنا عما إذا

---

(٩٩) هذه هي بداية المحاضرة السابعة والأخيرة في هذا الفصل . وقد ألقيت في يوم الثلاثاء الموافق فيه العاشر من جمادى الأولى عام ١٣٩٩ هـ .

كان الماء سوف يتعرض للحرارة أو لا يتعرض لها ؟ وهل أن حرارة الماء سوف ترتفع إلى الدرجة المطلوبة ضمن هذا القانون . أو لا ؟

إن هذا القانون لا يتعرض إلى مدىٰ وجود الشرط وعدم وجوده ، ولا ينبئنا بشيء عن تحقق الشرط إيجاباً أو سلباً ، وإنما ينبئنا عن أن الجزاء لا ينفك عن الشرط . فمتىٰ ما وجد الشرط وجد الجزاء . والغليان في هذا المثال ما هو إلا نتيجة مرتبطة موضوعياً بالشرط . وهذا الأمر هو تمام ما ينبئنا عنه هذا القانون المصاغ بلغة القضية الشرطية .

ومن الواضح أن مثل هذه القوانين تقدم خدمة كبيرة للإنسان في حياته الاعتيادية . بل وتلعب دوراً عظيماً في توجيهه . لأن الإنسان ضمن تعرفه على هذه القوانين يصبح بأمكانه أن يتصرف بالنسبة إلى الجزاء ، ففي كل حالة يرىٰ أنه بحاجة إلى الجزاء يُعمِل هذا القانون ويوفر شروط وجوده . وفي كل حالة يكون الجزاء متعارضاً مع مصالحه ومشاعره يحاول الحيلولة دون شروط هذا القانون .

فمتىٰ ما كان غليان الماء مقصوداً للإنسان فبامكانه أن يطبق شروط هذا القانون ، ومتىٰ لم يكن مقصوداً للإنسان فأنه يحاول أن لا تنطبق شروط هذا القانون . اذن القانون الموضوع بنهج القضية الشرطية موجه عملي للإنسان في حياته .

ومن هنا تتجلىٰ حكمة الله سبحانه وتعالى في صياغة نظام الكون على مستوىٰ القوانين وعلى مستوىٰ الروابط المضطردة والسنن الثابتة . وذلك لأن صياغة الكون ضمن روابط مضطردة وعلاقات ثابتة هو الذي يجعل الإنسان يتعرف على موضع قدميه ، وعلى الوسائل التي يجب أن يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته والوصول إلى إشباع حاجته . فلو أن الغليان في الماء كان يحدث مصادفة ومن دون رابطة قانونية مضطردة مع حادثة أخرى كالحرارة ، اذن لما استطاع الإنسان أن يتحكم في هذه الظاهرة . وأن يخلق هذه الظاهرة متىٰ ما كانت حياته بحاجة إليها ، أو أن يتفادها متىٰ ما كانت حياته بحاجة إلى تفاديها . . وإنما كانت له هذه القدرة باعتبار أن هذه الظاهرة وضعت في موضع

ثابت من سنن الكون . وتم طرحها على الإنسان كقانون طبيعي بلغة القضية الشرطية . ولهذا أصبح ينظر في نور لا في ظلام ، ويستطيع في ضوء هذا القانون الطبيعي أن يتصرف .

إن هذا هو الشيء نفسه الذي نجده في الشكل الأول من السنن التاريخية القرآنية حيث إن عدداً كبيراً من السنن التاريخية في القرآن ، قد تمت صياغته على شكل القضية الشرطية التي تربط ما بين حادثتين اجتماعيتين أو تاريخيتين ، فهي لا تتحدث عن الحادثة الأولى أنها متىٰ توجد ، ومتىٰ لا توجد ولكن تتحدث عن أن الحادثة الأولىٰ متىٰ ما وجدت ستؤدي حتماً إلى وجود الحادثة الثانية .

فلقد قرأنا فيما سبق استعراضاً للآيات الكريمة التي تدل على سنن التاريخ في القرآن : فكانت جملة من تلك الآيات الكريمة مفادها هو السنة التاريخية بلغة القضية الشرطية . إذ تتذكرون ما قرأناه سابقاً : ﴿ **إنْ اللهَ لا يُغيّرُ ما بِقَومٍ حتىٰ يُغيِّروا ما بأنفسِهِم** ﴾ [١٠٠] .

إن هذه السنة التاريخية للقرآن (والتي تقدم الكلام عنها ويأتي إن شاء الله الحديث عن شرح محتواها) قد بيّنت بلغة القضية الشرطية لأن مرجع هذا المفاد القرآني إلى أن هناك علاقة بين تغييرين : بين تغيير المحتوىٰ الداخلي للانسان . وتغيير الوضع الظاهري للبشرية والإنسانية . ومفاد هذه العلاقة وهي قضية شرطية أنه متىٰ ما وجد ذاك التغيير في أنفس القوم وجد هذا التغيير في بناء القوم وكيان القوم . إن هذه القضية هي قضية شرطية بيّن القانون فيها بلغة القضية الشرطية .

وفي قوله تعالى ﴿ **وَأَنْ لَّو استقاموا علىٰ الطَرِيقَةِ لَأسقيناهُم ماءاً غدقاً** ﴾ [١٠١] نجد أن هذه الآية الكريمة تتحدث عن سنة تربط وفرة الإنتاج بعدالة التوزيع [١٠٢] وهذه السنة أيضاً قد صيغت بلغة القضية الشرطية ـ كما هو

---

(١٠٠) سورة الرعد : ١٣ : ١١ .

(١٠١) سورة الجن ٧٢ : ١٦ .

(١٠٢) حيث جعلت وفرة الإنتاج وانتشار الرفاه في المجتمع مرهونة بعدالة التوزيع ومشروطة بوجود=

الواضح من صياغتها النحوية أيضاً .

وفي قوله تعالى ﴿ وإذا أَردنا أَنْ نُهلِكَ قريَةً أَمَرنا مُترَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيها القَولُ فَدَمَّرناها تدَمِيراً ﴾ [١٠٣] .

هنا نجد أيضاً سنة تاريخية قد بيّنت بلغة القضية الشرطية فربطت بين أمرين : بين تأمير الفساق والمترفين في المجتمع ، وبين دمار ذلك المجتمع وانحلاله . إن هذا القانون التاريخي أيضاً مبين على نهج القضية الشرطية ، فهو لا يبين أنه متىٰ يوجد الشرط ، ولكنه يبين أنه متىٰ ما وجد هذا الشرط وجد ذلك الجزاء .

هذا هو الشكل الأول من أشكال السنة التاريخية في القرآن .

ثانياً : شكل القضية الفعلية الناجزة

أما الشكل الثاني الذي تتخذه السنن التاريخية فهو شكل القضية الفعلية الناجزة الوجودية المحققة . هذا الشكل نجد له أمثلة وشواهد أيضاً في القوانين الطبيعية والكونية . فمثلاً : ـ حينما يصدر العالم الفلكي حكماً علمياً ـ في ضوء قوانين مسارات الفلك بأن الشمس سوف تنكسف في اليوم الفلاني ، أو أن القمر سوف ينخسف في اليوم الفلاني . إن هذا قانون علمي وقضية علمية ، غير أنها قضية وجودية ناجزة وليست قضية شرطية .

فالإنسان لا يملك تجاه هذه القضية أن يغير من شروطها وأن يعدل من شروطها لأنها لم تبين بلغة القضية الشرطية ، وإنما بينت على مستوىٰ القضية الفعلية الوجودية فالشمس سوف تنكسف ، والقمر سوف ينخسف . . إن هذه قضية فعلية تنظر إلى الزمان الآتي وتخبر عن وقوع الحادثة على أي حال . كذلك

= علاقات توزيعية تقوم على أساس العدل . مما يعني أن هذه العدالة كلما سادت في الحياة الاجتماعية والاقتصادية كلما أدت إلى انتشار الخير وعموم البركة . وسيأتي في الفصل القادم الحديث عن ذلك .

(١٠٣) سورة الإسراء ١٧ : ١٦ .

القـرارات العلمية التي تصـدر عن الأنواء الجـوية [١٠٤] ، كـأن تقول بـأن المطر سينهمر على المنطقة الفلانية إن هذا يعبر عن قضيـة فعلية وجـودية لم تصـغ بلغة القضيـة الشرطيـة ، وإنما صيغت بلغـة التنجيز والتحقيق بلحـاظ مكـان وزمـان معينين . هذا هو الشكل الثاني من أشكال السنن التـاريخية ، وسـوف أذكر فيـما بعد إن شاء الله تعـالى عند تحليـل عناصر المجتمـع أمثلة هذا الشكـل في القرآن الكريم .

عودة إلى الأوهام الأوروبية

إن هـذا الشكل من السنن التـاريخية هـو الذي أوحىٰ في الفكـر الأوروبي بتوهم التعارض بين فكرة سنن التاريخ وفكرة اختيار الإنسان وإرادته . وقد نشأ هذا التوهم الخاطىء الذي يقول بأن فكـرة سنن التاريـخ لا يمكن أن تجتمع إلى جـانب فكرة اختيـار الإنسان ، وذلـك لأن سنن التاريـخ هي التي تنـظم مسـار الإنسان وحياته . إذن فماذا يبقىٰ لإرادة الإنسان ؟

إن هذا التوهـم أدى إلى أن يذهب بعض المفكرين إلى أن الإنسان له دور سلبي فقط . وذلك حفاظاً على سنن التاريخ وعلى موضوعية هـذه السنن ، فقد ضحـىٰ باختيار الإنسان من أجل الحفاظ على سنن التاريخ فقال بأن دور الإنسـان سلبي وليس دوراً إيجـابياً يتحرك كما تتحـرك الأمة وفقـاً لظروفهـا الموضـوعية ، ولعله يأتي بعض التفصيل أيضاً عن هذه الفكرة .

فيما ذهب بعـض آخـر في مقام التوفيق مـا بين هـاتين الفكرتيـن ـ ولـو ظاهريـاً ـ إلى القول بـأن اختيار الإنسـان نفسه هـو أيضاً يخضـع لسنن التاريـخ ولقوانينه . فهنا لا نضحي باختيار الإنسان لكن نقول بأن اختيار الإنسان لنفسـه حـادثة تـاريخية أيضـاً . إذن هو بـدوره يخضع للسنن . وهـذه تضحية بـاختيـار الإنسان ولكن بصورة مبطنة وغير مكشوفة .

وقـد ذهب البعض الآخـر إلى التضحيـة بسنن التـاريـخ لحسـاب اختيـار الإنسان حيث ذهب جملة من المفكرين الأوروبين إلى القول بأنه مـا دام الإنسان

---

(١٠٤) دائرة متابعة أحوال الطقس الجوي .

مختاراً فلابد من أن تستثنىٰ الساحة التاريخية من الساحات الكونية في مقام التقنين الموضوعي ولهذا لابد من أن يقال بأنه لا سنن موضوعية للساحة التاريخية حفاظاً على إرادة الإنسان وعلى اختيار الإنسان .

وهذه المواقف كلها خاطئة [١٠٥] لأنها جميعاً تقوم على ذلك الوهم الخاطىء وهم الاعتقاد بوجود تناقض أساسي بين مقولة السنة التاريخية ومقولة الاختيار وهذا التوهم نشأ من قصر النظر على الشكل الثاني من أشكال السنة التاريخية، أي قصر النظر على السنة التاريخية المصاغة بلغة القضية الفعلية الوجودية الناجزة .

ونحن لو كنا نقصر النظر على هذا الشكل من سنن التاريخ ، ولو كنا نقول بأن هذا الشكل هو الذي يستوعب كل الساحة التاريخية [١٠٦] ولا يبقي فراغاً لذي فراغ ، لكان هذا التوهم وارداً . ولكننا يمكننا إبطال هذا التوهم عن طريق الالتفات إلى الشكل الأول من أشكال السنة التاريخية التي تصاغ بوصفها قضية شرطية . حيث إن هذه القضية الشرطية كثيراً ما تكون في شرطها معبرة عن إرادة الإنسان واختياره . مما يعني أن اختيار الإنسان يمثل محور القضية

---

(١٠٥) يمكننا ملاحظة هذا الخطأ مرة حينما نلحظ أن السنة التاريخية لا تتعارض مع الإرادة الإنسانية في غالبية الأمور إذ إن أغلب هذه السنن هي إما شرطية ، وهذا الشرط وجدناه دائماً يتوقف على إرادة الإنسان . وإما من نمط السنة القابلة للتحدي على الموج القصير ـ وفق تعبير المصنف (ره) وهي الأخرىٰ لا تتنافىٰ مع الإرادة الإنسانية . بل على العكس اننا نلحظ أن السنة التاريخية تأتي وهي بمثابة امداد لهذه الإرادة على مستوىٰ هدايتها وتحذيرها من مخاطر الانزلاق أما السنة التي تتخذ شكل القضية الفعلية الناجزة . فإن المتحقق هو أن هذه السنة لا تتخذ هذا الشكل إلا بعد أن تمر بالسنة الشرطية . وبالتالي فإن ثمة دور للإرادة الانسانية في إيجاد أو عدم إيجاد هذه السنة . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرىٰ يمكننا تلمس خطأ هذه المقولة من خطأ مفهوم الجبر نفسه ، ومفهوم الاختيار . فمن وجهة النظر الإسلامية لا يوجد أي معنىٰ لجبر أو اختيار مجردين وإنما ما نتلمسه من وقائع حياتية ونصوص قرآنية وحديثية تؤكد بمجموعها على أن الإرادة الإنسانية ليست مجبرة لأن الإجبار ينفي هدف الخلق وحكمته، ولاتخيير لأنه لا يبقى لظاهرة اللطف الإلهي وما يستتبع ذلك من ظواهر الهداية والنبوة والإمامة وما إلى ذلك من مصاديق هذا اللطف أي معنىٰ وفائدة . وبالتالي فإن القضيتين بمجموعيهما ينسفان أساس الاعتقاد بيوم القيامة والجزاء المتعين فيه سلباً أو إيجاباً . ومن ثم إلغاء كل قواعد الإيمان بأصول الدين .

(١٠٦) المقصود هنا العمل التاريخي المؤطر بإطار السنة التاريخية .

الشرطية وشرطها فالقضية الشرطية التي لاحظناها في الأمثلة التي ذكرناها من القرآن الكريم تتحدث عن علاقة بين الشرط والجزاء . ولكن ما هو الشرط ؟

الشرط هو فعل الإنسان وهو إرادته ﴿ **إنَّ الله لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتىٰ يغيِّروُا ما بأنفُسِهِم** ﴾ [١٠٧] .

إن التغيير هنا أسند إليهم فهو فعلهم وإبداعهم وإرادتهم . ووفقاً لذلك فإن السنة التاريخية حينما تصاغ بلغة القضية الشرطية ، وحينما يحتل إبداع الإنسان واختياره موضوع الشرط في هذه القضية . ففي مثل هذه الحالة تصبح هذه السنة متلائمة تماماً مع اختيار الإنسان . وليس هذا وحسب . السنة حينئذ ستضفي على اختيار الإنسان وتزيده اختياراً وقدرة وتمكناً من التصرف في موقفه ، كيف أن ذلك القانون الطبيعي للغليان كان يزيد من قدرة الإنسان ويمكنه حينئذ من التحكم في الغليان بعد أن عرف شروطه وظروفه . كذلك السنن التاريخية ذات الصيغ الشرطية فهي في الحقيقة لا تتم على حساب إرادة الإنسان ، وليست نقيضاً لاختياره ، بل هي مؤكدة لهذا الاختيار ، فهي توضح للإنسان نتائج الاختيار لكي يستطيع أن يقتبس ما يريده من هذه النتائج ، ولكي يستطيع أن يتعرف على الطريق الذي يسلك به إلى هذه النتيجة أو إلى تلك . فيسير في ضوء هدى وكتاب منير .

ثالثاً : ـ شكل الاتجاه الطبيعي في حركة التاريخ

أما الشكل الثالث للسنة التاريخية والذي اهتم به القرآن الكريم اهتماماً كبيراً . فهو السنة التاريخية المصاغة على صورة اتجاه طبيعي في حركة التاريخ . وليس على صورة قانون صارم حدي ، وهناك فرق واضح بين الاتجاه والقانون . ولكي تتضح الفكرة في ذلك لابد من أن نطرح الفكرة الاعتيادية التي تعيش في أذهاننا عن القانون .

إن القانون العلمي كما نتصوره عادة هو عبارة عن تلك السنة التي لا تقبل التحدي من قبل الإنسان ، لأنها قانون من قوانين الكون والطبيعة فلا يمكن

---

(١٠٧) سورة الرعد ١٣ : ١١ .

للإنسان أن يتحداها . أو أن ينقضها أو أن يخرج عن طاعتها . فهو يمكنه أن لا يصلي لأن وجوب الصلاة حكم تشريعي وليس قانوناً تكوينياً . ويمكنه أن يشرب الخمر لأن حرمة شرب الخمر هي قانون تشريعي وليس قانوناً تكوينياً ، غير أنه لا يمكنه أن يتحدىٰ القوانين الكونية والسنن الموضوعية . فمثلاً لا يمكنه أن يجعل الماء لا يغلي اذا ما توفرت شروط الغليان ، ولا يمكنه أن يتحدىٰ الغليان أو أن يؤخره لحظة عن موعده المعين لأن هذا قانون والقانون صارم ، والصرامة تأبىٰ التحدي . هذه هي الفكرة التي نتصورها عادة عن القوانين ، وهي فكرة صحيحة إلى حدٍ ما ، ولكن ليس من الضروري أن تكون كل سنة طبيعية موضوعية على هذا الشكل بحيث تأبىٰ التحدي ، ولا يمكن تحديها من قبل الإنسان بهذه الطريقة . بل إن هناك اتجاهات موضوعية في حركة التاريخ وفي مسار الإنسان غير أن هذه الاتجاهات لها شيء من المرونة بحيث إنها تقبل التحدي ولو على شوط قصير وإن لم تقبل التحدي على شوط طويل [١٠٨] .
فأنت لا تستطيع أن تؤخر موعد غليان الماء لحظة ، لكن تستطيع أن تجمد هذه الاتجاهات لحظات من عمر التاريخ ، ولكن هذا لا يعني أنها ليست اتجاهات تمثل واقعاً موضوعياً في حركة التاريخ . فهي اتجاهات ، ولكنها مرنة تقبل التحدي ، لكنها تحطم المتحدي بسنن التاريخ نفسها . ومن هنا كانت اتجاهات : فهناك أشياء يمكن تحديها دون أن يتحطم المتحدي . ولكن هناك أشياء يمكن ان تُتَحدى على شوط قصير ، ولكن المتحدي يتحطم على يد سنن التاريخ نفسها . إن هذه هي طبيعة الاتجاهات الموضوعية في حركة التاريخ .
ولكي أقرب القول إليكم أقول : إننا نستطيع أن نقول بأن هناك اتجاهاً في تركيب الإنسان ، وفي تكوين الإنسان ، اتجاهاً موضوعياً لا تشريعياً إلى إقامة العلاقات

---

(١٠٨) أي أنها من الممكن أن تقابل بالعصيان والتمرد من قبل الإنسان على مستوىٰ الزمن القصير . إلا أنها لا تقبل تحديه على مستوىٰ الأمد البعيد فتحطم هذا التمرد والعصيان . ومما لا شك فيه أن هذا الزمن والأمد ـ طولاً أو قصراً ـ هو أمر نسبي يتفاوت من ظرف لآخر وفقاً للظروف الموضوعية التي تحيط به . وما موقف الحضارة المعاصرة من مسألة الإيمان وما أدى بها هذا الموقف فيما بعد إلى أن تعيش أزمة رهيبة لم يوجد لها مثيل في عمر الحضارات إلا شاهد صدق على وجود هذا الاتجاه في حركة التاريخ ومسار الإنسان .

المعينة بين الذكر والأنثىٰ في مجتمع الإنسان ضمن إطار من أطر النكاح والاتصال .

إن هذا الاتجاه ليس اتجاهاً تشريعياً كما أنه ليس تقنياً اعتبارياً . وإنما هو اتجاه موضوعي أعملت العناية في سبيل تكوينه في مسار حركة الإنسان . إننا هنا لا نستطيع أن نقول بأن هذا مجرد قانون تشريعي ومجرد حكم شرعي . كلا وإنما هذا هو اتجاه ركب في طبيعة الإنسان وفي تركيب الإنسان (١٠٩) ، وهو الاتجاه إلى الاتصال بين الذكر والأنثىٰ وإدامة النوع عن طريق هذا الاتصال ضمن إطار من أطر النكاح الاجتماعي . . إن هذه سنة ولكنها سنة على مستوىٰ الاتجاه ، لا على مستوىٰ القانون .

أما لماذا كان ذلك ؟

فلأن التحدي لهذه السنة لحظة أو لحظات ممكن ، فقد أمكن لقوم لوط أن يتحدوا هذه السنة فترة من الزمن بينما لم يكن بإمكانهم أن يتحدوا سنة الغليان بشكل من الأشكال لكنهم تحدوا هذه السنة إلا أن تحدي هذه السنة يؤدي إلى أن يتحطم المتحدي . أما المجتمع الذي يتحدى هذه السنة فيكتب بنفسه فناء نفسه . لأنه يتحدى ذلك عن طريق ألوان أخرىٰ من الشذوذ التي رفضها هذا الاتجاه الموضوعي ، وتلك الألوان من الشذوذ تؤدي إلى فناء المجتمع وإلى خرابه .

ومن هنا كان هذا اتجاهاً موضوعياً يقبل التحدي على شوط قصير ، لكنه لا يقبل التحدي على شوط طويل لأنه سوف يحطم المتحدي نفسه .

إن الاتجاه إلى توزيع الميادين بين المرأة والرجل هو اتجاه موضوعي وليس اتجاهاً ناشئاً من قرار تشريعي ، اتجاه ركب في طبيعة الرجل والمرأة ، ولكن هذا

---

(١٠٩) المقصود هنا هو أن العلاقات الموجودة بين الذكر والأنثىٰ ونزوع كل واحد منهم إلى الآخر هي اتجاه فطري متأصل في حياة الإنسان ذكراً كان أو أنثى . أي أن هذا الاتجاه والرغبة النفسية قد وجدت مع وجود الإنسان نفسه . مما يعني أن هذه العلاقات تتأتىٰ نتيجة تقنين شرعي وقانوني ، وإنما نشأ هذا التقنين من أجل تنظيم هذه العلاقات ضمن إطار من أطر العدالة والعرف الاجتماعي .

الاتجاه يمكن أن يتحدى . بل ويمكن استصدار تشريع يفرض على الرجل بأن يبقىٰ في البيت ليتولى دور الحضانة والتربية ، وأن تخرج المرأة إلى الخارج لكي تتولى مشاق العمل والجهد . إن هذا الأمر بالإمكان أن يتحقق عن طريق تشريع معين . وبهذا يحصل التحدي لهذا الاتجاه . ولكن هذا التحدي سوف لن يستمر لأن سنن التاريخ سوف تجيب على هذا التحدي ، لأننا بهذا سوف نخسر ونجمد كل تلك القابليات التي زودت بها المرأة من قبل هذا الاتجاه لممارسة دور الحضانة والأمومة ، كما أننا سوف نخسر كل تلك القابليات التي زود بها الرجل من أجل ممارسة دور يتوقف على الجلد والصبر والثبات وطول النفس . إنّ حالة كهذه مماثلة تماماً لحالة من قبيل أن تسلم نجّارية بناية إلى حداد، وحداديتها إلى نجار ان هذه البناية من الممكن أن يصنع ، ومن الممكن أن تنشأ أيضاً . غير إنه سوف ينهار ، وسوف لن يستمر هذا التحدي على شوط طويل ، بل إنه سوف ينقطع في شوط قصير .

إن كل اتجاه من هذا القبيل هو في الحقيقة سنة موضوعية من سنن التاريخ ومن سنن حركة الإنسان ، ولكنها سنة مرنة تقبل التحدي على الشوط القصير ولكنها تجيب وترد عليه .

الدين كنموذج لهذا الشكل

وأهم مصداق يعرضه القرآن الكريم لهذا الشكل من السنن هو الدين . فالقرآن الكريم يرىٰ أن الدين نفسه سنة موضوعية من سنن التاريخ فليس الدين تشريعاً فقط ، وإنما هو سنة من سنن التاريخ أيضاً . ولهذا نرىٰ القرآن يعرض الدين عبر شكلين : ـ

فتارة يعرضه بوصفه تشريعاً أو كما يقول علم الأصول [١١٠] بوصفه إرادة

---

(١١٠) يعرف السيد الشهيد علم الأصول بأنه العلم بالعناصر المشتركة في عملية استنباط الحكم الشرعي * .

أي أن هذا العلم يختص بالتعريف بجميع العوامل والعناصر التي تدخل في تمكين الفقيه من استخراج واستنباط الحكم الشرعي من مصادره الشرعية . ومما يبدو أن السيد ينفرد بهذا التعريف عن بقية الفقهاء وعلماء الأصول . ومن يدقق في هذا التعريف يجد أنه قد جعل علم الأصول محدد المعالم ، وقد ميزه بشكل دقيق عن الفقه .   انظر : دروس في علم الأصول ١ : ٣٨ .

تشريعية وهنا يقول القرآن الكريم ﴿ **شَرَعَ لَكمُ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَينا إِلَيكَ ، وَما وَصَّينا به إبراهِيمَ وَمُوسىٰ وَعِيسىٰ أن أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فيهِ كَبُرَ عَلىٰ المُشرِكِين ما تَدعُوهُم إِلَيهِ** ﴾ (١١١) .

هنا يبين القرآن الدين كتشريع وكقرار وكأمر من الله سبحانه وتعالىٰ . ولكن في مجال آخر يبينه كسنة من سنن التاريخ وقانون داخل في صميم تركيب الإنسان وفطرته حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **فَأَقِم وِجهَكَ للدِّين حِنَيفاً فِطرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيها . لا تَبدِيلَ لِخَلقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكثَر النَّاسِ لا يَعلَمون** ﴾ (١١٢) .

هنا الدين لم يعد مجرد تشريع ، ومجرد قرار من أعلى ، وإنما الدين هنا فطرة للناس ، هو فطرة الله التي فطر عليها الناس ولا تبديل لخلق الله . وهذا الكلام هو كلام وضعي خبري لا تشريعي إنشائي (١١٣) إذ لا تبديل لخلق الله . وبكلمة أخرىٰ : كما أنك لا يمكنك أن تنتزع من الإنسان أي جزء من أجزائه التي تقوّمه ، كذلك لا يمكنك أن تنتزع من الإنسان دينه . فالدين ليس مقولة حضارية مكتسبة (١١٤) على مرّ التاريخ فيمكن عندئذ إعطاؤها ، ويمكن

---

(١١١) سورة الشورى ٤٢ : ١٣ .

(١١٢) سورة الروم ٣٠ : ٣٠ .

(١١٣) الكلام الخبري هو الكلام الذي يخبر فيه المتكلم عن وجود شيء ما . أما الإنشائي فإنه ينشأ ويقرر أثناء الكلام وجود هذا الشيء . ومؤدىٰ كلام المصنف ـ رض ـ أن كلام الباريء عز وجل هنا كان إخباراً عن وجود الدين كفطرة تكوينية . ولم يكن أمراً أو تشريعاً يجب الالتزام به .

(١١٤) أي أن الدين ليس ظاهرة صنعها الإنسان كما يذهب إلى ذلك غالبية الفلاسفة الغربيين وجميع الفلاسفة الماديين نتيجة لحاجته إلى العزاء أو السلوى أو للتلقين السلطوي بهدف تخدير الإنسان وإبقائه في جهالته إزاء أوضاع الاستغلال والظلم الاجتماعي ، أو نتيجة لجهله وخرافاته أو نتيجة لعوامل الخوف أو للعوامل الجنسية وذلك وفقاً لنظريات الماركسية وديفيد هيوم وسيجموند فرويد S . Freud وما شاكلهم .

فهو ليس صنيعة الاستغلال والظلم لأنه في الأساس ثورة ضد الظلم والطغيان وهو ليس مخدر وأفيون للشعوب لأنه غدا من الواضح أن الدين في صورته الصحيحة الضمان الأفضل لقيام ثورات الشعوب وعدم انحرافها . وهو ليس وسيلة للتسلية والعزاء بشكل مجرد لأن ما فيه أكبر من ذلك بكثير. أما أنه وليد عوامل الكبت الجنسي أو عقدة أو ديب Oedipus Complex فهو ادعاء لا يقوى =

الاستغناء عنها لأنها في حالة من هـذا القبيل فـطرة الله التي فطر النـاس عليها . ولا تكـون خلق الله الذي لا تبـديل لـه . بل تكـون من المكـاسب التي حصـل عليها الإنسان من خلال تطوراته المدنية والحضاريـة على مـرّ التاريـخ . فالقـرآن يـريد أن يقـول بأن الـدين ليس مقولـة من هذه المقـولات بالإمكـان أخـذهـا ، وبـالإمكان عـطاؤها فـالدين خلق الله « فـطرة الله التي فطر النـاس عليها ، ولا تبديل لخلق الله . . » ان كلمـة « لا » ليست ناهيـة ، بل هي نـافية ممـا يعني ان الدين لا يمكن أن ينفك عن خلق الله ما دام الإنسان انساناً . فالدين يعتبـر سنة لهذا الإنسان .

إن هذه سنة ولكنها ليست سنة صارمة على مستوىٰ قـانون الغليـان ، سنة تقبل التحدي على الشوط القصير . كما كان بالإمكان تحدي سنة النكاح ، سنـة اللقاء الطبيعي والتزاوج الطبيعي ، وكـما كان بـالإمكان تحـدي ذلك عن طـريق الشذوذ الجنسي ، لكن على شوط قصير . كذلك يمكننـا أيضاً تحـدي هذه السنـة على شوط قصير عن طريق الإلحاد يتم إغماض العين عن هذه الحقيقة الكبرىٰ . فبإمكان الإنسان أن لا يرىٰ الشمس وأن يغمض عينيـه عن الشمس ويلحد ولا

= أمام البحث العلمي لأن ذلك يستـدعي أن يتخذ الـدين من الجنس موقفـاً إما متشـدداً للغايـة أو مشاعياً للغاية . والحـال ليس كذلـك . وهكذا الأمر بالنسبـة إلى الجهل . فلو كـان الدين صنيعـة الجهل لما وجدنا فيه الرائد الأول والحقيقي للتطور العلمي البشري . وعلاقة الدين بعامل الخـوف ليست أحسن حظاً من نظرائه . حيث إن من الواضح أن الدين ضمن تعليماته يجـرد الإنسان من كل عوامل الخوف من أي وجود أو مخلوق كوني أو بشـري . ويحيله إلى خوف من الله عـز وجل . وعند التدقيق في الفرق بين عملية التجريد تلك وعملية الإحالة هذه نلحظ أن الدين يوظف نزعة الخوف الموجودة لدىٰ الإنسان من أجل أن تكـون عامـلاً من عوامـل إزاحة كـل معالم الخـوف من الحياة الدنيا وما فيهـا . كي يشق هذا الإنسـان مسيرتـه الهادفـة وهو متحـرر من كل مـا يمكن أن يكـون عامـلاً من عوامـل العرقلة والاعـاقة وبكلمـة أخرىٰ إن الـدين يحرر الإنسـان من الخوف السلبي الذي يمنع حركته ويكرر غريـزة الخوف المـوجودة لـديه بصـورة إيجابيـة تدفعـه باتجـاه الله سبحانه وتعالىٰ وهذا ما يوفر له حياة حضارية أفضل .

نعم إن الدين ليس مقولة حضارية مكتسبة وإنما هو وجود أصيل لدىٰ الإنسان ـ كـل إنسان ـ ومـا تعلق هذا الإنسان ـ ملحداً كان أو مؤمناً ، وجاهلاً كان او عالماً بالبحث عن مثل أعلى له إلا دليل على أصالة وجود الدين في الإنسان بغض النظر عن طبيعة هذا المثل ومحتواه الفكري سـواء كان هـذا عبارة عن الله سبحانه وتعالى أو أي لون من ألوان الشرك .

يرىٰ هذه الحقيقة . ولكن هذا التحدي لا يكون إلا على شوط قصير العقاب سوف ينزل بالمتحدي . على أن العقاب هنا ليس بمعنىٰ العقاب الذي ينزل على من يرتكب مخالفة شرعية على يد ملائكة العذاب في السماء في يوم القيامة . كما أنه ليس ذلك العقاب الذي ينزل على من يخالف القانون على يد الشرطي فيضربه بالعصا على رأسه ، وإنما العقاب هنا ينزل من سنن التاريخ نفسها إذ تفرض العقاب على كل أمة تريد أن تبدل خلق الله سبحانه وتعالى ، ولا تبديل لخلق الله : ﴿ وَيَستَعجِلونَك بالعَذَابِ وَلَنْ يُخلِفَ اللهُ وَعدَهُ ، وإنَّ يَوماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (١١٥) .

إننا نقول بأن السنن التاريخية من الشكل الثالث إذا ما تحداها الإنسان فسوف ينال العقاب من السنن التاريخية إذ سرعان ما ينزل عليه العقاب من السنن التاريخية نفسها . وهنا تجدر الإشارة إلى أن كلمة سرعان هنا يجب أن تؤخذ بمعنىٰ السرعة التاريخية وليس السرعة التي نفهمها في حياتنا الاعتيادية . وهذا ما أرادت أن تقوله هذه الآية الكريمة . فهذه الآية الكريمة في المقام تتحدث عن العذاب واقعة في سياق العذاب الجماعي الذي نزل بالقرىٰ السابقة الظالمة ثم بعد ذلك تتحدث عن استعمال الناس في أيام رسول الله (ص) فيقولون له أين هذا العقاب ؟ وأين هذا العذاب ؟ ولماذا لا ينزل بنا نحن الآن ؟ فلقد كفرنا وتحديناك ولم نؤمن بك ، وصممنا آذاننا عن قرآنك . فلماذا لا ينزل بنا هذا العذاب ؟ هنا القرآن يتحدث عن السرعة التاريخية التي تختلف عن السرعة الاعتيادية فيقول ﴿ وَيستَعجِلونَكَ بالعَذَابِ وَلَن يُخلِفَ اللهُ وَعدَهَ . . ﴾

لأنها سنة ، والسنة التاريخية ثابتة ، لكن . . ﴿ وَإنَّ يوماً عِندَ رَبِّكَ كأَلفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ . . ﴾

فاليوم الواحد في سنن التاريخ عند ربك . ولأن سنن التاريخ هي كلمات الله ـ كما قرأنا فيما سبق ـ إذن في كلمات الله وفي سننه يعادل اليوم الواحد وهو المرسلة القصيرة ألف سنة . طبعاً في آية أخرى عبر بخمسين ألف سنة .

---

(١١٥) سورة الحج ٢٢ : ٤٧ .

لكننا يجب أن نعرف بأنه قد أريد بذلك أيام القيامة لا أيام الدنيا ، وهذا هو وجه الجمع بين الآيتين والكلمتين . ففي آية أخرى قيل ﴿ **تعرُجُ الملائِكَةُ وَالرُّوحَإليه ، في يَوم ٍ كانَ مِقدارُهُ خَمسينَ ألفَ سَنَةٍ ، فاصبرْ صَبراً جَميلًا * إنهُمْ يَرَونَهُ بَعيداً * وَنَراهُ قَرِيباً * يومَ تكُونُ السَّماءُ كالمُهل** ﴾ [116] .

هذا ناظر إلى يوم القيامة ، إلى يوم تكون السماء كالمهل ، فيوم القيامة قدر بخمسين ألف سنة ، أما هنا [117] فيتكلم عن يوم توقيت نزول العذاب الجماعي وفقاً لسنن التاريخ حيث يقول ﴿ **وَإنَ يَوماً عِندَ رَبِّكَ كَألفِ سَنةٍ مما تعَدون** ﴾ .

هذا هو الشكل الثالث من أشكال السنن التاريخية ، وهو عبارة عن وجود اتجاهات موضوعية في مسار التاريخ ، وفي حركة الإنسان وفي تركيبه وهذه يمكن أن تُتحدى على الشوط القصير ، ولكن سنن التاريخ لا تقبل التحدي على الشوط الطويل . إلا أن الشوط القصير والطويل هنا ليس بحسب طموحاتنا . وبحسب حياتنا الاعتيادية يوم أو يومين ، لأن اليوم الواحد في كلمات الله وفي سنن الله كألف سنة مما نحسب .

لقد كان الدين هو المثال الرئيسي للشكل الثالث . ونحن من أجل أن نعرف : كيف أن الدين هو سنة من سنن التاريخ ؟ وما هو دوره . . ؟ وما هو موقعه ؟ ولماذا لم يكن مجرد تشريع فحسب بل كان سنة من سنن التاريخ . أي أنه حاجة أساسية موضوعية حاله حال قانون الزوجية بين الذكر والأنثى وهو سنة موضوعية ؟ وأيضاً كيف صار هكذا . . ؟ وما هو دوره كسنة تاريخية من سنن التاريخ . . ؟

لكي نعرف ذلك . يجب أن نأخذ المجتمع ونحلل عناصره في ضوء القرآن الكريم لنصل إلى مغزى قولنا إن الدين سنة من سنن التاريخ .

---

(١١٦) سورة المعارج ٧٠ : ٤ ـ ٨ .

(١١٧) أي في آية استعجال العذاب الذي سبق ذكرها .

أمـا كيف سنحلل عنـاصر المجتمـع ؟ فـإن ذلــك سيتم في ضـوء الآيــة الكـريمة : ـ ﴿ **وَإذ قـال رَبُّكَ للمـلائِكَةِ إنّي جـاعِلٌ في الأَرضِ خَلِيفَـةً ، قَالُـوا أَتَجعَلُ فِيها مَنْ يُفسِدُ فيها وَيَسفِكُ الدِمَاءَ وَنَحنُ نُسبِّحُ بحمـدِكَ وَنُقَدِّسُ لَـكَ . قال إنّي أَعلَمُ ما لا تَعلَمونَ** ﴾ (118) .

إننـا في ضوء هـذه الآيـة التي تعـطينـا أروع وأدق وأعمق صيغـة لتحليـل عناصر المجتمع . سوف ندرس هذه العناصر ونقارن فيما بينهـا لنعرف في النهـاية أن الدين سنة تاريخية وليس مجرد حكم شرعي قد يطاع وقد يعصى .

---

(118) سورة البقرة ٢ : ٣٠ .

الفصل الثالث

عناصر المجتمع في القرآن الكريم

قلنـا [1] إن القرآن الكـريم يقدم الـدين لا بوصفـه مجرد قـرار تشريعي ، وإنما يقدمه بوصفه سنة من سنن الحياة والتاريخ ومقوماً أساسيـاً لخلق الله ، ولن تجد لخلق الله تبديلاً ، ولكنها سنة من الشكل الثالث . فهي سنة تقبـل التحدي على الشوط القصير ولكن المتحدي يعاقب بسنن التاريـخ نفسها ، وقـد أشير إلى هذه الخاصية أيضاً بقوله : ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

هـذه العبارة التي ختمت بهـا الآية الكـريمة **﴿ فـأَقِم وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفـاً فِـطرَةَ اللهِ التَّي فَطَرَ النّـاسَ عَلَيها . لا تبـديلَ لِخَلقِ اللهِ ذَلِـكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أكثَر الناسِ لا يَعلَمونَ ﴾** [2] .

إن هذه الجملة الأخيرة أشارت إلى أن هذه السنة من الشكل الثـالث . أي أن بإمكان الناس أن يتخذوا مواقف سلبية واهمالية تجاه هذه السنة ، ولكنه إهمال على الشوط القصير لا على الشوط الطويل .

---

(١) من هنا تبتدىء المحاضرة الثامنة التي كانت قد ألقيت يـوم الأربعاء المـوافق فيه الحادي عشر من شهر جمادى الأولى عام ١٣٩٩ .

(٢) سورة الروم ٣٠ : ٣٠ .

وقد سبق أن قلنا بأن توضيح واقع هـذه السنة القـرآنية من سنن التـاريخ يتطلب منا أن نحلل عناصر المجتمع .

- فما هي عناصر المجتمع من زاوية نظر القرآن الكريم ؟
- وما هي مقومات المركب الاجتماعي ؟
- وكيف يتم التنفيذ بين هذه العناصر والمقومات ؟
- وضمن أي إطار ؟
- وأي سنن ؟ (٣)

إننا نجد الجواب عن هذه الأسئلة في النص القـرآني الشريف الـذي تحدث عن خلق الإنسان الأول ﴿ **وإذ قَالَ رَبُّكَ لِلملائِكَةِ إني جاعِلٌ في الأرضِ خَليفَةً قالوا أَتَجعَلُ فِيهاَ مَن يُفسِدُ فِيها وَيَسفِكُ الدِّماءَ ، وَنَحنَ نُسَبِّح بِحُمَـدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعَلمُ ما لا تَعلَمونَ** ﴾ (٤) .

---

(٣) يبدو أن هذه المواضيع كانت من جملة المواضيع التي كان من المقـرر أن يبحثها السيـد الشهيد في كتـابه : « مجتمعنـا » الذي كـان ينوي كتـابته منـذ أواخر الخمسينـات وذلك بعـد أن أنهىٰ كتاب « فلسفتنـا » وقبل أن يكتب كتـاب « اقتصادنـا » . وقد أشـار السيد الشهيـد ولأول مرة إلى هـذا الكتاب في أخر كتاب « فلسفتنا » وذلـك عند حـديثه عن تكيف الإنسـان مع البيئـة الاجتمـاعية بقوله : - سوف ندرس في (مجتمعنا) طبيعة هذا التكيّف وحدوده ، في ضوء مفاهيم الاسلام عن المجتمع والدولة ، لأنه من القضايا الرئيسية في دراسة المجتمع وتحليله * .
وكان من المقرر أن يتناول الكتاب : - أفكار الإسلام عن الإنسان وحياته الاجتماعية ، وطريقتـه في تحليل المركب الاجتماعي وتفسيره ، لننتهي من ذلـك إلى المرحلة الثـالثة ، إلى النـظم الإسلاميـة للحياة الاجتماعية وترتكز على صرحه العقائدي الثابت ** ولكنه - للأسف الشديد - أعرض عن كتابة الكتاب أو عن نشرة لأسباب غير واضحة بالضبط . إلا أنه من الملاحظ أن كتبه اللاحقة قد تـطرقت إلى جملة من مواضيـع هذا الكتـاب . وحققت فتحاً جـديداً للفكـر الإسلامي ، وفتحت أمامه أفاقاً جديدة وواسعة .
* انظر كتاب « فلسفتنا » للسيد الشهيد . دار التعارف للمطبوعات الطبعـة العاشـرة (بيروت ١٩٨٠) ص ٤٠٠ .
** انظر كتاب « اقتصادنا » للسيد الشهيد (رض) . دار التعـارف للمطبـوعات الـطبعة الثـالثة عشر ص ١ : ٢٧ .
(٤) سورة البقرة ٢ : ٣٠ .

حينما نستعرض هذه الآية الكريمة . نجد أن الله سبحانه وتعالى ينبىء الملائكة بأنه قرر إنشاء مجتمع على الأرض . فما هي العناصر التي يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية التي تتحدث عن هذه الحقيقة العظيمة .

ما هي عناصر المجتمع ؟ .

هناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية : ـ

أولاً : الإنسان .

ثانياً : الأرض أو الطبيعة على وجه عام : ـ ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾فهنا أرض أو طبيعة على وجه العام ، وهناك الإنسان الذي يجعله الله سبحانه وتعالى على الأرض .

ثالثاً : ـ العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالأرض وبالطبيعة من ناحية ، وتربط من ناحية أخرىٰ الإنسان بأخيه الإنسان . إن هذه العلاقة المعنوية يسمّيها القرآن الكريم : الاستخلاف .

هذه هي عناصر المجتمع : ـ الإنسان والطبيعة والعلاقة المعنوية التي تربط الإنسان من ناحية ، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان من ناحية أخرى . وهي العلاقة التي سميت : الاستخلاف .

ونحن حينما نلاحظ المجتمعات البشرية نجد أن المجتمعات البشرية جميعاً تشترك بالعنصر الأول ، والعنصر الثاني . فلا يوجد مجتمع بدون إنسان يعيش مع أخيه الإنسان . كما أنه لا يوجد مجتمع بدون أرض أو طبيعة يمارس الإنسان عليها دوره الاجتماعي . وفي هذين العنصرين تتفق جميع المجتمعات التاريخية والبشرية .

وأما العنصر الثالث : وهو عنصر العلاقة ، ففي كل مجتمع علاقة كما ذكرنا . ولكن المجتمعات تختلف في طبيعة هذه العلاقة ، وفي كيفية صياغة هذه الطبيعة [٥] .

---

(٥) إذ إن جميع المبادىء والنظم الفكرية تقر بأن أي مجتمع لا يمكن تكونه إلا من خلال وجود بقعة أرض يسكنها مجموعة من البشر . غير أن هذه النظم والمبادىء تفترق وتتمايز فيما بينها في كيفية =

فالعنصر الثالث هو العنصر المرن والمتحرك من عناصر المجتمع ، وكل مجتمع يبني هذه العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان من جانب وبالطبيعة بالجانب الآخر بشكل قد يتفق ، وقد يختلف مع طريقة بناء المجتمع الآخر لهذه العلاقة .

وهذه العلاقة التي هي العنصر الثالث أو العنصر المرن والمتحرك في تركيب المجتمع لها صيغتان أساسيتان : ـ إحداهما : صيغة رباعية وقد أطلق عليها اسم الصيغة الرباعية والأخرى صيغة ثلاثية .

علاقات الاستخلاف

إن الصيغة الرباعية هي الصيغة التي ترتبط بموجبها الطبيعة والإنسان مع الإنسان . هذه الأطراف الثلاثة إذا ما اتخذت العلاقة بينها صيغة ترتبط هذه الأطراف بموجبها مع طرف رابع . ففي مثل هذه الحالة نسمي هذه الصيغة بالصيغة الرباعية .

إن الصيغة الرباعية تربط بين هذه الأطراف الثلاثة ولكنها تفترض طرفاً

تقنين العلاقة ما بين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة ، وما بين الإنسان والطبيعة من جهة أخرى .

فمنها من يضفي عليها طابع التسلط والقوة المنعكس من إيمانه بمبدأ البقاء للأقوى . ومن ثم يجعل هذه العلاقات تنظم على أساس شريعة الغاب .

ومنها من يسبغ على هذه العلاقة طابع الاستغلال والجشع المبني على أساس مذهب المنفعة . وبالتالي لتأتي هذه العلاقات وهي مصاغة بصيغ متعددة من التنافس والتناحر الذي يعكسه تناقض المنافع بين إنسان وآخر .

ومنها من يسبغ عليها طابع الإنتاج فيحول الإنسان إلى آلة ميكانيكية الهدف منها درّ الطبيعة التي يعتبرها بقرة حلوب ، ومن دون أن يصيخ سمعاً إلى عواطف الإنسان وأشواقه . ومن ثم ليحول هذه الإنسان إلى ألة تسمع وتطيع ليس إلا .

وهناك مذاهب وآراء أخرى غير أن الموقف الإسلامي يختلف عن ذلك كلياً . فهو يرى أن الإنسان خليط من مجموعة متناقضة من الغرائز والمشاعر ومن الخطأ بمكان أن يقتطع جزءاً منه وتقام الحياة البشرية في ضوئه . وإنما يأخذه ككل وبجميع أجزائه . كما أنه يلحظ هذا الإنسان باعتبار موقعه الكوني . وفي ضوء ذلك تمت صياغة موقفه على أساس نظرية الخلافة وعلاقات الاستخلاف التي يتطرق اليها المصنف ـ رض ـ

وبعداً رابعاً للعلاقة الاجتماعية . على أن هذا الطرف ليس داخلاً في إطار المجتمع ، بل هو خارج عن هذا الإطار . غير أن هذه الصيغة للعلاقة الاجتماعية تعتبر هذا الطرف مقوماً من المقومات الأساسية للعلاقة الاجتماعية بالرغم من أنه خارج إطار المجتمع . وهذه الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية ذات الأبعاد الأربعة هي التي طرحها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف .

إن الاستخلاف . عند التحليل ـ ذو أربعة أطراف لأن الاستخلاف يفترض مستخلفاً أيضاً . فلا بد من مستخلف ومستخلَفٍ عليه ، ومستخلَف . فهناك إضافة إلى الإنسان وأخيه الإنسان والطبيعة ، يوجد طرف رابع في طبيعة وتكوين علاقة الاستخلاف ، وهو المستخلِف . إذ لا استخلاف بدون مستخلِف فالمستخلِف هو الله سبحانه وتعالى ، والمستخلَف هو الإنسان وأخوه الإنسان ، وبكلمة أخرى الإنسانية ككل أو الجماعة البشرية . والمستخلف عليه هو الأرض وما عليها ومن عليها .

إذن فالعلاقة الاجتماعية ضمن صيغة الاستخلاف تكون ذات أطراف أربعة ، وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظر معينة نحو الحياة والكون هي التي تقول بأنه لا سيد ولا مالك ولا إله للكون وللحياة إلا الله سبحانه وتعالىٰ . وأن دور الإنسان في ممارسة حياته إنما هو دور الاستخلاف والاستئمان ، وأن أي علاقة تنشأ بين الإنسان والطبيعة هي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك وإنما هي علاقة أمين على أمانة استؤمن عليها (٦) .

---

(٦) إن من البديهي استفحال الصراع بين البشر وبالتالي ديمومة إفراز الكيان الاجتماعي لصور مختلفة من التناقضات والصراعات الاجتماعية طالما يصور للإنسان أن علاقته مع الطبيعة ليست علاقة أمين مع أمانة اؤتمن عليها . فبغير ذلك تبقىٰ إمكانية نزوع هذا الإنسان للصراع قائمة سواء قيل له بأن العلاقة هي علاقة من امتلك أولاً أو هي علاقة من تسيّد أولاً أو . . إلخ . وذلك لأنه لا يجد في هذه التفسيرات ما من شأنه أن يجعله يغض النظر عن حالة التفاوت بين الشرائح الاجتماعية المختلفة . كما أن هذه الحالة سوف تبقى تثري مشاعره باتجاه تفجير التناقض تلو التناقض في المجتمع . خصوصاً وأن هذه التفسيرات بطبيعتها لا تقدم له صياغة أخلاقية للعلاقة مع الطبيعة وبالتالي علاقته مع سائر أفراد المجتمع . وإنما تعزز فيه السعي لتقوية نفسه بأي شكل من الأشكال . وهو الأمر الذي يجعله يتوسل كل ما من شأنه أن يوفر له سيطرة أكبر =

إن أي علاقة تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان ، مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذاك . هي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الانسان أو ذاك مؤدياً لواجبه بهذه الخلافة ، وليست علاقة سيادة أو ألوهيه أو مالكية . وهذه الصيغة الاجتماعية الرباعية الأطراف التي صاغها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف ترتبط بوجهة النظر المعينة للحياة والكون . وفي مقابل هذه العلاقة توجد للعلاقة الاجتماعية صيغة ثلاثية الأطراف هي التي تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان والطبيعة ولكنها تقطع صلة هذه الأطراف مع الطرف الرابع ، وتجرد تركيب العلاقة الاجتماعية عن الله سبحانه وتعالى . وبهذا تتحول نظرة كل جزء إلى الجزء الآخر داخل هذا التركيب ، وداخل هذه الصيغة وجدت الألوان المختلفة للملكية ولسيادة الإنسان على أخيه الإنسان بأشكالها المختلفة التي استعرضها التاريخ بعد أن عطل البعد الرابع وبعد أن افترض البداية هي الإنسان .

ومن خلال التدقيق في المقارنة بين الصيغتين ، (الرباعية والثلاثية) يتضح أن إضافة الطرف الرابع للصيغة الرباعية ليس مجرد إضافة عددية وليس مجرد طرف جديد يضاف إلى الأطراف الأخرىٰ . بل إن هذه الإضافة تحدث تغييراً نوعياً في بنية العلاقة الاجتماعية ، وفي تركيب الأطراف الثلاثة الأخرىٰ نفسها . ومن هنا فإن هذه الإضافة ليست مجرد عملية جمع ثلاثة + واحد، وإنما هذا الواحد الذي يضاف إلى الثلاثة سوف يعطي للثلاثة روحاً أخرىٰ ومفهوماً آخر . وسوف يحدث تغييراً أساسياً في بنية هذه العلاقة ذات الأطراف الأربعة - كما رأينا - إذ يعود الإنسان مع أخيه الإنسان مجرد شركاء في حمل هذه الأمانة والاستخلاف ، وتعود الطبيعة بكل ما فيها من ثروات وبكل ما عليها ومن عليها مجرد أمانه لابد من رعاية واجبها وأداء حقها .

= على هذه الطبيعة . حتىٰ وإن كان ذلك يتم على حساب الملايين .

ولكن صياغة هذه العلاقة على شكل أمين مع أمانة أؤتمن عليها مع شركاء له في حمل هذه الأمانة يوفر الأساس السليم الأول الذي من شأنه أن يساعد المجتمع في تحجيم تناقضاته وبالتالي تصفيتها . خصوصاً وأن هذه الصياغة تقوم وتفرز أيضاً بعداً أخلاقياً لا يقيم المجتمع على أساس الاستغلال والتسيُّد وإنما يقيمه على أساس التعاون والتعاضد على حمل هذه المسؤولية .

ان الطرف الرابع هو في الحقيقة مغير نوعي لتركيب العلاقة . وحينما تكون أمامنا صيغتان للعلاقة الاجتماعية فإن القرآن الكريم آمن بالصيغة الرباعية كما رأينا في الآية الكريمة . حيث وجدنا أن الاستخلاف هو الصيغة المطروحة قرآنياً للعلاقة الاجتماعية . والقرآن الكريم لم يؤمن بهذه الصيغة فحسب ، وإنما اعتبرها سنة من سنن التاريخ أيضاً . فكما رأينا في الآية السابقة كيف اعتبر الدين سنة من سنن التاريخ فإنه كذلك اعتبر هذه الصيغة التي هي صيغة الدين في الحياة سنة من سنن التاريخ .

أما كيف . . ؟

الاستخلاف سنة تاريخية

إن هذه الصيغة الرباعية عرفها القرآن الكريم على نحوين : ـ

ـ فتارة عرضها بوصفها فاعلية ربانية من زاوية دور الله سبحانه وتعالى في العطاء وهذا هو العرض الذي قرأناه ﴿ **إني جاعل في الارض خليفة** ﴾ فهذه العلاقة الرباعية معروضة في هذا النص الشريف باعتبارها عطاءاً من الله وجعلاً منه ، وهذا العطاء يمثل الدور الإيجابي والتكريمي من رب العالمين للإنسان .

ـ وتارة أخرىٰ تم عرض الصيغة الرباعية نفسها من زاوية أخرىٰ فقد تم عرضها بوصفها ، وبنحو ارتباطها مع الإنسان بما هي أمر يتقبله الإنسان . أي عرضها من زاوية تقبل الإنسان لهذه الخلافة ، وذلك يتجلىٰ في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **إنّا عَرَضنا الأمانَةَ على السَمَواتِ والأرضِ والجبالِ فَأَبَينَ أن يَحملِنَها ، وَأَشفقنَ مِنها ، وَحَمَلَهَا الإنسانُ إنَّهُ كانَ ظَلوُماً جَهُولاً** ﴾ (٧) .

الأمانة هي الوجه التقبلي للخلافة ، والخلافة هي الوجه الفاعلي والعطائي للأمانة . والأمانة والخلافة عبارة عن الاستخلاف والاستئمان وتحمل الأعباء وهي الصيغة الرباعية .

فهذه الصيغة تارة نلحظها من زاوية ربطها بالفاعل وهو الله سبحانه

(٧) سورة الأحزاب ٣٣ : ٧٢ .

وتعالى ، حيث يأتي قوله تعالى : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة . . .** ﴾ .

وأخرىٰ نلحظها من زاوية القابل ـ كما يقول الفلاسفة ـ أي من ناحية دور الإنسان في تقبل هذه الخلافة ، وتحمل هذه الأمانة حيث يأتي قول سبحانه وتعالى : ـ ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال . .** ﴾ .

هذه الأمانة التي تقبلها الإنسان ، وتحملها . عرضت على الإنسان ، فتقبلها كما جاء في هذه الآية الكريمة نفسها .لم تعرض عليه في هذه الآية بوصفها تكليفاً أو طلباً . إذ ليس المقصود من عرضها على الإنسان العرض على مستوىٰ التكليف والطلب [٨] ، وليس المقصود من تقبل الأمانة تقبل هذه الخلافة على مستوىٰ الامتثال والطاعة . كما أنه ليس المقصود أن يكون العرض هكذا . وأن يكون التقبل هكذا . وذلك بقرينة أن هذا العرض كان معروضاً على السموات والأرض والجبال أيضاً . ومن الواضح أنه لا معنىٰ لتكليف السموات والجبال والأرض . ونعرف من ذلك أن هذا العرض هو عرض تكويني وليس عرضاً تشريعياً .

إن معنىٰ هذا العرض أن العطية الربانية كانت تفتش عن الموضع القابل

---

(٨) حيث لم يكن هناك مشهد أو حوار بين البارىء عز وجل وبين مخلوقاته الأربعة المستعرضة في هذه الآية (الإنسان ، والأرض ، والسمٰوات والجبال) بشكل يكون معه استفسار إلهي من هذه المخلوقات عن أي منها يقبل تحمل هذه الأمانة ، فترفضها السموات والأرض والجبال فيما نجد الإنسان يقابل هذا الاستفسار بالإيجاب . ومع لحاظ أن هذا العرض قد تم بعد تشخص المواصفات التكوينية لكل مفردة من هذه المفردات ولوضوح الاختلاف التكويني بين هذه المخلوقات . لذا فإن العرض في وجهيه المتمثلين بإباء تلك المخلوقات وإشفاقهن من تحمل الأمانة ، وكذلك قبول الإنسان لهذه الأمانة . إن هذا العرض كان متوجهاً إلى الجوانب التكوينية لهذه المخلوقات مما يعني أنه كان أمراً تكوينياً . أي أنه لم يتم بناء على أمر وتشريع فكان الرد عليه بالإيجاب أو السلب . وإنما حصل ذلك بناء على كون الطبيعة التكوينية لتلك المخلوقات لم تتحمل أمانة من هذا القبيل . فيما كانت مواصفات الإنسان التكوينية قد مكنته تكوينياً من قبول هذه الأمانة لأنه وفر شرطيها الأساسيين (الحرية والعقل) حيث إن عرض الأمانة يفترض في المقابل امتلاكه للحرية في التصرف بإرادته . وبغير ذلك فلا معنىٰ لتوجيه هذا العرض . كما أنه يفترض أن يكون المقابل عاقلاً حتىٰ يتمكن من اتخاذ موقف إزاء هذه الأمانة . وبغير العقل فلا معنىٰ أيضاً لتحميل هذه الأمانة .

لها في الطبيعة ، والموضع المنسجم معها بطبيعته وبفطرته وبتركيبه التاريخي والكوني فالجبال إذن لا تنسجم مع هذه الخلافة ، والسموات والأرض أيضاً لا تنسجم مع هذه العلاقة الاجتماعية الرباعية . أما الإنسان فهو الكائن الوحيد الذي كان منسجماً مع هذه العلاقة الاجتماعية ذات الأطراف الأربعة التي بها تصبح أمانة وتصبح خلافة . وذلك بحكم تركيبه وبحكم بنيته وبحكم فطرة الله التي قرأناها في الآية السابقة .

إذن العرض هنا هو عرض تكويني ، والقبول هنا قبول تكويني ، وهو معنىً سنة التاريخ . مما يعني أن هذه العلاقة الاجتماعية ذات الأطراف الأربعة داخلة في تكوين الإنسان وفي تركيب مسار الإنسان الطبيعي والتاريخي .

الاستخلاف سنة تقبل التحدي القصير

نلاحظ في هذه الآية الكريمة أنه قد تمت الإشارة إلى هوية هذه السنة التاريخية وأنها سنة من الشكل الثالث . أي سنة تقبل التحدي وتقبل العصيان . فهي ليست من تلك السنن التي لا تقبل التحدي أبداً ولو للحظة ، لا . . فهي سنة وهي فطرة ، ولكن هذه الفطرة تقبل التحدي . أما كيف أشار القرآن الكريم إلى ذلك ؟ فإنه بعد أن أوضح أنها سنة من سنن التاريخ قال ﴿ **وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً** . . ﴾ .

هذه العبارة الأخيرة ﴿ **إنه كان ظلوماً جهولاً** . . ﴾ .

تأكيد على طابع هذه السنة ، وأن هذه السنة على الرغم من أنها سنة من سنن التاريخ ، ولكنها تقبل التحدي . وتقبل أن يقف الإنسان منها موقفاً سلبياً . وهنا التعبير يوازي تعبير ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** . . ﴾ .

في الآية السابقة .

إننا استخلصنا من الآية السابقة أن الدين سنة من سنن الحياة ومن سنن التاريخ ومن هذه الآية نستخلص أن صيغة الدين للحياة هي العلاقة الاجتماعية ذات الأطراف الأربعة التي يسميها القرآن : الخلافة والأمانة

والاستخلاف . وهذه العلاقة الاجتماعية هي أيضاً بدورها سنة من سنن التاريخ بحسب مفهوم القرآن الكريم .

والحقيقة أن الآية الأولى والآية الثانية متطابقتان تماماً في مفادهما لأنه قال في الآية السابقة ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . .** ﴾ [٩] .

فهنا التعبير بالدين القيم تأكيد على أن ما هو الفطرة وما هو داخل في تكوين الإنسان وتركيبه وفي مسار تاريخه هو الدين القيم ، بمعنىٰ أن يكون هذا الدين قيماً على الحياة وأن يكون مهيمناً عليها . وهذه القيمومة في الدين هي التعبير المجمل في تلك الآية عن العلاقة الاجتماعية الرباعية التي طرحت في الآيتين : - ﴿ **إني جاعل في الارض خليفة . .** ﴾ .

﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض . .** ﴾

اذن فالدين سنة الحياة والتاريخ ، وهو الدين القيم الذي يمثل العلاقة الاجتماعية الرباعية الأطراف التي يدخل فيها الله بعداً رابعاً . لكي يحدث تغييراً في بنية هذه العلاقة لا لكي تكون مجرد إضافة عددية .

هذه مفاهيم القرآن الكريم مستخلصة من هذه الآيات عن هذه السنة . أما ما نريده فهو أن نتعرف بصورة أوضح وأوسع عن هذه السنة ، وعن دور الدين ، دور الدين القيم ودور الخلافة والأمانة ، دور العلاقة الاجتماعية ذات الأطراف الأربعة ، وعن دور الطرف الرابع كسنة من سنن التاريخ . وعن هوية هذا الطرف الرابع كسنة من سنن التاريخ . وكيف كان سنة من سنن التاريخ ؟ ، وكيف كان مقوماً أساسياً لمسار الإنسان على الساحة التاريخية ؟ .

لكي نتعرف على ذلك كله لابد من أن نتعرف على الركنين الثابتين في العلاقة الاجتماعية . حيث سبق أن قلنا إن هناك ركنين ثابتين في العلاقة الاجتماعية أحدهما الإنسان وأخوه الإنسان . والآخر الطبيعة . الكون أو

---

(٩) سورة الروم ٣٠ : ٣٠ .

الأرض وهذان الركنان داخلان في الصيغة الثلاثية كما أنهما داخلان في الصيغة الرباعية . ومن هنا نسميهما : الركنين الثابتين في العلاقة الاجتماعية . ولهذا فنحن من أجل أن نعرف دور الركن الجديد وهو الطرف الرابع أي دور الله سبحانه وتعالى في تركيب العلاقة الاجتماعية . يجب أن نعرف مقدمة لذلك دور الركنين الثابتين .

فما هو دور الإنسان في عملية التاريخ من زاوية النظرة القرآنية ومن زاوية النظرة للقرآن والفهم الرباني من القرآن للتاريخ وسنن الحياة . . ؟

ـ وما هو دور الإنسان في العلاقة الاجتماعية ؟

ـ وما هو دور الطبيعة في العلاقة الاجتماعية . في ضوء تشخيص هذين الدورين وتحديد الموقفين ؟ .

وسوف يتضح ـ حينئذ ـ دور هذا الطرف الجديد ، دور الطرف الرابع الذي تتميز به الصيغة الرباعية عن الصيغة الثلاثية . وسوف يتضح أن هذا الطرف عنصر ضروري بحكم سنة التاريخ وتركيب خلقة الإنسان ، ولابد من أن يندمج مع الأطراف الأخرىٰ لتكوين علاقة اجتماعية رباعية الأطراف .

إذن ففهم هذه السنة التاريخية يتطلب منا أن نتحدث عن دور الإنسان والطبيعة في عملية التاريخ من زاوية نظر القرآن الكريم (١٠) .

دور الإنسان في الحركة التاريخية

قلنا فيما سبق أن اكتشاف الأبعاد الحقيقية لدور الدين في حركة التاريخ والمسيرة الاجتماعية للإنسان ، تتوقف على تحديد وتقييم دور العنصرين أو الركنين الثابتين في الصيغة ، وهما الإنسان والطبيعة . وقد آن الأوان لنتحدث عن ذلك .

فمن الواضح في ضوء المفاهيم التي قرأناها سابقاً أن الإنسان أو المحتوىٰ

---

(١٠) هنا انتهت المحاضرة الثامنة ، وتعقبها المحاضرة التاسعة التي ألقيت في يوم الثلاثاء الموافق فيه السابع عشر من جمادى الثانية عام ١٣٩٩ هـ .

الداخلي للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ ، وقد ذكرنا أن حركة التاريخ تتميز عن كل الحركات الأخرىٰ بأنها حركة غائية لا سببية فقط ، فهي ليست مشدودة إلى سببها وإلى ماضيها ، وإنما هي مشدودة إلى الغاية ، لأنها حركة هادفة لها علة غـائية متـطلعة إلى المستقبـل . فالمستقبـل هو المحـرك لأي نشاط من النشـاطات التـاريخية ، وهـو ـ أي المستقبل ـ معـدوم فعلاً ، وإنمـا يحرك من خـلال الوجـود الذهني الذي يتمثل فيه هذا المستقبل .

إن الوجود الذهني هو الحافز والمحرك والمدار لحركة التـاريخ [11] . وهـذا الوجود الذهني يجسد من ناحية جانباً فكرياً ، وهو الجانب الـذي يضم تصورات الهدف ، وأيضاً يمثل من جانب آخر الطاقة والإرادة التي تحفز الإنسان نحو هـذا الهدف ، وتنشطه للتحـرك نحو هـذا الهدف . وعليـه فإن هـذا الوجـود الذهني

---

(١١) يبين السيد الشهيد ـ رض ـ هنا أحد الفوارق الأساسية بين المذهب التاريخي في الإسلام ونـظيره في الماركسية . ففي الوقت الذي تعطي الماركسية للتاريخ لوناً ديالكتيكيـاً فتجعل حركته مـوقوفـة على صراع التناقضات ، وبالتالي تجبر نفسها عـلى القول بـأن حركـة التاريـخ هي حركـة مستقيمة وصـاعدة . أي أنها تـرىٰ أن المسيرة التـاريخية هي سـير دائم نحو الأمـام ولا يمكن أن يلحظ فيها تخلف أو تراجع . وهو الأمر الذي عرضها لانتقادات فادحة لوضوح أن المسيرة التاريخية قد حملت في طياتها دوماً وبشكل مشتت ومبعثر على المستوىٰ الزمني صور متعددة من التراجع الحضـاري بعد فترة ازدهار ورقي .

في هذا الوقت نجـد أن الإسلام عبـر تفسيره للحـركة التـاريخية يتجنب التحليـل السطحي لهـذه الحركة ويقدم صورة صادقة عن أسباب حركة التاريخ ويجعلها مرهونة بفكر وارادة الإنسان . فوفقـاً لهذا الفكر تأخذ هذه الحركة معيارها الجمالي تقدمـاً وتقهقراً . لأن هـدف المسيرة البشـرية مـا دام غير منظـور بالنسبة لها وإنما هي تسير باتجاهه بناءاً على بعض التخيلات والتصورات الذهنيـة عنه فـإن الفكر ومستوىٰ مكانته بإمكانه وحده أن يرشد الإنسانية نحو هدفها المنشود ووفقاً لعمق أصالة هذا الفكر يمكن أن تتقدم البشرية ولكنها قد تجـد نفسها في غمـرة السكون أو المـراوحة إذا مـا انتهت مفعولية وديناميكية هذا الفكر وبالتالي سيجعلها قبالة حالة التردي والتقهقر الحضاري ما لم تسعف بفكر جديد له ديناميكية فاعلة .

إن ما نلحظه من فشل جميع التفسيرات الخاصة بحركة التاريخ سواء تلك التي قالت بشرطيتهـا كما عند ليبنـز Leibniz أو دائريتها كما هي الحال لدى توينبي Toynbee أو كونها مستقيمة كما هو الأمر لدىٰ كومت A. Comt ونظرائه أو مستقيمة صاعدة كما يراه ماركس وتلامذته إن هذا الفشل كله يعـود إلى أنهم أهملوا الفكر ومن يلونه باللون الايديولوجي ـ الـذي يلعب دوماً دور العنصر الحاسم في هذه الحركة .

الذي يجسد المستقبل المحرك . وهو يعبر بجانب منه عن الفكر ، وفي جانب آخر منه عن الإرادة ، وبالامتزاج بين الفكـر والإرادة تتحقق فاعلية المستقبل ،ومحركيته للنشاط التاريخي على الساحة الاجتماعية .

المحتوى الداخلي للإنسان والتغيير الاجتماعي

إن هـذين الأمرين (الفكـر والإرادة) هما في الحقيقـة المحتـوىٰ الـداخـلي الشعـوري للإنســان . إذن المحتوىٰ الـداخلي لـلإنسان هـو الـذي يصنـع هـذه الغايات ، ويجسد هذه الأهداف من خلال مزجه بين فكرة ما وإرادة معينة .

وبهـذا صح القـول بأن المحتـوىٰ الداخـلي لـلإنســان هـو أسـاس حـركـة التاريخ . وأن البناء العلوي الاجتماعي بكل ما يضم من عـلاقات ومن أنـظمة ومن أفكـار وتفاصيـل ، هذا البنـاء العلوي في الحقيقة مـرتبط بهذه القـاعـدة ، ويكون تغيره وتطوره تابعاً لتغير هذه القاعدة وتطورها ، فإذا تغـير الأساس تغـير البناء العلوي ، وإذا بقي الأساس ثابتاً ، بقي البناء العلوي ثابتاً .

فـالعلاقـة بين المحتـوى الداخـلي لـلإنسـان ، والبنـاء الفـوقي والتـاريخي للمجتمع هي علاقة تبعية ، وعلاقة سبب بسبب . وهذه العلاقة التي تمثل سنـة تاريخية قد تقدم الكـلام عنها في قـوله سبحـانه وتعـالى ﴿ **إن الله لا يغير مـا بقوم حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم** ﴾ [١٢] .

فهذه الآية واضحة جداً في المفهوم الذي أعطيناه وهو أن المحتوىٰ الداخلي للإنسان : هو القاعـدة والأساس للبنـاء العلوي ، وللحركـة التاريخيـة لأن الآية الكريمة تتحـدث عن تغييرين : أحـدهما تغيـير أوضاع شُؤون القـوم وظواهـرهم والأبنية العلوية لهم . فهذه الأمور لا تتغير حتىٰ يتغير مـا بأنفسهم . إذن التغيـير الأساس هو تغير ما بنفس القوم ، والتغير التابع المترتب على ذلك هو تغير حالـة القوم النوعيـة والتاريخيـة والاجتماعيـة . ومن الواضـح أن المقصود من تغيـير ما بـالأنفس ، تغيير مـا بأنفس القـوم بحيث يكون المحتـوىٰ الداخـلي للقوم كقـوم وكـأمة وكشجـرة مباركـة تؤتي أكلها كـل حين ، متغيـراً . وإلا فإن تغـير الفـرد

(١٢) سورة الرعد ١٣ : ١١ .

الواحد ، أو الفردين ، أو الأفراد الثلاثة لا يشكل الأساس لتغير ما بالقوم ، وإنما يكون تغير ما بالقوم تابعاً لتغير ما بأنفسهم كقوم ، وكأمة ، وكشجرة مباركة تؤتي أكلها كل حين .

فالمحتوىٰ النفسي والداخلي للأمة كأمة (لا لهذا الفرد أو لذاك) هو الذي يعتبر أساساً وقاعدة للتغيرات في البناء العلوي للحركة التاريخية كلها .

إن الإسلام والقرآن الكريم يؤمن بأن العمليتين يجب أن تسيرا جنباً إلى جنب حيث إن عملية صنع الإنسان محتواه الداخلي وبناء الإنسان نفسه وفكره وإرادته وطموحاته أو بعبارة أخرىٰ هذا البناء الداخلي يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع البناء الخارجي ، ومع بناء الأبنية العلوية ، ولا يمكن أن يفترض انفكاك البناء الخارجي عن البناء الداخلي إلا إذا بقي البناء الخارجي بناءاً مهزوزاً متداعياً .

ولهذا سمىٰ الإسلام عملية بناء المحتوىٰ الداخلي إذا اتجهت اتجاهاً صالحاً « بالجهاد الأكبر » وسمىٰ عملية البناء الخارجي إذا اتجهت اتجاهاً صالحاً بعملية « الجهاد الأصغر » (١٣) وربط الجهاد الأصغر بالجهاد الأكبر معتبراً أن الجهاد الأصغر إذا فصل عن الجهاد الأكبر فقد محتواه ، وفقد مضمونه ، وفقد قدرته على التغيير الحقيقي على الساحة التاريخية والاجتماعية .

فهاتان العمليتان يجب أن تسيرا جنباً إلى جنب . وإذا انفكت إحداهما عن الأخرىٰ فقدت حقيقتها ومحتواها ، وقد سمي الإسلام العملية الأولى ، أي عملية بناء المحتوىٰ الداخلي بالجهاد الأكبر تأكيداً على الصفة الأساسية للمحتوىٰ الداخلي ، وتوضيحاً لهذه الحقيقة . حقيقة أن المحتوىٰ الداخلي للإنسان هو الأساس .

---

(١٣) إشارة إلى حديث امير المؤمنين ع أنه قال : إن رسول الله (ص) بعث سرية فلما رجعوا قال : مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر ، وبقي عليهم الجهاد الأكبر ، قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ . فقال : جهاد النفس .

وقال أمير المؤمنين : إن أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه .

أنظر وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة للحر العاملي دار إحياء التراث العربي (بيروت) ١١ : ١٢٤ .

أما إذا بقي الجهاد الأصغر منفصلاً عن الجهاد الأكبر حينئذ لا يحقق ذلك في الحقيقة أي مضمون تغييري صالح (١٤) . .

---

(١٤) هنا يشير السيد الشهيد الصدر (رض) إلى موقفه إزاء العمل الإسلامي في وسط موقفين مختلفين تتبناهما خطوط سياسية إسلامية أخرى . حيث يتبنى الموقف الأول تقسيم العمل الإسلامي إلى مراحل أساسية ينفصل فيها الجهاد الأصغر عن الجهاد الأكبر . معتبرين أن الأولوية يجب أن تمنح للجهاد الأكبر بشكليه الفردي والاجتماعي فيكتفون بالعمل على تصعيد الجانب التربوي والثقافي في المجتمع مع إهمال أي مفردة من المفردات التي لها مساس في الجهاد الأصغر وذلك لاعتقاد مفاده أن تصعيد الجانب التربوي والثقافي من شأنه أن يتيح للإسلام فرصة استلام الحكم بطريقة طبيعية حيث سيكون المجتمع الذي تربى إسلامياً متناقضاً مع شكل الحكم القائم ، فيما يغدو نظام الحكم القائم مجرداً من القاعدة الشعبية التي تمكنه من الاستمرار . وبالتالي وقوعه بيد الإسلاميين . وعادة ما يعتمد هذا الاتجاه من العمل الإسلامي على النخبة الاجتماعية المثقفة .

ومن الواضح أن هذا النمط من التفكير ـ ضمن الظروف السياسية المعاصرة ـ ما هو إلا إغراق في الخيال ، وسذاجة في التعامل مع الكيانات المضادة للإسلام لأنه يغفل أو يتغافل عن عنصر الإجراء المضاد أو لا يعطيه دوراً حقيقياً في إمكانية تعطيل العمل وشلّه . بينما تشير التجارب الإسلامية المعاصرة إلى إمكانية أن يلعب القمع والإرهاب دوراً مهماً في عزل النخبة الإسلامية أو تحجيم دورها الاجتماعي . وبالتالي فإن هذا العنصر يمثل إمكانية قائمة دائماً لنسف مثل هذا النمط من العمل . أو على الأقل للحد من تأثيراته . على أن هذا النمط من العمل صحيح في البلدان التي تعيش أنظمة تؤمن بشكل واقعي بالحرية الفكرية والسياسية . وهو أمر لا وجود له في واقعنا المعاصر .

وإضافة إلى ذلك فإن هذا النمط لا يعير إلى عنصر الزمن أهمية تذكر وهو أمر من شأنه أن يجعل الأعداء متفوقين بقدرتهم على الامساك بزمام المبادرة لأنهم دوماً يمتلكون الإمكانيات والقدرات الأفضل . في وقت يعاني التحرك الإسلامي بكل أشكاله من ضعف شامل في ذلك .

وعلى خلاف هذا الاتجاه ، يوجد اتجاه آخر وهو من دعاة الانفصال بين الجهادين . غير أنه يعكس المعادلة ، فيعطي الأولوية للجهاد الأصغر في وقت يقلل من أهمية الجهاد الأكبر . وقد يتوسل هذا الاتجاه بأساليب عمل لا تتمثل فيها المواقف الشرعية الإسلامية . وأصحاب هذا الاتجاه يرتكزون في سعيهم هذا إلى ما ينعكس من رؤية سياسية من حديث الرسول (ص) : ـ إن الله ليزع في السلطان ما لا يزع في الأديان . ولهذا فهؤلاء يرون بأن توظيف الجهود من أجل السير في عملية الجهاد الأكبر هو تضييع للوقت وتفويت للفرص . بينما توظيف هذه الجهود جميعاً من أجل انجاز مهام الجهاد الأصغر سيوفر هذا الوقت الذي قد يمكن الإسلاميين من إنشاء الدولة الإسلامية . وحينذاك تبدأ عملية الجهاد الأكبر بصورة دقيقة .

=

القرآن يعارض انفصال الجهادين الأصغر والأكبر

ولنلحظ القرآن الكريم وهو يعرض لحالة من حالات انفصال عملية البناء الخارجي عن عملية البناء الداخلي فقد قال سبحانه وتعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعجبُكَ قولُهُ فِي الحياةِ الدُّنيا وَيُشهِدُ اللهَ على ما في قلبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ * وَإذا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ في الأرضِ ليفسِدَ فِيها وَيُهلِكَ الحَرثَ والنَّسلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ (١٥) .

فهنا يريد القرآن أن يقول بأن الإنسان إذا لم ينفذ بعملية التغيير إلى قلبه وإلى أعماق روحه . وإذا لم يبن نفسه بناء صالحاً لا يمكنه أبداً أن يطرح الكلمات الصالحة . فالكلمات الصالحة إنما يمكن أن تتحول إلى بناء صالح في المجتمع إذا ما نبعت عن قلب يعمر بتلك القيم التي تدل عليها تلك الكلمات . وإلا فتبقىٰ الكلمات مجرد ألفاظ جوفاء دون أن يكون لها مضمون ومحتوىٰ .

فمسألة القلب هي التي تعطي للكلمات معناها ، وللشعارات أبعادها ولعملية البناء الخارجي أهدافها ومسارها .

أساس المحتوىٰ الداخلي للإنسان

إلى هنا عرفنا أن الأساس في حركة التاريخ هو المحتوىٰ الداخلي للإنسان وهذا المحتوىٰ الداخلي هو الذي يشكل القاعدة . ولكن : ـ

ما هو الأساس في هذا المحتوىٰ الداخلي نفسه ؟ .

= ولكن هؤلاء يغفلون أن هذا الأمر مدعاة لوضعهم في طريق الانحراف السياسي والعقائدي . وذلك لأن الالتزام العملي السلوكي والفكري بالإسلام من قبل الأفراد هو القاعدة الأساسية في عملية تغيير المجتمع . وأن أي قفز فوق هذه القاعدة . قد ينتج شيئاً ما . غير أن هذا الشيء لن يكون إسلاماً صادقاً وأصيلاً .

وما بين هذا الإفراط وذلك التفريط يحدد السيد الشهيد ـ رض ـ الموقف الإسلامي الأصيل الذي يجمع بين الجهادين ولا يفرق بينهما ولا يفضل أحدهما على الآخر .

(١٥) سورة البقرة ٢ : ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

وما هي نقطة البدء في بناء هذا المحتوىٰ الداخلي ؟

وما هو المحور الذي يستقطب عملية بناء المحتوىٰ الداخلي للإنسانية ؟

إن المحور الذي يستقطب عملية البناء الداخلي للإنسانية هو المثل الأعلى . فلقد عرفنا أن المحتوىٰ الداخلي للإنسان هو الذي يجسد الغايات التي تحرك التاريخ . وذلك من خلال وجودات ذهنية تمتزج فيها الإرادة بالتفكير . على أن هذه الغايات التي تحرك التاريخ إنما يحددها المثل الأعلى . حيث إنها جميعاً تنبثق عن وجهة نظر رئيسية إلى مثل أعلى للإنسان في حياته ، وللجماعة البشرية في حياتها . وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدد الغايات التفصيلية وينبثق عنه هذا الهدف الجزئي أو ذاك .

إذن فالغايات بنفسها هي محركات للتاريخ ، وهي بدورها نتاج لقاعدة أعمق منها في المحتوىٰ الداخلي للإنسان ، وهو المثل الأعلى الذي تتمحور فيه كل تلك الغايات . وتعود إليه كل تلك الأهداف . فبقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشرية صالحاً ، وعالياً وممتداً تكون الغايات صالحة وممتدة ، وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدوداً أو منخفضاً . تكون الغايات المنبثقة عنه محدودة ومنخفضة أيضاً [١٦] .

---

(١٦) المثل الأعلى الذي يعتقد به الإنسان هو وحده الذي يلّون المحتوىٰ الداخلي للإنسان . ومن شأن هذا المثل أن يلعب دوراً حاسماً إزاء المؤثرات الاعتراضية لهذا المحتوىٰ . من عوامل اقتصادية أو اجتماعية أو ما شاكل وليس العكس هو الصحيح . كما سعت الماركسية وغيرها من الفلسفات إلى إرجاع الإيمان العقائدي إلى تلك المؤثرات . وأشارت إلى أن المحتوىٰ الداخلي للإنسان إنما هو وليد هذه المؤثرات. وأن هذه الفلسفات التي اتجهت مثل هذا الاتجاه في تفسير التلون الإيديولوجي للإنسان لم تستطع بشكل موضوعي أن تتخلص من سلسلة هائلة من الانتقادات. ولكن هذا التفسير وحده هو الذي يذلل كل الإشكالات التي تعترض تفسير الأسباب التي تجعل هذا الإنسان أو ذاك يأخذ هذا اللون الايديولوجي أو السلوكي أو ذاك . وبالتالي هي التي تقدم التفسير الأفضل للكيفية الجمالية التي تتخذها حركة التاريخ . وبذلك تجنب الفكر المذهبي التاريخي النظريات المتطرفة. بهذه الحركة ليست هناك ضرورة فيها كي تكون سائرة دوماً باتجاه الأمام . كما أنه ليس ثمة إلزام باتخاذها شكل الدورة . وإنما هي مرهونة بالأهداف التي تسيرها . وما دامت هذه الأهداف قادرة على تسيير هذه الحركة باتجاه الأمام فإن حركة التاريخ تتخذ شكل التطور الإيجابي المتقدم . غير أن هذه الأهداف إذا لم تكن قادرةً على نقل حركة التاريخ إلى مواقع متقدمة . فإن من البديهي أن تتخذ الحركة التاريخية شكل المراوحة الموضعية ـ في أحسن الأحوال ـ

إذن المثل الأعلى هو نقطة البدء في بناء المحتوىٰ الداخلي للجماعة البشرية وهذا المثل الأعلى يرتبط في الحقيقة بوجهة نظر عامة إلى الحياة والكون ، ويتحدد من قبل كل جماعة بشرية على أساس وجهة نظرها العامة نحو الحياة والكون ، في ضوء ذلك تحدد مثلها الأعلى .

ومن خلال الطاقة الروحية التي تتناسب مع ذلك المثل الأعلى ومع وجهة نظرها إلى الحياة والكون . تحقق إرادتها للسير نحو هذا المثل ، وفي طريق هذا المثل .

إذن هذا المثل الأعلى هو في الحقيقة أيضاً يتجسد من خلال رؤية فكرية ، ومن خلال طاقة روحية تزحف بالإنسان في طريقه ، وكل جماعة حينما تختار مثلها الأعلىٰ . فهي في الحقيقة تكون قد اختارت سبيلها وطريقها ومنعطفات هذا السبيل ، وهذا الطريق .

ونحن كما رأينا أن الحركة التاريخية تتميز عن أي حركة أخرىٰ في الكون بأنها حركة غائية ، وحركة هادفة ، كذلك تتميز وتتمايز الحركات التاريخية أنفسها بعضها عن بعض بمثلها العليا . فلكل حركة تاريخية مثلها الأعلى ، وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدد الغايات والأهداف ، وهذه الأهداف والغايات هي التي تحدد النشاطات والتحركات ضمن مسار ذلك المثل الأعلى .

إن القرآن الكريم والتعبير الديني يطلق على المثل الأعلى في جملة من الحالات اسم الإله ، باعتبار ان المثل الأعلى هو القائد الآمر المطاع الموجِّه . وهذه صفات يراها القرآن للإله ، ولهذا يعبر عن كل من يكون مثلاً أعلى ، وكل ما يحتل مركز المثل الأعلى ، بالإله . لأنه هو الذي يصنع مسار التاريخ . حتىٰ ورد في قوله سبحانه وتعالى : ـ ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ . . ﴾ [(١٧)]

لقد عبر هنا حتىٰ عن الهوىٰ بأنه إله . وذلك حينما يتصاعد هذا الهوىٰ تصاعداً مصطنعاً ، فيصبح المثل الأعلى ، والغاية القصوى لهذا الفرد أو لذاك . فالمثل العليا بحسب التعبير القرآني والديني ، هي آلهة في الحقيقة لأنها هي

---

(١٧) سورة الفرقان ٢٥ : ٤٣ .

المعبودة حقاً ، وهي الآمرة والناهية حقاً ، وهي المحركة حقاً . فهي آلهة في المفهوم الديني والاجتماعي .

أقسام المثل العليا

إن المثل العليا التي تتبناها الجماعات البشرية على ثلاثة أقسام : ـ

القسم الأول : ـ وهو المثل الأعلى الذي يستمد تصوره من الواقع نفسه . ويكون منتزعاً من واقع ما تعيشه الجماعة البشرية من ظروف وملابسات . أي أن الوجود الذهني الذي صاغ المستقبل هنا لم يستطع أن يرتفع على هذا الواقع ، وأن يتجاوز هذا الواقع بل انتزع مثله الأعلى من هذا الواقع بحدوده ، بقيوده وبشؤونه .

وحينما يكون المثل الأعلى منتزعاً عن واقع الجماعة بحدودها وقيودها وشؤونها يصبح حالة تكرارية [١٨] ، أو بتعبير آخر يصبح محاولة لتجميد هذا الواقع وحمله إلى المستقبل ، بدلاً من التطلع إلى المستقبل ، وأمر كهذا هو في الحقيقة تجميد لهذا الواقع ، وتحويل لهذا الواقع من حالة نسبية ، ومن أمر محدود إلى أمر مطلق [١٩] . وحينما يتحول هذا الواقع من أمر محدود إلى هدف مطلق ، وإلى حقيقة مطلقة . لا يتصور الإنسان شيئاً وراءها. وحينما يتحول إلى ذلك ، سوف تكون حركة التاريخ حركة تكرارية وسوف يكون المستقبل تكراراً للواقع . وحيث إن هذا الواقع هو نفسه كان تكراراً لحالة سابقة ، ولهذا سوف يكون المستقبل تكراراً للواقع وللماضي .

---

(١٨) وذلك لأنه لا يقدم أي شيء للمسيرة وإنما يظل يجتّر ما عنده ولذلك فإنه في حركته المستقبلية لا يأخذ من هذا المستقبل شيئاً بل إنه لا يعيره أي أهمية . إذا كان فعلاً يحس بوجوده . وإنما يكتفي بنقل ما عنده في الحاضر إلى المستقبل . ولما كان ما في حاضره قد اكتسبه من الماضي . ولهذا فإن وجوده في الماضي والحاضر والمستقبل وجود تكراري . وصورة مكررة عن شيء كان في الماضي .

(١٩) النسبية هنا مصطلح يطلق على القضايا التي لا تلتزم بواقع واحد . بل إن طبيعتها هي عدم الثبات ، وعدم الاستقرار في موضع واحد بل إنها تتغير من وقت إلى آخر . وتتبدل من مكان إلى آخر . أما مصطلح المطلق المستعمل هنا فيطلق على الأمور التي لها طبيعة ثابتة ومستقرة لا تتغير ولا تتبدل في أي وقت أو مكان تكون فيه على السواء كما انه يشار فيه إلى حالة تكامل الشيء وعدم نقصانه .

إن هذا النوع من الألهة يعتمد على تجميد الواقع وتحويل ظروفه النسبية إلى ظروف مطلقة ، لكي لا تستطيع الجماعة البشرية أن تتجاوز الواقع وأن ترتفع بطموحاتها عن هذا الواقع .

مبررات وجود المثل التكراري

إن تبني هذا النوع من المثل العليا له أحد سببين : ـ

السبب الأول يعود إلى الألفة والعادة والخمول والضياع وهذا هو سبب نفسي . وإذا ما انتشرت هذه الحالة النفسية : حالة الخمول والركود والألفة والضياع في قوم أو مجتمع فحينئذسيتجمدذلك المجتمع. وذلك لأنه سوف يصنع آلهة من واقعه ، وسوف يحول هذا الواقع النسبي المحدود الذي يعيشه إلى حقيقة مطلقة . وإلى مثل أعلى إلى هدف لا يرىٰ وراءه شيئاً .

وهذا في الحقيقة هو ما عرضه القرآن الكريم في كثير من الآيات التي تحدثت عن المجتمعات التي واجهت الأنبياء. فحينما جاء الانبياء إلى تلك المجتمعات بمثل عليا حقيقية ترتفع عن الواقع ، وتريد أن تحرك هذا الواقع وتنتزعه من حدوده النسبية إلى وضع آخر . غير أن هؤلاء الأنبياء واجهوا مجتمعات سادتها حالة الألفة والعادة والتميع ، فكان هذا المجتمع يرد على دعوة الأنبياء ويقول بأننا وجدنا آباءنا على هذه السنة ، ووجدنا آباءنا على هذه الطريقة ونحن متمسكون بمثلهم الأعلى . فهنا نجد أن سيطرة الواقع على أذهانهم ، وتغلغل هذا الحس في طموحاتهم قد بلغ درجة تحول هذا الإنسان من خلالها إلى إنسان حسيّ ، لا إلى إنسان مفكر وإلى إنسان يكون ابن يومه دائماً . وابن واقعه دائماً . لا إلى إنسان يكون أبا ليومه وأباً لواقعه ، ولهذا لا يستطيع أن يرتفع على هذا الواقع . ولنستمع في هذا الصدد إلى القرآن الكريم وهو يقول : ـ **﴿ قالوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلفينا عَلَيهِ أباءَنا . أَوَلَو كانَ أباؤُهمُ لا يعقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهتَدونَ ﴾** [٢٠] .

---

(٢٠) سورة البقرة ٢ : ١٧٠ .

﴿ قالوا حَسبُنا ما وَجَدنا عَليهِ آباءَنا أوَلَو كان آباؤُهَم لا يعلمـونَ شيئاً ولا يهتَدون ﴾ [٢١] .

﴿ قالوا أجِئتَنَا لِتلفِتَنا عَـمّا وَجَدنـا عَليهِ آبـاءَنا ، وَتكـونَ لَكُما الكبـرياءُ في الأَرضِ وَما نَحنُ لَكُما بمُؤمِنِينَ . . ﴾ [٢٢] .

﴿ أتَنهـانا أنْ نعبُـدَ ما يَعبُـدُ آباؤُنـا . وَانَنَـا لَفي شَـكٍ مِمّـا تـدعـونـا إليـه مُريبٍ . . ﴾ [٢٣] .

﴿ قـالَت رُسُلُهمُ أَفي اللهِ شكٌّ فـاطر السمَـواتِ وَالأرضِ يدعُـوكُم لِيغفِرَ لَكُم من ذنُـوبِكُم ، وَيُؤَخِرَكُم إلى أجـلٍ مسمّىً . قـالـوا إنْ أنتم إلا بَشرٌ مِثلُنـا تريدون أنَ تَصُدُونا عَمّا كانَ يَعبُدُ آباؤُنا فأتُونا بسَلطانٍ مُبينٍ . . ﴾ [٢٤] .

﴿ بَل قَالُوا إنّا وَجَدنا آباءَنا على أُمّةٍ وانّا عَلىٰ آثارِهِم مُهتدوُنَ . . ﴾ [٢٥] .

في كل هذه الآيات يستعرض القـرآن الكريم السبب الأول لتبني المجتمـع هـذا المثـل الأعـلى المنخفض . فهؤلاء بحكم الألفـة والعـادة . وبحكم التّميـع والفـراغ وجدوا سنـة قائمـة ، ووجدوا وضعـاً قائـماً فلم يسمحوا لأنفسهم بـأن يتجاوزوه . لهذا جسّـدُوه كمثل أعـلى ، وعارضـوا به دعـوات الأنبياء ـ عـلى مر التاريخ ـ وهذا هو السبب الأول لتبني هذا المثل الأعلى المنخفض .

أمـا السبب الثـاني لتبني هـذا المثـل الأعـلى المنخفض فـهـو التـسلط الفـرعوني [٢٦] عـلى مر التـاريخ ، فـالفراعنـة ـ على مـر التاريـخ ـ حينما يحتلون

---

(٢١) سورة المائدة ٥ : ١٠٤ .

(٢٢) سورة يونس ع ١٠ : ٧٨ .

(٢٣) سورة هود ع ـ ١٢ : ٦٢ .

(٢٤) سورة إبراهيم ع ١٤ : ١٠ .

(٢٥) سورة الزخرف ٤٣ : ٢٢ .

(٢٦) المقصود هنا هو الظاهـرة الفرعـونية ، وليس فـرعون مصر . وهنـا نلفت الانتباه إلى أن القـرآن حينما يتحدث عن فرعون . فإنه بالرغم من ذكره لأحداث وقعت بين موسىٰ وفرعون بالذات غـير أن الذي يبدو هو أن المقصود في جميع الأحيان هـو الإشارة إلى خصـائص ومواصفـات وسلوكيات هذه الظاهرة . وكذلك نقاط قوتها ، ومراكز ضعفها ، وكيفية نشوئها وطرقها في محـاربة الأطـراف المضادة . وما إلى ذلك .

مراكزهم يجدون في أي تطلع إلى المستقبل ، وفي أي تجاوز للواقع الذي سيطروا عليه ، يجدون في ذلك زعزعة لوجودهم وهزاً لمراكزهم .

من هنا فإن من مصلحة فرعون ـ على مر التاريخ ـ أن يغمض عيون الناس على هذا الواقع . وأن يحول هذا الواقع الذي يعيشه مع الناس إلى مطلق وإلى اله وإلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه . ويحاول أن يحبس بل وأن يضع كل الأمة في إطار نظرته هو وفي إطار وجوده هو لكي لا يمكن لهذه الأمة ان تفتش عن مثل أعلى ينقلها من الحاضر إلى المستقبل ومن واقعها إلى طموح آخر أكبر من هذا الواقع . وما يظهر من خلال ذلك هو أن السبب هنا اجتماعي ، لا نفسي ، خارجي لا داخلي . وهذا السبب عرضه القرآن الكريم أيضاً بقوله سبحانه وتعالى ﴿ **وَقالَ فِرعَونُ يا أيها الملأ ما عَلِمتُ لَكُم إله غيري . .** ﴾ [٢٧] .

﴿ **قالَ فِرعَون ما أُريكمُ إلا ما أرىٰ ، وَما أهدِيكُم إلا سَبيلَ الرَّشادِ . .** ﴾ [٢٨] .

هنا نرىٰ فرعون يقول ما أريكم إلا ما أرى ، حيث يريد أن يضع الناس الذين يعبدونه كلهم في إطار رؤيته وفي إطار نظرته . فيحول هذه النظرة وهذا الواقع إلى مطلق لا يمكن تجاوزه .

إذن فهنا الذي يجعل المجتمع يتبنىٰ مثلاً أعلى مستمداً من الواقع . هو التسلط الفرعوني الذي يرىٰ في تجاوز هذا المثل الأعلى خطراً عليه ، وعلى وجوده . وفي هذا الصدد يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ثُمَّ أرسَلنا موسىٰ وأَخاهُ هارونَ بآياتِنا وسُلطانٍ مُبين * إلى فِرعَونَ وَمَلَئِه فاسْتكبَروا وَكانوا قَوماً عالينَ * فَقالُوا أَنؤمِنُ لِبَشَرَينِ مِثلِنا وَقوَمُهُما لنا عَابِدونَ** ﴾ [٢٩] .

هنا نجد فرعون وملأه يقولون إنهم غير مستعدين للإيمان بالمثل الأعلى

---

(٢٧) سورة القصص ٢٨ : ـ ٣٨ .

(٢٨) سورة غافر ٤٠ : ٢٩ .

(٢٩) سورة المؤمنون ٢٣ : ٤٥ ـ ٤٧ .

الذي جاء به موسىٰ لأنه سوف يزعزع عبادة قوم موسىٰ وهارون لهم .

إذن هذا التجميد ضمن إطار الواقع الذي تعيشه الجماعة ـ أي جماعة بشرية ـ ينشأ من حرص أولئك الذين تسلطوا على هذه الجماعة على أن يضمنوا وجودهم ، ويضمنوا الواقع الذي هم فيه وهم بُناته .

هذا هو السبب الثاني الذي عرضه القرآن الكريم . وهو يسمي هذا النوع من القوىٰ التي تحاول أن تحول هذا الواقع المحدود إلى مطلق وتحصر الجماعة البشرية في إطار هذا المحدود ، إن القرآن يسميه الطاغوت . حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالذين اجتَنَبوا الطاغُوتَ أن يَعبُدُوها وأنابُوا إلى اللهِ لَهُمُ البُشرىٰ فَبَشِّر عِبادِ * الذين يَستَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعونَ أَحسَنَهُ أُولئك الذين هَداهُمُ اللهُ وأُولَئك هُم أولوا الألبابِ * . . ﴾ [٣٠] .

وهنا لاحظوا فقد ذكر صفة أساسية لمن اجتنب عبادة الطاغوت . فما هي هذه الصفة الأساسية المميزة التي ذكرها القرآن لمن اجتنب عبادة الطاغوت . ؟ إنه قال ﴿ فَبَشِّر عبادِ الذينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعونَ أَحسَنَهُ . . ﴾ .

أي أنهم لم يجعلوا هناك قيداً على ذهنهم ، ولم يجعلوا لهم إطاراً محدوداً لا يمكنهم أن يتجاوزوه . وإنما جعلوا الحقيقة مدار همّهم ، وجعلوا الحقيقة هدفهم ، ولهذا فهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه . مما يعني أنهم في حالة طموح ، وفي حالة تطلع وموضوعية ، أي في حالة تسمح لهم بأن يجدوا الحقيقة . بينما لو كانوا يعبدون الطاغوت ، حينئذ سوف يكونون في إطار هذا الواقع الذي يريده الطاغوت . وسوف لن يستطيعوا أن يستمعوا إلى القول فيتبعون أحسنه ، وإنما يتبعون ما يراد لهم أن يتبعوه فقط . وهذا هو السبب الثاني لاتباع وتبني هذا المُثل .

خلاصة ما مر

إذن خلاصة ما مر بنا حتى الآن : ـ أن التاريخ يتحرك من خلال البناء

---

(٣٠) سورة الزمر ٣٩ : ١٧ ـ ١٨ .

الداخلي للإنسان ، الذي يضع للإنسان غاياته . وهذه الغايات تبنى على أساس المثل الأعلى الذي تنبثق عنه تلك الغايات .

إن لكل مجتمع مثل أعلى ولكل مثل أعلى مسار ومسيرة . وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدد في تلك المسيرة معالم الطريق . وهذا المثل الأعلى على ثلاثة أقسام . وقد استعرضنا حتىٰ الآن القسم الأول من المثل العليا . .وهو المثل الأعلى الذي ينبثق تصوره عن الواقع ، ويكون منتزعاً عن الواقع الذي تعيشه الجماعة . وهذا مثل أعلى تكراري . وتكون الحركة التاريخية في ظل هذا المثل الأعلى حركة تكرارية . فهو يأخذ الحاضر لكي يكون هو المستقبل . ولقد قلنا بأن تبني هذا النوع من المثل الأعلى يعود إلى أحد سببين بحسب تصورات القرآن الكريم وهذه الأسباب هي :

أولاً : سبب نفسي وهو الألفة والعادة والضياع

ثانياً : سبب خارجي وهو تسلط الفراعنة والطواغيت على مر التاريخ [٣١] .

الأديان المصنوعة بشرياً

إن هذه المثل العليا المنخفضة والمنتزعة عن الواقع . والتي تحدثنا عنها ـ فيما سبق ـ في كثير من الأحيان تتخذ طابع الدين ، ويسبغ عليها هذا الطابع من أجل إعطائها قدسية من شأنها أن تحافظ على بقائها واستمرارها على الساحة . ـ كما رأينا ذلك في الآيات الكريمة المتقدمة ـ وقد لاحظنا كيف أن المجتمعات التي رفضت دعوة الأنبياء كثيراً ما كانت تصر على التمسك بعبادة الآباء ، وبدين الآباء أي بالمثل الأعلى المعبود من قبل الآباء .

وفي الحقيقة أن كل مثل أعلى من هذه المثل العليا المنخفضة لا ينفك عن الثوب الديني سواء أبرز بشكل صريح ، أم لم يبرز ، لأن المثل الأعلى دائماً يحتل

---

(٣١) هذه هي نهاية المحاضرة التاسعة وتأتي بعدها المحاضرة العاشرة التي ألقيت يوم الأربعاء الموافق فيه الثامن عشر من جمادى الثانيه عام ١٣٩٩ .

مركز الإلـه بحسب التعبير القـرآني والإسلامي . لأن عـلاقة الأمـة بمثلها الأعـلى تستبـطن دائماً نـوعاً من العبـادة لهذا المثـل الأعلى وليس الـدين بشكله العام إلا علاقة عابد بمعبود .

فالمثل الأعلى لا ينفـك عن الثوب الديني سواء كان ثوباً دينياً صريحـاً ، أو ثوباً دينياً مستتراً مبرقعاً تحت شعارات أخرىٰ فهو في جوهـره دين ، وفي جوهـره عبادة وانسياق . إلا أن هذه الأديان التي تفرزها هـذه المثل العليـا المنخفضة هي أديـان محدودة تبعـاً لمحدوديـة هذه المُثـل نفسهـا . وذلـك لأن هـذه المثـل مثـلاً منخفضة ومحدودة لما كانت قد حولت بصورة مصطنعة إلى مطلقات . فيما هي في الحقيقة ليست إلا تصورات جزئية عبر الطريق الطويل ، الطويل لـلإنسان . إلا أنها حولت إلى مطلقات بصورة مصطنعة .

إذن فهذه المحدودية في المثل تعكس الأديـان التي تفرزهـا ، فالأديـان التي تفرزها هذه المثل أو بالتعبير الأحرىٰ الأديان التي يفرزها الإنسان من خلال صنع هذه المثل ، ومن خلال عملقة هذه المثل وتطويرها من تصورات إلى مـطلقات . هذه الأديان تكـون أديانـاً محدودة وضئيلة . وهي أديـان التجزئـة في مقابـل دين التـوحيد ـ الـذي سوف نتكلم عنـه حينما نتحـدث عن مثله الأعـلى القـادر عـلى استيعاب البشرية بأبعادها .

إن هذه الأديان أو أديان التجزئة ، وهذه الآلهة التي يفرزهـا الإنسان بـين حـين وحـين هي التي يعبـر عنهـا القـرآن الكـريم بقوله : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسـماءٌ سَمَّيْتُمُوها اَنتُم وَآباؤُكُم** . . ﴾ [٣٢] .

إن هذا الإله الذي يفرزه الإنسان ، وهذا الدين الذي يصنعـه الإنسان ، وهذا المثل الأعلى الذي هو نتاج بشـري . لا يمكن أن يكون هـو الدين القيّم ، ولا يمكن أن يكون هو المصعّد الحقيقي للمسيرة البشرية لأن المسيـرة البشريـة لا يمكن أن تخلق إلهها بيدها .

كما أن المجتمعات والأمم التي تعبـد هذا المثـل الأعلى المنخفض والمستمـد

(٣٢) سورة النجم ٥٣ : ٢٣ .

من واقع الحياة ، والتي قلنا بأنها تعيش حالة تكرارية بمعنىٰ أن حركة التاريخ فيها تصبح حركة تماثلية وتكرارية . فإن هذه الأمة إذ تأخذ ماضيها بيدها إلى الحاضر . وحاضرها إلى المستقبل ليس لها في الحقيقة أي مستقبل ، وإنما مستقبلها هو ماضيها .

الأمة : الشبح

ومن هنا فنحن إذا تقدمنا خطوة في تحليل ومراقبة ومشاهدة أوضاع هذه الأمة التي تتمسك بمثل من هذا القبيل . فإذا ما تقدمنا خطوة إلى الأمام نجد أن هذه الأمة ستفقد بالتدريج ولاءها لهذا المثل أيضاً . ولن تظل متمسكة بهذا المثل بعد أن يفقد فاعليته وقدرته على العطاء . وذلك بعد أن يصبح نسخة من الواقع . وبعد أن يصبح أمراً مفروضاً ومحسوساً وملموساً . وبعد أن يصبح غير قادر على تطوير البشرية وتصعيدها في مسارها الطويل . وهنا تبدأ هذه البشرية وهذه الجماعة تدريجياً بفقد ولائها لهذا المثل . ومعنىٰ هذا أنها حينما تفقد ولاءها لهذا المثل فإن القاعدة الجماهيرية الواسعة في هذه الأمة سوف تتمزق وحدتها لأن وحدة هذه القاعدة إنما هي بالمثل الواحد . فإذا ضاع المثل ضاعت هذه القاعدة (٣٣) . فهذه الأمة بعد أن تفقد ولاءها لهذا المثل تصاب بالتشتت ، والتمزق والتبعثر . تكون كما وصفها القرآن الكريم ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُم شَدِيدٌ ،

---

(٣٣) إن المثل ـ أي مثل ـ له خصوصية شد الأنظار إليه . وهذه الخصوصية من شأنها أن تكون قاعدة شعبية لهذا المثل . تدافع وتناصر هذا المثل وتضحي من أجله . وفي هذه الخصوصية تشترك جميع أقسام المثل العليا سيان في ذلك المثل التكراري أو المثل المستخرج من الطموح المحدود أو الله سبحانه وتعالى . وبقدرة هذا المثل أو ذاك على صياغة أهداف من شأنها أن تبقي على ديمومة بقاء هذه الخصوصية . مهما كانت الطبيعة الأخلاقية لهذه الأهداف . فإن هذه القاعدة الشعبية ستكون لها قدرة على التماسك والتآصر . غير أن الصورة تختلف حينما تعجز هذه المثل عن صياغة أهداف جديدة في الوقت الذي وصلت قاعدتها الشعبية إلى الأهداف التي طرحت في السابق . إذ إن أفراد هذه القاعدة سيجدون أنفسهم مجبورين على التطلع إلى شيء آخر وإلى غض النظر عما كانوا يتطلعون إليه في السابق . ولا نحتاج إلى عسير جهد من أجل أن نبرهن على ذلك سواء كان موضوع تجربتنا ساحة القيادات الشعبية أو ساحة الافكار والمبادىء أو ساحة النظم والمناهج . وامثلة كجمال عبد الناصر ، أو القومية في بلدان العالم الاسلامي أو النظام الاشتراكي في بلداننا الاسلامية كافيه لتعبر عن دلالات لها مغزاها العميق في هذا المجال .

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . . ﴾ [٣٤] .

إن بأسهم بينهم شديد وذلك باعتبار أن التناقضات تبدأ في داخل هذه الأمة [٣٥] . وهي التي لا يجمعها مثل أعلى ولا تجمعها طريقة مثلىٰ . ولا يجمعها سبيل واحد بل هي : قلوب متفرقة ، وأهواء مشتتة ، وأرواح متبعثرة ، وعقول مجمدة . ففي حالة من هذا القبيل لا تبقىٰ أمة ، وإنما يبقىٰ شبح أمة فقط . وفي ظل هذا الشبح سوف ينصرف كل فرد في هذه الأمة إلى همومه الصغيرة وإلى قضاياه المحدودة لأنه لا يوجد هناك مثل أعلىٰ تلتف حوله الطاقات . وتتجمع حوله القابليات والإمكانات وتحشد من أجله التضحيات . وحيثما لا يوجد هذا المثل الأعلى ، وحينما يسقط هذا المثل الأعلى تسقط الراية التي توحد الأمة . فيبقىٰ ـ عندئذ ـ كل إنسان مشدود إلى حاجاته المحدودة وإلى مصالحه الشخصية وإلى تفكيره في أموره الخاصة ـ كيف يصبح . . ؟ كيف يمسي . . ؟ كيف يأكل . . ؟ كيف يشرب . . ؟ وكيف يوفر الراحة والاستقرار له ولأولاده ولعائلته ؟ .

ولكن أي راحة ؟ وأي استقرار . . ؟

إنها الراحة بالمعنى الرخيص من الراحة . . والاستقرار بالمعنىٰ القصير من الاستقرار حيث يبقىٰ كل إنسان سجين حاجاته الخاصة ورغباته الخاصة . فيبقىٰ يدور ويبقىٰ يلتف حول هذه الرغبات وحول هذه الحاجات فلا يرىٰ غيرها إذ لا يوجد أي مثل . فقد ضاع المثل وتفتت وسقط .

---

(٣٤) سورة الحشر ٥٩ : ١٤ .

(٣٥) إن نقطة بدء نشوء هذه التناقضات في هذا المجال تنطلق من نقطة شعور هذه الأمة بأن المثل الأعلى الذي كانت تتطلع إليه بات غير قادر على منحها العطاء اللازم الذي يجعلها منشدة إليه . ولهذا يبدأ أفراد هذه الأمة بالبحث عن مثل جديد . وعملية البحث هذه تفترض بداهة تشتت هؤلاء الأفراد عن الإطار الذي كان يجمعهم مما يؤدي ضرورة إلى تصادم المصالح التي يؤمنون بها باعتبار أن الموانع التي كان المثل السابق يوفرها قد ارتفعت . وبات هؤلاء الأفراد يتحركون في ساحة خالية من المعايير والقيم الأخلاقية ـ بغض النظر عن كنهها ـ التي تجعل كل فرد منهم يعرف الحدود التي يحق له التحرك في داخلها مما يحيل هذه الساحة إلى ساحة مملوءة بمعايير وقيم أخلاقية متصادمة فيما بينها . فيعم الاضطراب والتناقض حينئذ .

الأمة الشبح والإجراءات التاريخية .

في مثل هذه الحالات تتحول الأمة إلى شبح ـ كما قلنا ـ حيث لا تبقىٰ أمة حقيقية وإنما هناك شبح أمة . وقد علمنا التاريخ أنه في حالة من هذا القبيل توجد ثلاثة إجراءات وثلاثة بدائل يمكن أن تنطبق على حالة هذه الأمة الشبح هي : ـ

الإجراء الأول : التداعي أمام الغزو الخارجي

إن الإجراء التاريخي الأول هو أن تتداعى هذه الأمة أمام غزو عسكري من الخارج . لأن هذه الأمة التي أفرغت من محتواها ، والتي تخلت عن وجودها كأمة ، وبقيت كأفراد ، كل إنسان منهم يفكر في طعامه ، ويفكر في لباسه ، ويفكر في دار سكناه ، ولا يفكر في الأمة حيث لا يبقىٰ هناك من يفكر في الأمة . وإنما كل إنسان يفكر في حاجاته حين يفكر . إذن في وضع من هذا القبيل يمكن أن تتداعى هذه الأمة أمام غزو من الخارج . وهذا هو ما وقع بالفعل . فبعد أن فقد المسلمون مثلهم الأعلىٰ وفقدوا ولاءهم لهذا المثل الأعلى وقعوا فريسة غزو التتار . وحينها سقطت حضارة المسلمين بأيدي التتار .

الإجراء الثاني : ـ الذوبان والتبعية للأجنبي

أما الإجراء التاريخي الثاني . فهو الذوبان والانصهار في مثل أعلى أجنبي مستورد من الخارج . حيث إن الأمة حينما فقدت مثلها العليا النابعة منها فقدت بذلك فاعليتها وأصالتها . وحينئذ غدت تفتش عن مثل أعلى من الخارج لكي تعطيه ولاءها . ولكي تمنحه قيادتها [٣٦] .

---

(٣٦) ما أشبه ذلك بحالة المسلمين في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حينما انبهرت عقولهم بحضارة الغرب وبحياة الغربيين فراحوا يستعيرون من الغرب كل شيء . وذلك بعد أن زرّقوا بثقافة هي أقرب للمرض منها إلى الصحة وصفوها لهم بأنها إسلامية . غير أن مفاهيمها كانت خاوية على عروشها وخالية من كل مضمون من شأنه أن يبعث بهم حالة الانبعاث والنهضة .ولولا جهد علماء الإسلام ومفكريه في بث الفكر الإسلامي الأصيل لما وجدنا العودة إلى الإسلام تتم بالصورة المألوفة .

الإجراء الثالث : نشوء بذور النهضة

أما الإجراء التاريخي الثالث فهو أن تنشأ في أعماق هذه الأمة بذور إعادة المثل الأعلى من جديد بمستوى العصر الذي تعيشه تلك الأمة .

أمام هذين الإجراءين (الإجراء الثاني . والإجراء الثالث) وقفت الأمة على مفترق طريقين حينما دخلت عصر الاستعمار .

فقد كان هناك طريق يدعوها إلى الانصهار في مثل أعلى من الخارج . وهذا الطريق هو الذي طبقه جملة من حكام المسلمين في بلاد المسلمين « كرضا خان » [٣٧] . في إيران ، و« أتاتورك » [٣٨] في تركيا . فقد حاول هؤلاء أن يجسدوا المثل الأعلى للإنسان الأوروبي المنتصر . ويطبقوا هذا المثل الأعلى ويكسبوا ولاء المسلمين أنفسهم لهذا المثل الأعلى . وذلك بعد أن ضاع المثل الأعلى في داخل المسلمين .

بينما كان رواد الفكر الإسلامي ورواد النهضة الإسلامية في بدايات عصر الاستعمار وفي أواخر الفترة التي سبقت عصر الاستعمار . قد أطلقوا جهودهم

---

(٣٧) رضا خان حاكم إيران السابق ووالد الشاه المخلوع « محمد رضا » حكم إيران على أثر القضاء على أسرة القاجارية سياسياً ونصب نفسه أمبراطوراً عام ١٩٢٥ . وقد حاول جاهداً فرض التغريب الأوروبي على المجتمع الإيراني المسلم حتىٰ أنه أمر بخلع الحجاب ودخل في مواجهات حادة مع علماء الإسلام وتميز عهده بالاستبداد الشديد . ولكنه نفي من إيران عام ١٩٤١ . إثر دخول قوات الحلفاء إليها وقد نفي إلى جنوب إفريقيا حيث مات عام ١٩٤٤ ودفن هناك . ليخلفه من بعده ابنه محمد رضا الذي نصب عام ١٩٤٥ أمبراطوراً على إيران .

(٣٨) مصطفى كمال آتاتورك (١٨٨١ ـ ١٩٣٨) القائد العسكري التركي الذي يلقبه القوميون الأتراك بلقب أبو الأتراك وذلك لأنه قضىٰ على الخلافة العثمانية وأسس الجمهورية التركية لاغياً بذلك مبدأ الخلافة الإسلامية في الحكم . وقد تميز عهده بسياسة تغريب شديدة واتخذ خطوات كثيرة جداً في محاربة الإسلام ومحاولة تتريك المجتمع التركي بقومياته كافة . ولكن عملية التتريك هذه كانت الوجه الآخر لتغريب هذا المجتمع . وهو الذي ألغى اللغة العربية وأجبر الأتراك على استخدام الأحرف اللاتنية . ويذكر أنه من مواليد مدينة سالونيك اليونانية والتي تعتبر أحد أهم المراكز وأبرزها للنشاط اليهودي الرامي للقضاء على الأمبراطورية العثمانية . « للمزيد انظر كتابنا : نشوء القومية في العالم الإسلامي » .

في سبيل تحقيق الإجراء الثالث [٣٩] ، أي في سبيل إعادة الحياة إلى الإسلام من جديد ، وفي سبيل انتشار هذا المثل الأعلى وإعادة الحياة إليه وتقديمه بلغة العصر وبمستوى العصر ، وبمستوى حاجات المسلمين .

القسم الثاني : ـ المُثل ذات الطموح المحدود

لقد تكلمنا عن أمة الآلهة المنخفضة ، وقد لاحظنا أننا حينما نتقدم خطوة نجد المثل التكراري يتمزق حينما تفقد الأمة ولاءها له . فتتحول إلى شبح ، وحينها تواجه أحد هذه الإجراءات الثلاثة .

أما الآن فلنرجع خطوة إلى الوراء . لأننا إذا رجعنا فسوف نواجه النوع الثاني من الآلهة والمثل العليا . فنحن إذا رجعنا خطوة إلى الوراء ـ وهذا ما سوف أشرح معناه بعد لحظات ـ فسوف نواجه النوع الثاني هو عبارة عن كل مثل أعلى للأمة يكون مشتقاً من طموح الأمة ، ومن تطلعها إلى المستقبل .

ليس هذا المثل تعبيراً تكرارياً عن الواقع . بل هو تطلع إلى المستقبل ، وتحفز نحو الجديد ، ونحو الإبداع والتطوير . . ولكن هذا المثل منتزع من خطوة واحدة من المستقبل ، وبعبارة أخرى إنه منتزع من جزء من هذا الطريق الطويل

---

(٣٩) لعل مفهوم الاستبدال الذي طرحته الآيات الكريمة ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا مَنْ يَرتَدَّ مِنكُم عَنْ دِينِهِ فَسوفَ يَأتِي اللهُ بقَومٍ يُحِبُّهـم وَيحُبونَهُ أذِلَةٍ على المُؤمِنِينَ أعِزَّةٍ عَلى الكافِرين يُجاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لَومَةَ لائِمٍ . . ﴾ سورة المائدة ٥ : ٥٤
وقوله تعالى : ﴿ إلاَّ تَنِفروا يُعَذِّبكُم عَذاباً أليماً ، وَيَستَبدِلْ قَوماً غَيرَكُم وَلا تَضُرُوُهُ شَيئاً واللهُ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ . . . ﴾ سورة التوبة ٩ : ٣٩ .
وقوله تعالى : ـ ﴿ وَإن تَتوَلَّواْ يَستَبدِل قَوماً غَيرَكُم ثُمَّ لا يَكُونُوا أمْثالَكُم . . ﴾ سورة محمد (ص) ٤٧ : ٣٨ .
ما يشير إلى هذا الإجراء . فهنا يهدد الله الجماعة الإيمانية بأنها اذا لم تتحمل كامل مسؤوليتها الرسالية فإن السنة التاريخية سوف تشملها من دون أي محاباة . وحينها سوف تزاح عن طريق الرسالة . مما يعني تحولها إلى شبح أمة (ولعل هذا هو العذاب الأليم المشار إليه في الآية الثانية) . ولكن تحولها إلى شبح لا يعني أن الرسالة والعمل من أجل تحقيقها سيتوقف . بل أن رجال الإجراء الثالث (الذي يبدو أن الآيات تشير إليهم ضمن حديثها عن مفهوم الاستبدال) هم الذين سيكملون المسيرة من أجل تحقيق أهدافها المقدسة .

المستقبلي . أي أن هذا الطموح الذي انتزعت الأمة منه مثلها ، كان طموحاً محدوداً ومقيداً لم يستطع أن يتجاوز المسافات الطويلة ، وإنما استطاع أن يكوّن رؤية مستقبلية محدودة ، وهذه الرؤية المستقبلية المحدودة هي التي انتزع منها مثله الأعلى .

وفي هذا المثل الأعلى جانب موضوعي صحيح ، ولكنه يحتوي على إمكانيات خطر كبير . أما الجانب الموضوعي الصحيح فهو أن الإنسان عبر مسيرته الطويلة لا يمكنه أن يستوعب برؤيته الطريق الطويل ، الطويل كله . إذ لا يمكنه أن يستوعب المطلق لأن الذهن البشري محدود . وإنما هو دائماً يستوعب نغمة من المطلق وشيئاً منه . فيأخذ بيده قبضة من هذا المطلق فتنير له الطريق والدرب .

إن كون دائرة الاستيعاب البشري محدودة هو أمر طبيعي وهو أمر صحيح وموضوعي . ولكن الخطير في هذه المسألة أن هذه القبضة التي يقبضها الإنسان من المطلق ، وهذه الكومة المحدودة ، وهذه الومضة من النور التي يقبضها من هذا المطلق يحولها إلى نور السماوات والأرض ويحولها إلى مثل أعلى وإلى مطلق . وهنا يكمن الخطر . لأنه حينما يصنع مثله الأعلى ، وينتزعه من تصور ذهني محدود للمستقبل ، ويحوّل هذا التصوّر الذهني المحدود إلى مطلق . حينئذ سوف يخدمه هذا المثل الأعلى في المرحلة الحاضرة ، وسوف يهيىء له إمكانيات النمو بقدر طاقات هذا المثل ، وبقدر ما يمثل للمستقبل . فبقدر إمكاناته المستقبلية سوف يحرك هذا الإنسان وينشطه ، ولكنه سرعان ما سوف يصل إلى حدوده القصوى . فحينئذ سوف يتحول هذا المثل نفسه إلى قيد للمسيرة وإلى عائق عن التطور ، وإلى مجمد لحركة الإنسان ، لأنه أصبح مثلاً والهاً ودينا . وأصبح واقعاً قائماً وحينئذ سوف يكون بنفسه عقبة أمام استمرار زحف الإنسان نحو كماله الحقيقي [٤٠] .

---

(٤٠) يمكننا تلمس هذه الحقيقة حينما نلحظ مصاديق المثل في الساحة الحضارية المعاصرة فالقومية التي اتخذتها الشعوب مثلاً أعلى في القرن التاسع عشر والقرن العشرين لوحظ فيها أنها بثت في البداية روحاً جديدة إلى هذه الشعوب . غير أنها حينما رقت إلى حد الأهداف التي تؤمنها القومية . =

إن هذا المثل الذي يعمم خطأ حيث يحوّلُ من محدود إلى مطلق . نلاحظ فيه أن خطأ التعميم فيه تارة ما يكون تعميماً أفقياً خاطئاً وأخرىٰ تعميماً زمنياً عمودياً خاطئاً :

التعميم الأفقي الخاطىء للمثل : ـ

وهذا التعميم ينشأ حينما ينتزع الإنسان من تصوره المستقبلي مثلاً . ويعتبر أن هذا المثل يضم كل قيم الإنسان التي يجاهد من أجلها ، ويناضل في سبيلها . بينما هذا المثل على الرغم من صحته إلا أنه لا يمثل إلا جزءاً من هذه القيم . فهذا التعميم هو تعميم أفقي خاطىء . إذ إن هذا المثل يكون معبراً عن جزء من أفق الحركة ، بينما جرد منه ما يملأ كل أفق الحركة .

فالإنسان الأوروبي الحديث في بدايات عصر النهضة ، وضع الحرية كمثل أعلى له . لأنه رأى أن الإنسان الغربي كان محطماً ومقيداً ، حيث كانت على يديه الأغلال في كل ساحات الحياة . فقد كان مقيداً في عقائده العلمية والدينية [٤١] بحكم الكنيسة وتعنتها . كما أنه مقيداً في قوته ورزقه بأنظمة الإقطاع . وخلاصة ما يقال في هذا المجال أنه كان مقيداً أينما يسير . ولهذا أراد الإنسان الأوروبي الرائد لعصر النهضة أن يحرر الإنسان من هذه القيود ، أي من قيود الكنيسة ، وقيود الإقطاع . فأراد أن يجعل من الإنسان كائناً مختاراً إذا أراد أن يفعل ،

= وتوقفت عند ذلك . ظلت تعاني من الإحباطات المتوالية والمشاكل والمتناقضات التي تبدو وكأنها مستعصية .

(٤١) تشير بعض الاحصائيات إلى أن محاكم التفتيش التي كانت سائدة في أوروبا في القرون الوسطى وألغيت على يد نابليون في عام ١٨٠٨ قد أحرقت وقتلت ما يقارب (٣٠ ألف) عالم في مختلف شؤون العلم . وكان قتل غالبيتهم نتيجة لوجود قناعات لديهم تختلف عن قناعات الكنيسة وكانت هذه المحاكم تعقد محافل التفتيش في إحدى الساحات العامة وتدعو هذا العالم أو ذاك للتنازل عن رأيه ، والتوبة إلى الله (!!) . وعندما كان هذا العالم يصر على رأيه الفكري أو العلمي أو السياسي . كانت المقصلة له بالانتظار أو المجمرة التي تتطاير ألسنة اللهب منها . ووفقاً لاحصائية المؤرخ ول ديورانت : فإن أعداد ضحايا هذه المحاكم للفترة ما بين عام (١٤٠٨ ـ ١٨٠٨ م) من الذي أحرقوا قد بلغ (٣١٩١٢) شخص . فيما بلغ عدد الذين حكموا بالأشغال الشاقة (٩١٤٥٠) شخص . انظر : قصة الحضارة ول ديورانت ١٦ : ٣٥٩ .

يفعل . ويفكر بعقله لا بعقل غيره ، ويتصور ويتأمل بذاته ولا يستمد هذا التصور كصيغ ناجزة من الآخرين .

وهذا أمر صحيح . إلا أن الأمر الخاطىء في ذلك هو التعميم الأفقي . حيث إن هذه الحرية بمعنى كسر القيود عن هذا الإنسان ، هي قيمة من القيم ، هي إطار للقيم ، ولكن هذا وحده لا يصنع الإنسان . فليس هذا هو المثل الأعلى . فأنت لا تستطيع أن تصنع الإنسان حينما تكسر عنه القيود ، وتقول له افعل ما شئت . فلا يوجد إنسان ولا كائن ولا يوجد إقطاعي ولا قسيس ولا سلطان ولا طاغوت يضطرك إلى موقف أو يفرض عليك موقفاً . فهذا وحده لا يكفي لأن كسر القيود إنما يشكل إطار التنمية البشرية الصالحة . فيما نجد أن هذه التنمية تحتاج إلى مضمون وإلى محتوىٰ . أما مجرد أنه يستطيع أن يتصرف ، ويستطيع أن يمشي في الأسواق فهو ما لا يكفي . غير أن المهم هو كيف يمشي ؟ وما هو الهدف الذي من أجله يمشي في الأسواق ؟

ولهذا فإن المحتوىٰ والمضمون هو الذي فات الإنسان الأوروبي . فقد جعل هذا الإنسان الحرية هدفاً . وهذا صحيح . ولكنه جعل من هذا الهدف مثلاً أعلى . بينما نجد أن هذا الهدف ليس إلا إطاراً في الحقيقة . وهذا الإطار بحاجة إلى محتوىٰ ، وإلى مضمون . فإذا ما جرد هذا الإطار من محتواه فسوف يؤدي إلى الويل والدمار ، إلى الويل الذي تواجهه اليوم الحضارة الغربية التي صنعت للبشرية كل وسائل الدمار ، لأن الإطار بقي بلا محتوى وبقي بلا مضمون .

التعميم الزمني العمودي الخاطىء للمثل

وأما التعميم الزمني فنلاحظه من خلال ما نجده من خطوات ناجحة تاريخية على مر التاريخ . ولكنها لا يجوز أن تحول من حدودها كخطوة إلى مطلق وإلى مثل أعلى . حيث يجب أن تكون ممارسة تلك الخطوة ضمن المثل الأعلى لا أن تحول هذه الخطوة إلى مثل أعلى .

فحينما اجتمعت في التاريخ مجموعة من الأسر فشكلوا العشيرة . ثم اجتمعت مجموعة من العشائر فشكلت القبيلة ، ومن بعدها اجتمعت مجموعة

من القبائل فشكلت أمة [٤٢] . إن هذه الخطوات جميعها صحيحة في تقدم البشرية وتوحيدها . ولكن كل خطوة من هذه لا يجب أن تتحول إلى مثل أعلى ، كما أنه لا يجوز أن تتحول إلى مطلق . فلا يجوز أن تكون العشيرة هي المطلق الذي يحارب من أجله هذا الإنسان وإنما المطلق الذي يحارب من أجله الإنسان يبقىٰ هو ذاك المطلق الحقيقي ـ أي الله سبحانه وتعالى ـ

إذن فالخطوة هنا تبقىٰ كأسلوب ، ولكن المطلق يبقىٰ هو الله سبحانه وتعالى وهذا هو التعميم الزمني الذي هو شكل من التعميم الخاطىء ، وينشأ حينما يحول هذا المثل المنتزع من خطوة محدودة عبر الزمن إلى مثل أعلى .

إن حال هذا الإنسان الذي يحول هذه الرؤية المحدودة من عمر الزمن إلى مطلق . حاله حال الإنسان الذي يتطلع إلى الأفق ، فلا تساعده عينه إلا على النظر إلى مسافة محدودة ، فيخيل له بأن الدنيا تنتهي عند الأفق الذي يراه . أو أن السماء تنطبق على الأرض ، على مسافة قريبة منه . وقد يخيل إليه وجود الماء حينما يرىٰ السراب على مقربة منه . إلا أن هذا في الحقيقة ناشيء من عجز عينه عن متابعة المسافة الأرضية الطويلة الأمد .

إن هذا الإنسان الذي يقف على طريق التاريخ الطويل ، على طريق المسيرة البشرية ، له أفق بحكم قصوره الذهني ، وبحكم محدودية الذهن البشري . له أفق . كذلك الأفق الجغرافي . ولكن هذا الأفق يجب أن يتعامل معه كأفق لا كمطلق . فكما أننا لا نتعامل ـ على الصعيد الجغرافي ـ مع هذا الأفق الذي نراه على بعد عشرين متراً أو مائتي متر على أنه نهاية الأرض ، وإنما نتعامل معه بأنه أفق . كذلك الإنسان فهو هنا يجب أن يتعامل مع تلك الخطوة كأفق . وليس على أساس تحويل هذا الأفق التاريخي إلى مثل أعلى وإلا كان من قبيل من يسير نحو سراب . وهنا انظروا إلى التمثيل الرائع في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **والذينَ كَفَروا أعمالُهم كَسَرابٍ بِقِيعةٍ ، يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ مَاءاً . حَتَّىٰ**

---

(٤٢) ورد في الأصل ذكر القبيلة بدلاً من العشيرة والعشيرة بدلاً من القبيلة ـ أي أن القبيلة كانت ـ وفق نص الأصل ـ أصغر من العشيرة . بينما أن العكس هو الصحيح وهو ما أثبتناه في المتن ومن المؤكد أن هذا التقديم والتأخير ، كان مجرد سبق لسان عادة ما يبتلىٰ به أي محاضر .

إذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدهُ شيئاً ، وَوَجَدَ اللهَ عِنَدهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ ، واللهُ سَرِيعُ الحِسابِ ﴾ (٤٣) .

المثل المصطنعة كبيت العنكبوت

إن القرآن يعبر عن كل هذه المثل المصطنعة من دون الله سبحانه وتعالى بأنها كبيت العنكبوت . ولهذا يقول سبحانه وتعالى : ـ ﴿ مَثَلُ الذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دوُنِ اللهِ أَولِياءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيتاً ، وإنَّ أَوهَنَ البُيوُتِ لَبَيتُ العَنكبَوتِ لَوْ كانوا يَعلمُونَ ﴾(٤٤) .

إننا إذا قارنا بين هذين النوعين من المثل العليا : ـ المثل العليا المنتزعة من الواقع ، والمثل العليا المشتقة من طموح محدود . فإنه يمكننا أن نلاحظ أن المثل العليا المشتقة من الواقع كثيراً ما تكون قد مرت بمرحلة هذه المثل العليا التي تعبر عن طموح محدود ، أي بمعنى أن كثيراً ما تكون تلك المثل من النوع الأول ، إنما هي امتداد للمثل من النوع الثاني . وذلك بأن يبدأ المثل الأعلى وهو مشتق من الطموح ، ولكن حينما يتحقق هذا الطموح المحدود . وحينما تصل البشرية إلى النقطة التي أثارت هذا المثل . عندئذ يتحول هذا المثل إلى واقع محدود بحسب الخارج . وحينئذ يصبح مثلاً تكرارياً .

ومن هنا قلنا ـ فيما سبق ـ أننا لو رجعنا خطوة إلى الوراء بالنسبة إلى آلهة النوع الأول ومُثلِهِ . لوجدنا آلهة النوع الثاني . فالمسألة في كثير من الأحيان تبدأ بمثل أعلى له طموح مشتق من طموح مستقبلي ، ثم يتحول هذا المثل الأعلى إلى مثل تكراري ، ثم يتمزق هذا المثل التكراري ـ كما قلنا ـ وتتحول الأمة ـ حينئذ ـ إلى شبح أمة .

المراحل الزمنية لمسار المثل

في هذه الفترة الزمنية تمر الأمة بمراحل في الحقيقة ، يمكننا تلخيصها في أربعة مراحل : ـ

---

(٤٣) سورة النور ٢٤ : ٣٩ .

(٤٤) سورة العنكبوت ٢٩ : ٤١ .

المرحلة الأولى : ـ وهي مرحلة فاعلية هذا المثل ، وذلك بحكم أنه قد بدأ مشتقاً من طموح مستقبلي ، ومن نظرة مستقبلية ، فهذا المثل يكون له في المرحلة الأولىٰ فاعلية وعطاء وتجديد ، بقدر ما يكون له من ارتباط بالمستقبل .

ولكن طبعاً هذه الفاعلية ، وهذا العطاء والتجديد هو عطاء يسميه القرآن بالعاجل ، ومكاسب عاجلة ، وليست مكاسب على المدى الطويل . فهذه المكاسب هي مكاسب عاجلة لأن عمر هذا المثل قصير ، لأن عطاء هذا المثل محدود ، ولأن هذا المثل سوف يتحول في لحظة من اللحظات إلى قوة إبادة لكل ما أعطاه من مكاسب ، ولهذا يسمى هذا بالعاجل . وفي هذا انظروا إلى قوله تعالى : ـ ﴿ مَنْ كانَ يُريدُ العاجِلَةَ عَجَّلنا لَهُ فيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُريدُ ثُمَّ جَعَلنا لَهُ جَهَنَّمَ يصلاها مَذمُوماً مَّدحُوراً * وَمَن أَرَادَ الآخِرَةَ وسَعىٰ لَهَا سَعيَها وَهوَ مُؤمِنٌ فأولَئكَ كان سَعيُهم مشكوراً * كُلّاً نُمِدُّ هٰؤُلاءِ ، وهٰؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبكَ ، وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ محظُوراً . . ﴾ (٤٥) .

إن الله سبحانه وتعالى هو خير محض ، وعطاء محض ، وجود كله . وبقدر ما تتبنىٰ الأمة مثلاً قابلاً للتحريك ، فإن الله سبحانه وتعالى يعطي . غير أنه يعطي بقدر قابلية هذا المثل ، ولكنه حينما يعطي هنا فإنه يعطي شيئاً عاجلاً . لا أكثر .

وفي حالة من هذا القبيل تكون السلطة التي تمثل هذا المثل ، ذات مثل يعطي ويبدع . فيما تكون هي قيادة موجهة للأمة في حدود هذا المثل ، ويكون للأمة ايضاً دور المشاركة في صنع هذا المثل وفي تحقيقه .

إن هذه المرحلة سوف تؤدي إلى مكاسب ، ولكنها في النظر القرآني العميق الطويل الأمد هي مكاسب عاجلة تعقبها جهنم ، جهنم في الدنيا (٤٦) ، وجهنم

---

(٤٥) سورة الإسراء ١٧ : ١٨ ـ ٢٠ .

(٤٦) كما لمسنا ذلك في تجارب ومصاديق هذه المثل المأساوية . حيث تحولت الجنان الموعودة من جراء الحرية في العالم الرأسمالي ، والاشتراكية في العالم الاشتراكي ، والقومية والوطنية في بقاع العالم الأخرىٰ . إلى جهنم تلهب بسياطها العجفاء بدن الإنسان المستضعف . ذلك الإنسان الذي أسهم إسهاماً حقيقياً في إيجاد هذا الدمار الذي اعتلى ظهره .

في الآخرة . إذن هذه المرحلة هي مرحلة الإبداع والتجديد .

المرحلة الثانية : وتبدأ حينما يتجمد هذا المثل الأعلى ، ويستنفد طاقته وقدرته على العطاء . حينئذ يتحول هذا المثل إلى تمثال [٤٧] ولا يبقى مثلاً . فيما يتحول القادة الذين كانوا يعطون ويوجهون على أساسه . إلى سادة وكبراء لا إلى قادة [٤٨] . أما جمهور الأمة فيتحول إلى مطيعين ومنقادين لا إلى مشاركين في الإبداع والتطوير . وهذه المرحلة هي المرحلة التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله ﴿ وقالوا رَبَّنا إنّا أطَعنا سَادَتَنا وكُبَراءَنا فأضلونا السَّبيلا ﴾[٤٩] .

المرحلة الثالثة : ثم تأتي المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة الامتداد التاريخي لهؤلاء . فهذه السلطة تتحول إلى طبقة بعد ذلك يتم توارث مقاعدها عائلياً، أو طبقياً وراثياً [٥٠] ، بشكل من أشكال الوراثة . وحينئذ تصبح هذه الطبقة ، هي الطبقة المترفة المنعمة الخالية من الأغراض الكبيرة ، والمشغولة بهمومها الصغيرة [٥١] . وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿ وَكَذٰلِكَ مَا أرسَلنا مِنْ قَبلِكَ في قَريةٍ مِن نذيرٍ إلاّ قالَ مُترَفُوها : إنّا وَجَدنا آباءَنا عَلىٰ أُمَّةٍ وإنّا عَلىٰ آثارِهم مُّقتَدُونَ . ﴾[٥٢] .

---

(٤٧) يتمتع هذا المثل ـ في المرحلة الأولى ـ بفاعلية الحركة إلى الأمام لأنه قد وضع له هدفاً معيناً يتصوره في الأفق . وهو يظل يتمتع بهذه الفاعلية ما دام لم يبلغ بعد هذا الهدف ويحققه . وهذه المرحلة هي مرحلة الانتعاش والحيوية بالنسبة إلى هذا المثل . غير أن هذه الفاعلية والانتعاش والحيوية ، لا يبقىٰ لوجودها أي مبرر . حين تبلغ المسيرة هذا الهدف . مما يؤدي بها إلى الجمود وعدم القدرة على العطاء وهذه هي صفة المرحلة الثانية .

(٤٨) في التاريخ ـ كما في أذهاننا ـ صور لنماذج عديدة من الشخصيات الثورية التي كانت في مرحلة معينة من حياتها تتمتع بصورة جيدة من صور التضحية والإيثار والفداء. غير أنها حالما تصل إلى تحقيق هدفها الثوري . تنقلب إلى شيء آخر يتناقض مع الصورة الأولى حتىٰ تبلغ صورتها مملوءة بمظاهر التسلط والتكبر .

(٤٩) سورة الأحزاب ٣٣ : ٦٧ .

(٥٠) إشارة إلى أنظمة الأحزاب الديكتاتورية وما يماثلها في هذا الشأن .

(٥١) الهموم الصغيرة : تعبير يشير إلى الحاجات الثانوية التي تهم الفرد بشكل ذاتي ، ولا علاقة لها بمصلحة الأمة ومآربها .

(٥٢) سورة الزخرف ٤٣ : ٢٣ .

إن هؤلاء نتاج آباء . وهم امتداد تاريخي لآباء لهم تاريخ ، وهذا الامتداد التاريخي تحول من مستوى مثل وعطاء إلى مستوى طبقة مترفة تتوارث هذا المقعد بشكل من أشكال التوارث .

المرحلة الرابعة : ـ وتبدأ حينما تتفتت الأمة ، وحينما تتمزق ، وحينما تفقد ولاءها لذلك المثل التكراري ـ في ضوء ما قلناه ـ ، وهي أخطر المراحل . ففي هذه المرحلة يسيطر عليها مجرموها ، ويسيطر عليها أناس لا يرعون عهداً ولا ذمة . وهذا هو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى ﴿ **وَكَذٰلِكَ جَعَلنا في كلِّ قَريةٍ أكابِرَ مُجرِميها لِيَمكرُوا فيها وَمَا يَمكُرُونَ إلاّ بأنفُسِهِمْ** ﴾ [٥٣] .

حينئذ يسيطر مجموعة من هؤلاء المجرمين كما سيطر هتلر والنازية مثلاً في جزء من أوروبا لكي يحطم كل ما في أوروبا من خير ، وكل ما في أوروبا من إبداع ولكي يقضي على كل تبعات ذلك المثل الأعلى الذي رفعه الإنسان الأوروبي الحديث ، والذي تحول بالتدريج إلى مثل تكراري ، ثم تفسخ هذا المثل . ولكن بقيت مكاسبه في المجتمع الأوروبي ، حينئذ يأتي شخص كهتلر لكي يمزق كل تلك المكاسب ، ويقضي عليها .

القسم الثالث : الله المثل المطلق الحقيقي .

إن النوع الثالث من المثل العليا هو المثل الأعلى الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى وفي هذا المثل سنلاحظ أن التناقض الذي واجهناه ـ فيما سبق ـ سوف يحل بأروع صورة . فلقد كنا نجد تناقضا حاصله هو أن الوجود الذهني للإنسان محدود . فيما أن المثل يجب أن يكون غير محدود . فكيف يمكن توفير المحدود وغير المحدود ؟ وكيف يمكن التنسيق بين المحدود وغير المحدود [٥٤] ؟ .

---

(٥٣) سورة الأنعام ٦ : ١٢٣ .

(٥٤) نلاحظ هذا التناقض حينما نمعن النظر في حقيقة أن الذهن البشري له طاقة محدودة في ملاحقة الآفاق المستقبلية للمسيرة التي تسير عليها البشرية . وحينما تكون هذه الطاقة محدودة . تعمل باستمرار على ملاحقة آفاق ملحوظة فيؤدي بها ذلك دوماً إلى الوقوع في المطبات الحضارية . مما يعني زيادة الآلام وتكريس المعاناة . وذلك لأن هذه الطاقة ستنتج دائماً ـ على افتراض حيويتها ـ أهدافاً محدودة . ولمعالجة ذلك ينبغي أن يكون الهدف الذي تسعى إليه المسيرة البشرية متصفاً بصفة =

إن هذا التنسيق بين المحدود وغير المحدود سوف نجده في المثل الأعلىٰ الذي هو الله سبحانه وتعالى . .

لماذا . . . ؟

وذلك لأن هذا المثل الأعلى ليس من نتاج الإنسان ، وليس إفرازاً ذهنياً للإنسان ، بل هو مثل أعلى عيني وله واقع عيني . فهو موجود مطلق في الخارج له قدرته المطلقة ، وله علمه المطلق ، وله عدله المطلق .

إن هذا الموجود العيني بواقع العين يكون مثلاً أعلى لأنه مطلق ، لكن الإنسان حينما يريد أن يستلهم من هذا النور،وحينما يريد أن يمسك بحزمة من هذا النور ، فهو لا يمسك إلا بالمقيد، وإلا بقدر محدود من هذا النور . غير أنه

= اللامحدودية . من أجل أن تبقىٰ الحركة الإنسانية متوقدة ومتوهجة بالعطاء . فيما يكون الإنسان دوماً قادراً على البذل والإبداع . ولكن هذا العلاج يبقىٰ دائماً غير متوفر ومتيسر للإنسان ما دام يتابع العملية بذهنه المحدود . ويحاول العثور عليه من خلال طاقته المحدودة .

إن هذا التناقض لا يحله الافتراض الخيالي الذي يقول بأن مجموع الخبرة البشرية والطاقة العقلية للأناس الذين يتمتعون بصفات عقلية غير طبيعية أو ما يسميه نيتشه بالإنسان الأعلى « السوبرمان » يمكنهم دوماً من العثور على أهداف يمكن وصفها باللامحدودية . وسواء توافر ذلك أو ظل مجرد افتراض عقلي ـ إلا أنه سوف يقع في تناقض آخر منشأه أن الإنسان حينما يسير إلى الهدف الذي قلنا إنه يجب أن يكون بعيداً دائماً وغير محدود يحتاج دوماً إلى الحوافز والبواعث الكافية والضمانات العملية التي تشعره بأنه سائر في طريق الهدف فعلاً وبعبارة أخرىٰ : إنه في مساره الدائم نحو هذا الهدف يجب أن يلاحظ هذا الهدف دائماً ، ويلمس عملية السير باتجاهه .

وهذا أمر لا يمكن تحقيقه ، إلا من خلال المثل المطلق الحقيقي ، وهو الله سبحانه وتعالى . إذ إن هذا المثل يحل التناقض الأول من خلال كونه مثلاً لا محدودية له مطلقاً . فيما يحل التناقض الثاني وذلك باعتبار أن الإنسان قادر دوماً على رؤيته المعنوية والانتهال من معينه . ولكن هذا المعين لا نضوب له . ولعل ما أشير إليه من أن صفتا القرب والبعد المطلقتين هما من صفات الله سبحانه وتعالى ما يكفي للتعبير عن حل هذا التناقض . ومما يبدو أن الآيتين الكريمتين التاليتين تولتا الإفصاح عن هذا المعنىٰ . فأشارتا إلى القرب الإلهي قال عزّ من قائل : ـ ﴿ وإذا سألَكَ عِبادِي عَنِّي فأنِّي قَرِيبٌ ، أجيبُ دَعْوةَ الدّاعِ إذا دَعانِ . . ﴾سورة البقرة ٢ : ١٨٦ .

أما مسألة البعد الإلهي فلعلنا نتلمسها من خلال منطوق هذه الآية التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى ضمن حواره مع النبي موسىٰ ع ﴿ قَالَ رَبِّ أرِنِي أنْظُرَ إليكَ ، قال : لَنْ تراني . . ﴾ سورة الأعراف ٧ : ١٤٣ .

لا يميز بين ما يمسك به ، وبين مثله الأعلى ، فالمثل الأعلى خارج ذهنه لكنه يمسك بحزمة من النور ، وهذه الحزمة مقيدة لكن المثل الأعلى مطلق .

ومن هنا حرص الإسلام على التمييز دائماً بين الوجود الذهني ، وما بين الله سبحانه وتعالى الذي هو المثل الأعلىٰ . فلقد فرق حتىٰ بين الاسم والمسمىٰ وأكد على أنه لا يجوز عبادة الاسم ، وإنما العبادة تكون للمسمّىٰ ، لأن الاسم ليس إلا وجوداً ذهنياً . وإلا واجهة ذهنية لله سبحانه وتعالى . بينما الواجهات الذهنية محدودة دائماً . أما العبادة فيجب أن تكون للمسمىٰ لا للاسم ، لأن المسمىٰ هو المطلق. اما الاسم فهو مقيد، ومحدود . فالواجهات الذهنية تبقىٰ كواجهات ذهنية محدودة مرحلية ، وأما صفة المثل الأعلى فتبقىٰ قائمة بالله سبحانه وتعالى . وهذا ما يأتي إن شاء الله توضيحه [٥٥] .

الكدح الإنساني إلى الله

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أَيُّها الإنسانُ إنَّكَ كادحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ** . . ﴾ [٥٦] .

إن هذه الآية الكريمة تضع الله سبحانه وتعالىٰ هدفاً أعلى للإنسان ، والإنسان هنا بمعنىٰ الإنسانية ككل [٥٧] ، فالإنسانية بمجموعها تكدح نحو الله سبحانه وتعالى ، والكدح يعني السير المستمر المقرون بالمعاناة وبالجهد وبالمجاهدة . لأن هذا السير ليس سيراً اعتيادياً . بل هو سير ارتقائي وهو تصاعد وتكامل وهو سير تسلق . فهؤلاء الذين يتسلقون الجبال ليصلوا إلى القمم إنما يكدحون نحو هذه القمم ويسيرون سير معاناة وجهد . كذلك الإنسانية فهي حينما تكدح نحو الله فإنما هي تتسلق إلى قمم كمالها وتكاملها وتطورها إلى الأفضل باستمرار .

---

(٥٥) إلى هنا تنتهي المحاضرة العاشرة . وما يأتي بعدها مباشرة هو المحاضرة الحادية عشرة والتي سبق أن القيت في يوم الثلاثاء الموافق فيه الرابع والعشرون من شهر جمادى الثانية عام ١٣٩٩ .

(٥٦) سورة الانشقاق ٨٤ : ٦ .

(٥٧) حينما يأتي الخطاب القرآني موجهاً إلى الناس ، أو إلى الإنسان ، أو إلى الإنس فإنه موجه إلى الإنسانية بمجموعها . وهو عادة ما يشير إلى قانون اجتماعي أو أخلاقي عام .

إن هـذا السير الـذي يحتوي عـلى المعانـاة باستمـرار ، يفترض طـريقـاً لا محالة ، إذ إن السير نحو هدف يفترض ـ حتمـاً ـ طريقـاً ممتداً بـين السائـر وبين ذلك الهدف ، وهذا الطريق هو الذي تحـدثت عنه الآيـات الكريمـة في المواضـع المتفرقة تحت اسم : سبيل الله واسم الصراط ، واسم صراط الله . وهذه الصيغ القرآنية المتعددة كلها تتحدث عن الطريق الـذي يفترضـه ذلك السـير ، وكما أن السير يفترض الطريق ، كذلك الطريق يفترض السير أيضاً ، وهذه الآية الكريمة ﴿ يا أَيُّها الإنسان إنَّكَ كادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدحاً فَمُلاقيه . . ﴾ .

تتحـدث عن حقيقة قـائمة ، وعن واقـع موضـوعي ثـابت ، فهي ليست بصـدد أن تدعـو الناس إلى أن يسيـروا في طريق الله سبحـانه وتعـالى ، كـما أنها ليست بصـدد الطلب والتحـريك كـما هي الحال في آيـات أخرى وفي مقـامـات وسياقات قرآنية أخرىٰ [٥٨] .

إن الآية الكريمة لا تقول يا أيها الناس تعالوا إلى سبيل الله ، أو تـوبوا إلى الله بل تقول ﴿ يا أَيُّها الإنسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلى رَبِّكَ كدَحاً فَمُـلاقيه . . ﴾ وإنما لغة الآية ، هي لغة التحدث عن واقع ثابت وحقيقة قائمـة ، وهي أن كل سـير وكل تقدم للإنسان في مسيرته التاريخية الطويلة الأمد ، فهو تقدم وسـير نحو الله سبحانه وتعالى . وهذا يشمل حتىٰ تلك الجماعات التي تمسكت بالمثـل المنخفضة والآلهة المصطنعـة واستطاعت أن تحقق لهـا سيراً ضمن خـطوة على هـذا الطريق الـطويل . نعم حتىٰ هـذه الجماعـات التي يسميها القـرآن بالمشـركين تسـير هذه الخطوة نحو الله ، وهـذا التقدم بقـدر فاعليتـه وبقدر زخمـه هو اقتـراب نحو الله سبحـانه وتعـالى ، ولكن مع حفظ الفـارق بـين تقـدم مسؤول وبـين تقـدم غـير مسؤول (على ما يأتي شرحه إن شاء الله) .

إن الإنسانية حينما تتقدم في هذا المسار واعية المثل الأعلى وعياً موضوعياً فإن التقدم الحاصل يكون تقدماً مسؤولاً ، أو بعبارة أخـرىٰ : يكون عبـادة وفق

---

(٥٨) لأن هذا النمط من الخطاب الإلهي يوجه قرآنياً إلى الجماعة المؤمنة فيأتي الخطاب مبتدئاً بكلمات من قبيل : يا أيها الذين آمنوا إنما المؤمنون وقل للمؤمنين . . وما شاكل . أما هذا الخطاب فهو يشمل كل البشرية دون أن يفرق بين مؤمنها وفاسقها وكافرها ومشركها .

لغة الفقه . ويغدو لوناً من العبادة يكون له امتـداد على الخط الـطويل وانسجـام مع الوضع العريض للكون . وأما حينـما يكون التقـدم منفصلاً عن الـوعي على ذلك المثل فهو تقدم على أي حال ، وسير نحو الله عـلى أي حال ، ولكنـه تقدم غير مسؤول على ما يأتي تفصيله .

إذن كـل تقدم . هـو تقـدم نحـو الله ، حتىٰ أولئـك الـذين ركضـوا وراء السراب الاجتماعي ـ كما تحدثت الآية الكريمة ـ ووراء المثل المنخفضة فإنهم حينـما يصلون إلى هذا السراب لا يجدون شيئاً ، ويجـدون الله سبحانـه وتعالى فيـوفيهم حسابهم ـ كما تتحدث الآية الكريمة التي قرآناها فيما سبق .

إن الله سبحانه وتعالى هو نهاية هذا الطريق ، ولكنه ليس نهاية جغرافية ، وليس نهاية على نمط النهايات الجغـرافية للطريق الممتـدة مكانيـاً . فكربـلاء مثلاً هي نهاية طريق ممتد بين النجف وكربلاء . إن كربلاء هنا ـ بمعناها المكاني ـ هي نهاية جغرافية ، ومعنىٰ أنها نهاية جغرافية أنها مـوجودة في آخـر الطريق . وليست مـوجودة عـلى طول الـطريق فلو أن إنسانـاً سـار نحـو كـربـلاء ووقف في نصف الـطريق فـإنـه لا يحصـل عـلى شيء من كـربـلاء ، بـل ولا يحصـل عـلى حفنـة من تـراب كـربـلاء إطـلاقـاً . لأن كـربـلاء هي نهايـة جغـرافيـة مـوجـودة في آخر الطريق . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس نهاية على نمط النهايات الجغرافية ، فحيث أن الله سبحانه وتعالى هو المـطلق الحقيقي العيني وهو المثـل الأعلى . إذن فهو موجود على طـول الطريق أيضـاً . وليس هناك فـراغ منه أو انحسار عنـه أو حد له . إن الله سبحانه وتعالى هو نهاية الطريق ولكنـه موجـود أيضاً عـلى طول الطريق . ولهذا فإن من وصل إلى نصف الطريق ، أو وصل إلى سرابه ، فتوقف واكتشف أنه سراب . . ماذا سيجد ؟ . . إنه وجد الله فـوفاه حسـابه ـ وفق الآيـة الكريمة . وذلك لأن المطلق موجود عـلى طول الـطريق ، وبقدر زخم الـطريق ، وبقدر التقدم في الطريق يجد الإنسان مثله الأعلى الحقيقي ، ويلقىٰ الله سبحـانه وتعالى أينما توقف بحجمْ سيره ، وبحجم تقدمه في هذا الطريق .

وبحكم أن الله سبحـانه وتعـالى هو المـطلق ، إذن فـإن الـطريق أيضـاً لا ينتهي ، وهـذا الطريق (طـريق الإنسان) نحـو الله هو اقتـراب مستمر ، بقـدر

التقدم الحقيقي نحو الله . ولكن هذا الاقتراب يبقىٰ اقتراباً نسبياً ويبقىٰ مجرد خطوات على الطريق من دون أن يُجتاز هذا الطريق ، لأن المحدود لا يصل إلى المطلق ، ولأن الكائن المتناهي لا يمكن أن يصل إلى اللامتناهي .

اذن فالفسحة الممتدة بين الإنسان ، وبين المثل الأعلى هنا هي فسحة لا متناهية ، أي أنه ترك له مجال الإبداع إلى اللانهاية . ومجال التطور التكاملي إلى اللانهاية ، باعتبار أن الطريق الممتد طريق لا نهائي .

الله والتغييرات الكمية والكيفية في المسيرة

إن هذا المثل الأعلى الحقيقي حينما تتبناه المسيرة الإنسانية ، وتوفق بين وعيها البشري والواقع الكوني الذي يفترض هذا المثل الأعلى حقيقة قائمة كما افترضته الآية . وبكلمة أخرىٰ إن المسيرة الإنسانية حينما توفق بين وعيها بالمسيرة وبين الواقع الكوني لهذه المسيرة بوصفها سائرة ومتجهة نحو الله فإنه سوف يحدث تغيير كمي وكيفي على هذه المسيرة وهذه الحركة .

أولاً : التغيير الكمي : ـ أما التغيير الكمي على هذه الحركة فهو باعتبار ما أشرنا اليه من أن الطريق حينما يكون طريقاً إلى المثل الأعلى الحق يكون طريقاً غير متناه . أي أن مجال التطور والإبداع ، والنمو قائم أبداً ودائماً ، ومفتوح للإنسان باستمرار من دون توقف ، إن هذا المثل الأعلى حينما يُتبنى سوف تمسح من الطريق كل الآلهة المزورة ، وكل الأصنام والأقزام المتصنمة التي تقف على طريق الإنسان كعقبة بين الإنسان وبين وصوله إلى الله سبحانه وتعالى .

ومن هنا كان دين التوحيد صراعاً مستمراً مع مختلف أشكال الآلهة والمثل المنخفضة والتكرارية التي حاولت أن تحد من كمية الحركة ومن أن توصل الحركة إلى نقطة تقول : قف أيها الإنسان !

إن هذه الآلهة التي أرادت أن توقف الإنسان في وسط الطريق ، وفي نقطة معينة . كان دين التوحيد على مر التاريخ حامل لواء المعركة ضدها ، ولهذا فإن هذا المثل الأعلى سوف يحدث تغييراً كمياً على الحركة لأنه سوف يطلقها من

عقالها ، ويخلصها من هذه الحدود المصطنعة لكي تسير باستمرار (٥٩) .

ثانياً : التغيير الكيفي : ـ وأما التغيير الكيفي الذي يحدثه المثل الأعلى على هذه المسيرة ، فيتمثل بأنه القادر الوحيد على إعطاء الحل الموضوعي للجدل الإنساني ، وللتناقض الإنساني ، أي بمعنىٰ إعطاء الشعور بالمسؤولية الموضوعية لدىٰ الإنسان وذلك لأن الإنسان من خلال إيمانه بهذا المثل الأعلى ووعيه في طريقه ، بحدوده الكونية الواقعية ، ينشأ لديه بصورة موضوعية شعور معمق بالمسؤولية تجاه هذا المثل الأعلى . وذلك لأول مرة في تاريخ المثل البشرية التي حركت البشر على مر التاريخ .

أما . . لماذا . . ؟

فلأن هذا المثل الأعلى هو حقيقة وواقع عيني منفصل عن الإنسان ، وبهذا يعطي للمسؤولية شرطها المنطقي ، وذلك لأن المسؤولية الحقيقية لا تقوم إلا بين جهتين : ـ مسؤول ، ومسؤول لديه . فإذا لم يكن هناك جهة أعلى من هذا الكائن المسؤول ، وإذا لم يكن هذا الكائن المسؤول مؤمناً بأنه بين يدي جهة أعلىٰ فلا يمكن أن يكون شعوره بالمسؤولية شعوراً موضوعياً ، وشعوراً حقيقياً (٦٠) .

---

(٥٩) وذلك باعتبار أن المثل والآلهة المنخفضة ترغم المسيرة البشرية ـ شاءت أم أبت ـ على اختيار أهداف محدودة ومتناهية أو إيقاف هذه المسيرة ـ وفق نمطي المثلين ـ . وهي بعملها هذا تكون في الوقت نفسه قد وضعت القيود في عجلة هذه المسيرة . إن دين التوحيد برفضه لهذه الآلهة المزيفة يكون في الوقت نفسه قد عمل على تحطيم هذه القيود وتحرير المسيرة من إسارها من أجل أن لا تكتفي بأهداف مزيفة أو تتوقف عند محطات الانهيار !! .

(٦٠) إن التجربة الحضارية المعاصرة قد قدمت أدلة حية ودامعة على صحة هذه المقولة . فبالرغم من الإمكانات الهائلة المتوافرة لدى العالم المعاصر ـ ضمن معسكري الشرق والغرب ـ على تدعيم وسائل الضبط الاجتماعي بالسبل الممكنة كافة سواء على مستوىٰ الخبرة الفنية أو التقنية التكنلوجية أو أساليب التخاطب والاقناع والتأثير مع الفرد والمجتمع .أو الدعم القانوني ، أو توسيع رقعة الرقابة القانونية أو التجسسية . غير أن ذلك كله لم يؤثر حتىٰ في إيقاف وتائر الجرائم الجنائية والاجتماعية عند سقفها ، بل إنه لم يمنع من أن تقفز الخطوط البيانية لهذه الوتائر قفزات قياسية جداً . دون فرق يذكر بين أن يكون هذا المجتمع محكوماً من قبل أنظمة حكم مركزية أو لا مركزية ، متشددة أو متساهلة ، عقائدية أو غير ذلك . =

فمثلاً تلك المثل المنخفضة ، وتلك الآلهة والأقزام المتعملقة على مر التاريخ ، وعلى مر المسيرة البشرية لم تكن في الحقيقة ـ وكما رأينا وحللنا ـ إلا إفرازاً بشرياً وإلا انتاجاً إنسانياً . بمعنىٰ أنها جزء من الإنسان وكيانه . والإنسان لا يمكنه أن يستشعر بصورة موضوعية حقيقية ، المسؤولية تجاه ما يفرزه وتجاه ما يصنعه هو : ﴿ إنْ هيَ إلاّ أسماءٌ سَمَّيتُمُوها . . ﴾ [٦١] .

إن تلك المثل لا تصنع الشعور الموضوعي بالمسؤولية . نعم قد تصنع قوانين ، وقد تصنع عادات وأخلاق . ولكنها كلها غطاء ظاهري فكلما وجد هذا الإنسان مجالاً للتحلل من هذه العادات والأخلاق والقوانين فسوف يتحلل .

عظمة المسؤولية في شعور الأنبياء (ع)

بينما المثل الأعلى لدين التوحيد ، وللأنبياء على مر التاريخ ، باعتباره واقعاً عينياً منفصلاً عن الإنسان ، وباعتباره جهة أعلى من الإنسان ، وليس إفرازاً بشرياً ، وليس إنتاجاً إنسانياً. فسوف يوصل هذا الإنسان للشعور

= إن هذه الامور بمجموعها تشير إلى حقيقة عدم وجود شعور موضوعي بالمسؤولية في هذه المجتمعات ، حيث إن هذا الشعور يوفره إجبارياً رجل البوليس . ليس إلا . أما إذا غاب هذا الرجل ، أو كان هذا هو الآخر متواطىء في هذا الأمر نفسه . فحدث ولا حرج . ومن يتذكر حادثة نيويورك عام ١٩٧٢ التي انقطع فيها الكهرباء لمدة (١٢ ساعة) ويقرأ أرقام الجرائم الجنائية والاجتماعية الهائلة جداً . يستوعب هذا الأمر بدقة .

غير أن الصورة تختلف تماماً في المجتمعات الإسلامية التي على الرغم من أن الإسلام لا يحكم غالبية أوضاعها . وعلى الرغم من أن هناك العديد من الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية التي تشجع على التجرؤ على ما تبقىٰ من أنظمة اجتماعية وأخلاقية إسلامية . غير أن نسبة الجرائم متدنية بشكل هائل عن نسبتها في المجتمعات اللاإسلامية . وهذا التدني ـ في الواقع لا يعزىٰ إلى وجود التأثير الإسلامي المباشر في أفراد المجتمع الإسلامي فحسب . إذ إن هذا التأثير ما زال في طور العودة إلى الحياة الاجتماعية . وليس مهيمناً على هذه الحياة . ولكن هذا التدني يرجع إلى وجود متبقيات الرواسب لدىٰ هذا المجتمع من تعاليم الإسلام . وإلى آثار عقائدية لم تمحوها الهجمة المعادية للإسلام من أذهان أبناء هذا المجتمع . حيث لا زال شعور الخوف من الله هو الأساس للعديد من مشاعر التي تحتفظ بقدر مهم من حب المسؤولية والتضحية من أجل المجموع . حتىٰ وإن تغطت هذه المشاعر بأغطية وستائر تحمل أسماء أخرىٰ .

(٦١) سورة النجم ٥٣ : ٢٣ .

بالمسؤولية وفق شرطه الموضوعي في المقام . ويتجلىٰ هذا الأمر بوضوح من خلال مسيرة الأنبياء . فلماذا كان الأنبياء على مر التاريخ أصلب الثوار وأنظف الثوار على الساحة التاريخية ؟ .

ولماذا كانوا على الساحة التاريخية فوق كل مساومة ومهادنة ، وفوق كل تململ يميناً أو يساراً ؟ .

ولماذا انهار كثير من الثوار ـ على مر التاريخ ـ ولم نسمع أن نبياً من أنبياء التوحيد قد انهار ، أو تململ ، أو انحرف يميناً أو يساراً عن الرسالة التي بيده و عن الكتاب الذي يحمله من السماء ؟

إنهم كانوا كذلك . . لأن المثل الأعلى المنفصل عنه والذي هو فوقه . هو الذي أعطاه نفحة موضوعية من الشعور بالمسؤولية ، وهذا الشعور بالمسؤولية تجسد في كل كيانه . وفي كل مشاعره وأفكاره وعواطفه . ومن هنا كان النبي معصوماً على مر التاريخ (٦٢) .

اذن هذا المثل الأعلى بحسب الحقيقة يحدث تغييراً كيفياً على المسيرة ، لأنه يعطي الشعور بالمسؤولية . وهذا الشعور بالمسؤولية ليس أمراً عرضياً أو ثانوياً في

---

(٦٢) أثبتنا في كتابنا «القائد القيادة والانقياد» أن النبي لا بد من أن يكون معصوماً لأنعدم عصمته يؤدي إلى وجود تناقض بين طبيعة الإنسان ودور النبي . فالله سبحانه وتعالى حينما يطلب من الناس العمل وفق تشريعاته . فلا بد من أن يكون المبلغ عنه معصوماً عن الخطأ حتى لا يجتمع متضادان في مقام واحد . فمن جهة أمر الله بالابتعاد عن الخطأ عبر طاعة الرسول ومن جهة سلوك النبي الخاطىء ـ حاشىٰ لله ـ مما ينفي أصل التشريع لأنه يسلبه المصداقية التي تلزمه . وحينئذ لا يجد الناس أي ضير من ارتكاب الخطأ باعتبار أن نبي الله سبحانه وتعالى يفعل الخطأ . وهو أمر لا يمكن تعقله نظراً لأن الله سبحانه وتعالى عبر كتابه الكريم قد دعا المسلمين إلى الايمان بجميع الأنبياء من دون أي استثناء﴿ آمَنَ الرَّسولُ بما أُنزِلَ إليه مِن رَبِّه والمُؤمِنونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِن رُسُلِهِ ﴾ سورة البقرة ٢ : ٢٨٥ .
﴿ وَمَنْ يَكفُر باللهِ وَملائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ واليَومِ الآخِرِ فَقَد ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً ﴾ سورة النساء ٤ : ١٣٦ .
وهذه الدعوة التي تتميز بإطلاقها تستدعي رضاء مطلقاً من قبل الله سبحانه وتعالى عن أنبيائه وهو أمر لا يتيسر من دون عصمة .

مسيرة الإنسان ، بل هو شرط أساسي في إمكان إنجاح هذه المسيرة ، وتقديم الحل الموضوعي للتناقض الإنساني . وللجدل الإنساني ، لأن الإنسان يعيش تناقضاً ، لأنه في الأساس تركيب من حفنة من تراب ، ونفحة من روح الله سبحانه وتعالى كما وصفت ذلك الآيات الكريمة [٦٣] . حيث قالت بأن الإنسان خلق من تراب ، وأنه قد نفخ فيه من روح الله سبحانه وتعالى .

إذن فهو مجموع نقيضين اجتمعا والتحما في الإنسان . حيث إن حفنة التراب تجره إلى الأرض ، وتجره إلى الشهوات والميول ، وتجره إلى كل ما ترمز إليه الأرض من انحدار وانحطاط . فيما تجره روح الله سبحانه وتعالى التي نفخها فيه ، إلى أعلى ، وتتسامى بإنسانيته إلى حيث صفات الله ، وإلى أخلاق الله (تخلقوا بأخلاق الله) وإلى حيث العلم الذي لا حد له ، والقدرة التي لا حد لها ، وإلى حيث العدل الذي لا حد له ، وإلى حيث الجود والرحمة والانتقام ، وسائر هذه الأخلاق الإلهية .

إن هذا الإنسان واقع في تيار هذا التناقض . وفي تيار هذا الجدل بحسب محتواه النفسي ، وتركيبه الداخلي ، وهذا الجدل والتناقض الذي احتوته طبيعة الإنسان ، وشرحته قصة آدم ـ ع ـ له حل واحد فقط . وهذا الحل الذي يمكن أن يوضع لهذا التناقض هو الشعور بالمسؤولية ، ولكنه ليس الشعور المنبثق عن هذا الجدل نفسه . إذ إن الشعور المنبثق عن هذا الجدل ، هو ابن هذا الجدل ، بل هو إفراز هذا التناقض . وإنما الشعور الموضوعي بالمسؤولية لا يكفله إلا المثل الأعلى الذي يكون من جهة عليا . يحس الإنسان من خلالها بأنه بين يدي رب قادر سميع بصير محاسب ومُجاز على الظلم كما هو مُجاز على العدل .

إذن هذا الشعور الموضوعي بالمسؤولية الذي هو التغيير الكيفي على المسيرة هو في الحقيقة الحل الوحيد للتناقض وللجدل الذي تستبطنه طبيعة الإنسان وتركيبته .

---

(٦٣) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ مِنْ طينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِن ماءٍ مَهينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾سورة السجدة ٣٢ : ٧ ـ ٩

ما هي أسباب الصراع بين الأنبياء (ع) والمترفين ؟

إن دور دين التوحيد إذن هو عبارة عن تعبيد هذا الطريق الطويل ، وإزالة العوائق من خلال تنمية الحركة كما وكيفاً ، ومحاربة تلك المثل المصطنعة والمنخفضة التكرارية التي تريد أن تجمد الحركة من ناحية ، وأن تعريها من الشعور بالمسؤولية من ناحية أخرىٰ . ومن هنا كانت حرب الأنبياء ـ كما اشرنا ـ مع الآلهة المصطنعة على مرّ التاريخ .

ولما كان كل مثل من هذه المثل العليا التي تتحول إلى تمثال في ظروف تطورها ـ بالشكل الذي شرحناه فيما سبق ـ فإنها تجد في مجموعة من الناس مدافعين طبيعيين عنها باعتبار أن مجموعة من الناس ترتبط مصالحهم ، وترفهم وكيانهم المادي والدنيوي ببقاء هذا المثل الذي تحول إلى تمثال ، ولهذا يقف دائما هؤلاء الذين يرتبطون مصلحياً بهذا التمثال . في وجه الأنبياء (ع) ليدافعوا عن مصالحهم ودنياهم وترفهم [٦٤] .

ومن هنا أبرز القرآن الكريم سنة من سنن التاريخ ، وهي أن الأنبياء (ع) كانوا دائماً يواجهون المترفين من مجتمعاتهم كقطب آخر في المعارضة ، مع هذا النبي . لأن هذا المثال بعد أن تحول إلى تمثال . فمن هو المستفيد منه . . ؟

إن المستفيد منه هم المترفون في ذلك المجتمع ، والمنعمون على حساب الناس الذين يجعلون من هذا التمثال مبرراً لوجودهم . ومن هنا فإن من الطبيعي بمكان أن يكون هؤلاء المترفون ، وهؤلاء المستفيدون ، دائماً في الخط المعارض للأنبياء(ع). وهو الأمر الذي نلحظه في قوله تعالى : ـ ﴿ وكَذلِكَ ما

---

(٦٤) لابد من الإشارة إلى حقيقة أن نعت هؤلاء من قبل القرآن بصفة الجهل والجاهلية ، لايعني أنه متأتي من كونهم جميعاً يجهلون أن هذه التماثيل والأصنام لا تقدم لهم ضراً ولا نفعاً . حيث إن من المؤكد أن الغالبية منهم كانوا يعون تمام الوعي أن هذا التمثال والصنم لا يقدم أي ضر أو نفع لهم . غير أن التزامهم به يرتبط بقضية ارتباط هذا الالتزام بحفظ مصالحهم ومواقعهم الاجتماعية التي تمكنهم من خلالها من ابتزاز إرادة الجماهير التي غفّلت أو تغافلت بسبب قوة هؤلاء وقمعهم وتجبّرهم . أما الجاهلية فإنها ترجع في واقع الأمر إلى أن جميع هذه القيم (سواء الصغرىٰ منها أو الكبرىٰ ـ باصطلاح المناطقة ـ) هي من قيم الجاهلية وتنم عن جهل الإنسان بحقيقة مصالحه .

أرسَلنا مِن قَبلِكَ في قَريَةٍ مِن نَذيرٍ . إلاّ قالَ مُترَفوها : إنّا وَجَدنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنّا على آثارِهِم مُقتَدونَ ﴾ (٦٥) .

﴿ وَما أرسَلنا في قَريَةٍ مِن نَذيرٍ إلاّ قالَ مُترَفوها إنّا بِما أُرسِلتُم بِهِ كافِرونَ . . ﴾ (٦٦) .

﴿ سأصرِفُ عَن آياتيَ الذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأرضِ بغَيرِ الحَقِّ وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لا يُؤمِنُوا بها ، وإنْ يَرَواْ سَبيلَ الرُّشدِ لا يَتخِذُوهُ سَبيلاً وإنْ يَرَواْ سَبيلَ الغَيِّ يَتخِذُوهُ سَبيلاً ذَلِكَ بأَنَّهُمْ كَذَّبوا بِآياتِنا وَكانوا عنها غافِلين ﴾ (٦٧) .

﴿ وقالَ المَلأُ مِنْ قَومِهِ الذينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقاءِ الآخِرَةِ وأَترَفناهُم في الحَياةِ الدُّنيا ما هَذا إلاّ بَشَرٌ مِثلُكُم يَأكُلُ مِمّا تأكُلُونَ مِنهُ . وَيَشرَبُ مما تَشرَبونَ ﴾ (٦٨) .

إذن دين التوحيد هو الذي يستأصل مصالح هؤلاء المترفين من خلال القضاء على آلهتهم ومثلهم التي تحولت إلى تماثيل . وهو الذي يقطع صلة البشرية بهذه المثل العليا المنخفضة ولكنه لا يقطع صلتها بهذه المثل العليا المنخفضة لكي يطأ برأسها في التراب ، ولكي يحولها إلى كومة مادية ليس لها أشواق ، وليس لها طموحات ، وليس لها تطلعات إلى أعلى . كما هو شأن الثوار الماديين الذين يستلهمون من المادية التاريخية ، ومن الفهم المادي للتاريخ ، فأولئك يحاربون أيضاً هذه الآلهة المصطنعة ويسمونها أفيون الشعوب ، ونحن أيضاً نحارب هذه الآلهة المصطنعة ، ليس من أجل أن نحول الإنسان إلى حيوان ، ولا لكي نقطع صلة الإنسان بأشواقه العليا ونحول مساره من أعلى إلى أسفل ، وإنما نقطع صلة الإنسان بهذه المثل المنخفضة لكي نشده إلى المثل الأعلى ، ونشده إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

---

(٦٥) سورة الزخرف ٤٣ : ٢٣ .

(٦٦) سورة سبأ ٣٤ : ٣٤ .

(٦٧) سورة الأعراف ٧ : ١٤٦ .

(٦٨) سورة « المؤمنون » ٢٣ : ٣٣ .

مقومات دين التوحيد

إن تبني المسيرة البشرية هذا المثل الأعلى الحق الذي يحدث هذه التغييرات الكيفية والكمية على اتجاه المسيرة وحجمها يتوقف على عدة أمور : -

أولاً : - فهو يتوقف على وجود رؤية واضحة فكرياً وإيديولوجياً لهذا المثل الأعلى ، وهذه الرؤية الواضحة هي التي تقدمها عقيدة التوحيد - على مر التاريخ - حيث إن عقيدة التوحيد التي تنطوي على الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، فتوحد بين كل من المثل والغايات والطموحات ، والتطلعات البشرية ، وتجعلها تحت ظل هذا المثل الأعلى الذي هو علم وقدرة كله ، عدل ورحمة كله ، وانتقام من الجبارين كله . إن هذا المثل الأعلى الذي تتوحد فيه كل الطموحات والغايات هو الذي تعطينا عقيدة التوحيد رؤية واضحة له . وتعلمنا أن نتعامل مع صفات الله ، وأخلاق الله ، لا بوصفها حقائق عينية منفصلة عنا كما يتعامل فلاسفة الإغريق ، وإنما نتعامل مع هذه الصفات والأخلاق بوصفها رائداً عملياً وهدفاً لمسيرتنا العملية ، وبوصفها مؤشرات على الطريق الطويل للإنسان نحو الله سبحانه وتعالى . إذن فعقيدة التوحيد هي التي بإمكانها أن توفر هذه الرؤية الواضحة فكرياً وإيديولوجياً للمثل الأعلى .

ثانياً : - لابد من طاقة روحية مستمدة من هذا المثل الأعلى لكي تكون هذه الطاقة الروحية رصيداً ووقوداً مستمراً للإرادة البشرية - على مر التاريخ - وهذه الطاقة الروحية ، وهذا الوقود الذي يُستمد من الله سبحانه وتعالى يتمثل في عقيدة يوم القيامة . وفي عقيدة الحشر والامتداد [٦٩] . إذ إن عقيدة يوم

(٦٩) يسميها المصنف - رضوان الله عليه - عقيدة الامتداد ، وذلك باعتبار أنها تمثل العقيدة التي بموجبها يعتقد الإنسان أن حياته الدنيوية أو الأخروية إنما هي نقطة ومرحلة على طريق مسيرته . فيوم القيامة إنما هو امتداد لنهاية الحياة البشرية في الدنيا . مما يعني أن هذه الحياة لا تنقطع بموت الإنسان ولا تنبتر بدفنه تحت التراب . وإنما تمتد بعد ذلك إلى عالم البرزخ الذي يمثل الفترة الزمنية والتاريخية التي يقضيها الإنسان بين يوم دفنه ، وبين اللحيظات التي تسبق حشر الناس وجمعهم في يوم القيامة . ثم لتمتد أيضاً في عالم الحشر وهو العالم الذي تجتمع فيه أشلاء الإنسان مع روحه مرة ثانية ، ويبعث من جديد . ومن ثم ليجد نفسه وسط جموع البشرية قاطبة وهو يرى اليوم الذي تصفى فيه الحسابات فـ : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفسِهِ ، وَمَنْ أساءَ فَعَلَيها وَمارَبُّكَ بِظَّلامٍ للعَبيدِ** . . ﴾سورة فصلت ٤١ : ٤٦ .

القيامة تعلم الإنسان أن هذه الساحة التاريخية الصغيرة التي يلعب فيها الإنسان [٧٠] . . مرتبطة ارتباطاً مصيرياً بساحات برزخية ، وبساحات حشرية في عالم البرزخ والحشر . وأن مصير الإنسان في تلك الساحات العظيمة الهائلة مرتبط بدوره في هذه الساحة التاريخية . ولهذا فإن هذه العقيدة هي التي تعطي تلك الطاقة الروحية وذلك الوقود الرباني الذي ينعش إرادة الإنسان ويحفظ له دائماً قدرته على التجديد والاستمرار .

ثالثاً : ـ إن هذا المثل الأعلى ـ الذي سبق أن تحدثنا عنه ـ يختلف عن المثل العليا الأخرىٰ التكرارية والمنخفضة ـ التي تحدثنا عنها سابقاً ـ وذلك على أساس أن هذا المثل منفصل عن الإنسان ، وليس جزءاً من الإنسان ، أو من إفراز الإنسان ، وهو واقع عيني قائم هناك ، قائم في كل مكان ، وليس جزءاً من الإنسان وهذا الانفصال يفرض وجود صلة موضوعية بين الإنسان . وهذا المثل الأعلى . وهي الصلة التي لابد منها .

بينما المثل الأخرىٰ السابقة كانت إنسانية ، وكانت إفرازاً بشرياً ، ولا حاجة هنا إلى افتراض وجود صلة موضوعية . نعم هناك طواغيت وفراعنة ـ على مر التاريخ ـ نصبوا من أنفسهم صلات موضوعية بين البشرية ، وبين آلهة الشمس ، وآلهة الكواكب ، ولكنها صلة موضوعية مزيفة لأن الإله هناك كان وهماً ، وكان وجوداً ذهنياً وكان إفرازاً إنسانياً . أما هنا فالمثل الأعلى منفصل عن الإنسان . ولهذا كان لابد من صلة موضوعية تربط هذا الإنسان بذلك المثل الأعلى .

وهذه الصلة الموضوعية تتجسد في النبي (ص) وفي دور النبوة . فالنبي هو ذلك الإنسان الذي يركب بين الشرط الأول . والشرط الثاني بأمر الله سبحانه وتعالى [٧١] . أي بين رؤية إيديولوجية واضحة للمثل الأعلى وبين

---

(٧٠) دوره الفردي والاجتماعي عليها .

(٧١) أي أنه هو الإنسان الذي يقيم الارتباط العملي بين عقيدة التوحيد ، ومايترتب عليها من التزامات وتعهدات وإجراءات ، وبين عقيدة يوم القيامة وما يترتب على الإنسان إزاءها من استعدادات وتهيئات مسبقة . بمعنى أنه هو الذي يعلم الإنسان بتعليمات الله الخاصة بكيفية طي =

الطاقة الروحية المستمدة من الإيمان بيوم القيامة . وهو يركب بين هذين العنصرين ثم يجسد بدور النبوة ، الصلة بين المثل الأعلى والبشرية ليحمل هذا المركب إلى البشرية بشيراً ونذيراً .

رابعاً : ـ إن البشرية بعد أن تدخل مرحلة يسميها القرآن مرحلة الاختلاف ـ على ما يأتي إن شاء الله شرحه في الدروس القادمة ـ[٧٢] فسوف لن يكفي مجيء البشير النذير لأن مرحلة الاختلاف تعني مرحلة انتصاب تلك المثل المنخفضة أو التكرارية . وتعني وجود تلك الآلهة المزورة على الطريق . كما أنها تعني وجود تلك الحواجب والعوائق عن الله سبحانه وتعالى . وهذا ما يفرض على البشرية أن تخوض معركة ضد الآلهة المصطنعة . وضد تلك الطواغيت والمثل المنخفضة التي تنصب من نفسها قيماً على البشرية ، وحاجزاً وقاطع طريق بالنسبة للمسيرة التاريخية . ولا بد من معركة ضد هذه الآلهه ، ولابد من قيادة تتبنى هذه المعركة ، وهذه القيادة هي الإمامة . وهي دور الإمامة ، حيث إن الإمام هو القائد الذي يتولى هذه المعركة .

إن دور الإمامة يندمج مع دور النبوة في مرحلة من النبوة يتحدث عنها

= الطريق الذي يترتب الالتزام به على الذي يؤمن بعقيدة التوحيد . بشكل من شأنه أن يوصله إلى آخر نقطة يتمكن من الوصول إليها وهو يحظىٰ بسجل نظيف يضمن له سعادة يوم القيامة وقد تطرقنا في فصل : الأصول الفكرية للقيادة في الإسلام من كتابنا القيادة والانقياد بشكل مفصل إلى فلسفة النبوة ودورها كقيادة للبشرية وكحلقة وصل بينها وبين القيادة العليا الأساسية لها المتمثلة بالله سبحانه وتعالى .

(٧٢) يرىٰ السيد الشهيد بأن القرآن يقسم حياة الإنسان في الأرض إلى ثلاثة أدوار تاريخية ، وهي دور الحضانة ودور الوحدة ودور الاختلاف والتشتت وذلك في آخر هذه المحاضرات . وقد أشار إلى هذا الموضوع إشارة عابرة ووعد أنه سيتحدث عنه في المحاضرة اللاحقة . إلا أن الظروف التي حجبت عنه إمكانية متابعة المحاضرات ـ وهي التي أشرنا إليها في مقدمة الكتاب منعته من إتمام الحديث عن ذلك . ويبدو أن هناك دوراً رابعاً هو الذي يأتي من بعد دور الاختلاف والتشتت وهو دور مجتمع الأئمة والوارثين أو ما يسمىٰ تطبيقيا باليوم الموعود الذي يسود فيه القسط والعدل بدلاً من كل ألوان الظلم والجور على يد الإمام المهدي ـ عجل الله تعالى فرجه ـ ولعلنا نفصل الحديث عن ذلك في آخر هذا الفصل .

القرآن وسوف نتحدث عنها [٧٣] إن شاء الله تعالى ، ونقول بأنها بدأت في أكبر

---

(٧٣) وهي التي أشار إليها القرآن الكريم في آيات عديدة أبرزها دلالة ما تمثل في قوله سبحانه وتعالى ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللهَ وَأطيعوا الرَّسُولَ وأُوْلِي الأمرِ مِنكُم . . ﴾سورة النساء ٤ : ٥٩ .

حيث تظهر الآية الكريمة وجود تمييز بين الرسول (ص) وفئة أولي الأمر في نفس الوقت الذي طلب إطاعة الرسول (ص) وفئة أولي الامر بشكل مطلق مما يعني عصمة الفئتين على حد سواء . وإلا لما أمر الله بطاعتهما بهذا الشكل المطلق وغير المقيد بأي قيد . وهو الأمر الذي يشير إلى أن الامامة تماثل النبوة في صلاحياتها ومسؤولياتها . سوى أنها ليست في درجة النبوة . وكونها الحلقة القيادية الثالثة بعد الله ـ عز وجل والرسول (ص) .ضمن تفصيل استعرضناه في كتابنا: « القيادة والانقياد » وكذلك قوله تعالى ﴿ إنَّما أنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِ قَومٍ هادٍ ﴾سورة الرعد ١٣ : ٧ وهو تمييز له دلالة واضحة على وجود وظيفتين رساليتين تكمل الأخرى ما انتهت إليه أولاهما .

وكذلك قوله تعالى ﴿ إنَّا أنزلنا التُّوراةَ فيها هُدىً ونور يحكُمُ بهاالنَّبِيُّونَ الذَّينَ أسلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا والرَّبَّانِيونَ والأحبارُ بما استُحفِظُوا مِن كِتابِ اللهِ وكانُوا عَلَيهِ شُهدَاءَ . . . ﴾سورة المائدة ٥ : ٤٤ .

وفي هذه الآية نلاحظ التمييز ذاته حيث تشير الآية إلى وجود ثلاث درجات أولاها الأنبياء والمعبر عنها بكلمة الذين هادوا . والأئمة المعبر عنها بعبارة : (الربانيون) . والتي يقول عنها السيد الشهيد وعن كلمة الأحبار أن « الأحبار هم علماء الشريعة ، والربانيون درجة وسطى بين النبي والعالم وهي درجة الامام * » .

أما هل أشير فعلاً وبشكل صريح إلى هذه الدرجة ؟ إن قوله تعالى يتكفل بالجواب على ذلك فعلى الرغم من ثبوت نبوة إسحاق ويعقوب ـ عليهما السلام ـ إلا أنه في الآية التالية يخاطبهم بقوله : ﴿ وَوَهَبنا لَهُ إسحاقَ ويَعقُوبَ نافِلَةً وكُلاً جَعَلنا صالِحِينَ * وَجَعلناهُم أئمَةً يهدون بأمرِنا وَأوحَينا إلَيهِم فِعَلَ الخَيراتِ وَإقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ . وَكانُوا لَنا عابِدينَ . . ﴾سورة الأنبياء ٢١ : ٧٣ .

هذا إضافة إلى عدة آيات أخرى اتجهت هذا الاتجاه نفسه وعن أسماء أخرى من الأنبياء (ع) .

أما عن طبيعة الوظيفة التي يضطلع بها الإمام (ع) فقد أشار السيد الشهيد في مكان آخر إلى ذلك قائلاً « وليس صنع مجتمع التوحيد بالأمر الهين . لأنه ثورة على الجاهلية بكل جذورها وتطهير للمحتوى النفسي والفكري للمجتمع من جذور الاستغلال ومشاعره ودوافعه ، ومن هنا كان شوط الثورة أطول عادة من العمر الاعتيادي للرسول القائد ، وكان لابد للرسول من أن يترك الثورة في وسط الطريق ، ليلتحق بالرفيق الأعلى ، وهي في خضم أمواج المعركة بين الحق والباطل . . .

ومن الواضح أن الحفاظ على الثورة ـ وهي بعد لم تحقق بصورة نهائية مجتمع التوحيد ـ يفرض أن يمتد دور النبي في قائد رباني يمارس خلافة الله على الأرض ، وتربية الجماعة وإعدادها ويكون شهيداً في الوقت نفسه ، وهذا القائد الرباني هو الإمام . . فالإمام كالنبي شهيد وخليفة لله في=

الظن مع نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ [٧٤] ولكنه يمتد حتىٰ بعد النبي فإذا ترك

الأرض من أجل أن يواصل الحفاظ على الثورة وتحقيق أهدافها غير أن جزءاً من دور الرسول يكون قد اكتمل وهو إعطاء الرسالة والتبشير بها والبدء بالثورة الاجتماعية على أساسها . . . » .

أما الإمام فهو « ليس صاحب رسالة ولا يأتي بدين جديد بل هو المؤتمن على الرسالة والثورة التي جاء بها الرسول »* * .

ورغم أن السيد الشهيد ـ رض ـ وعد بأنه سيتحدث عن ذلك في هذه المحاضرات غير أن محاضراته انقطعت قبل ذلك . ولكنه تحدث بشكل مختصر عن ذلك فيما بعد وذلك في كتابه « خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء » .

* انظر خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء . دار التعارف (بيروت ـ ١٩٧٩) ص ٢٤ .

* * ن . م ص ٤٣ ـ ٤٥ .

(٧٤) إن التقسيم الذي طرحه السيد الشهيد ـ رض ـ للمسيرة البشرية على مر التاريخ . يفترض أن تكون النبوات متلائمة ومنسجمة مع هذه المراحل التاريخية . ولهذا فإن من المعتقد به أن هذه النبوات قد مرت بثلاث مراحل أساسية حيث كانت المرحلة الأولىٰ قد ابتدأت بنبوة آدم (ع) وامتدت إلى نبوة نوح (ع) ومن أهم أنبياء هذه المرحلة نبي الله شيث وأدريس ـ عليهما السلام ـ ثم ابتدأت المرحلة الثانية بنبوة نوح (ع) وانتهت بنبوة موسىٰ (ع) غير أن نبوة نوح (ع) فيما يبدو قد مرت بمرحلتين كانت المرحلة الأولى أكثر اقتراباً إلى مرحلة نبوة آدم (ع) أي أن طرح النبوة هنا كان أكثر تبسيطاً مما طرح فيما بعد الطوفان . حيث ظلت مع نوح (ع) الجماعة المؤمنة فقط لتبدأ مسيرة مجتمع الوحدة أو مرحلة الوحدة التي أشار إليها السيد الشهيد ـ رض ـ فيما يبدو . وبنبوة نوح (ع) شهدت الساحة البشرية أول نبوة من أنماط نبوات أولي العزم . وقد ظلت نبوة نوح (ع) الأطروحة التي عمل بموجبها جميع الأنبياء الذين خلفوا نوحاً (ع) إلى زمن إبراهيم (ع) ومن أنبياء هذه الفترة نبي الله هود وصالح ((عليهما السلام) ، ثم جاءت نبوة ابراهيم (ع) وامتدت حتىٰ زمن نبوة موسىٰ (ع) ومن أهم أنبياء هذه الفترة نلاحظ نبي الله لوط واسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب (عليهم السلام أجمعين) . وما يلاحظ على نبوات هذه الفترة أنها كانت منسجمة مع مراحل تطور الوعي البشري الذي كان في طور يقف بين عهد الحضانة وبين عهد التكامل . ولهذا فإن هذه النبوات لم تكن نبوات عالمية مزودة بكتب سماوية ومستوعبة أمور الحياة البشرية كافة صحيح أن بعض الأنبياء قد نزلت عليهم بعض الصحائف إلا أنها لم تكن مستوعبة للشريعة بكاملها على أي حال فإن هذه النبوات كانت أكثر تعقيداً من حيث الطرح التشريعي والمفاهيمي من المرحلة الأولى من مراحل النبوة . حيث نلاحظ هنا وجود الصلاة وإيتاء الزكاة ، وبعض أنماط الحكم والقتال وما شاكل « انظر على سبيل المثال سورة الأنبياء ٢١ : ٧٣ ـ ٧٤ » .

ثم بدأت المرحلة الثالثة التي غدت تشهد نبوات طرحت على مستوىٰ العالم بأجمعه . وضمن هذا=

النبي الساحة وبعدُ لا تزال المعركة قائمة ، ولا تزال الرسالة بحاجة إلى مواصلة هذه المعركة من أجل القضاء على تلك الآلهة . حينئذ يمتد الإمامة بعد انتهاء النبي . وهذا هو الشرط الرابع في تبني المسيرة البشرية لهذا المثل الأعلى .

أصول الدين في تصوير هذا المنهج

في هذا الضوء . سوف نكوّن رؤية واضحة لما نسميه بأصول الدين الخمسة فهنا سوف تقع أصول الدين الخمسة في موقعها الطبيعي ، وفي موقعها الصحيح السليم من مسار الإنسان . وأصول الدين الخمسة هي : ـ

١ ـ **التوحيد** : ـ هو الذي يعطي الشرط الأول . أي أنه هو الذي يعطي الرؤية الواضحة فكرياً وإيديولوجيا . وهو الذي يجمع ويعبىء كل الطموحات وكل الغايات في مثل أعلى واحد ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ .

٢ ـ **العدل** : ـ إن العدل هو جانب من التوحيد ، ولكن إنما فصل لميزة اجتماعية فالعدل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى حال العدل وحال العلم كما هو مماثل للقدرة . حيث لا توجد ميزة عقائدية في العدل في مقابل العلم أو

الطرح جاءت نبوات موسى وعيسىٰ (ع) والرسول الأكرم (ص) وهذه النبوات بأجمعها كانت مدعومة بكتب سماوية . وشرائعها كانت مستوعبة مجالات الحياة كافة . وهذه المرحلة يمكن تقسيمها إلى فترتين تشريعيتين أولهما فترة موسىٰ (ع) حيث إن المسيح (ع) لم يأت بتشريعات أساسية وإنما اعتمدت رسالته على غالبية تشريعات رسالة موسى (ع) . ثم جاءت رسالة الرسول (ص) بتشريعات لها استقلالية جوهرية عن التشريعات التي كانت سائدة في زمن موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ .

ومما لا شك فيه أن نبوات المرحلة الثالثة كلها قد شهدت وجود دور الإمام المكمل لدور النبي الرسول كما أن من المؤكد أيضاً أن هذا الدور كان يوسم النبوات التي جاءت بعد إبراهيم(ع) . وفقاً لما ذكرته الآيات القرآنية . غير أنه لا توجد أية آيةٍ قرانية تشير إلى أن هذا الدور كان موجوداً قبل زمان إبراهيم (ع) . نعم هناك جملة كبيرة من الأحاديث الشريفة تشير إلى وجود هذا الدور قبل زمان إبراهيم (ع) كناية وتصريحاً . ولكنها مع ذلك لا تنحصر بزمن نوح (ع) وما بعده . وإنما تمتد حتىٰ زمن آدم (ع) . رغم أن هذه الأحاديث لا تشير إلى محتوىٰ هذا الدور في الوقت الذي تشير إليه الآيات القرآنية في خصوص الفترة المتزامنة مع إبراهيم (ع) . وفي الواقع إن ذهني لقاصر . ومطالعتي للتاريخ هي الأخرىٰ قاصرة عن إدراك السبب الذي جعل السيد الشهيد ـ رض ـ يتوقف في هذه القضية عند نوح (ع) رغم أنه عبر عنها بأنها مسألة ظنية .

في مقابل القدرة . ولكن الميزة هنا هي ميزة اجتماعية ، وهي ميزة القدوة . لأن العدل هو الصفة التي تعطى للمسيرة الاجتماعية ، وهي التي تغنيها ، وهي التي تكون المسيرة الاجتماعية بحاجة إليها أكثر من أي صفة آخرىٰ . ولقد أبرز العدل هنا كأصل ثاني من أصول الدين وذلك باعتبار المدلول التوجيهي والتربوي لهذه الصفة . وكنا قد قلنا بأن صفات الله وأخلاق الله سبق أن علمنا الإسلام أن لا نتعامل معها كحقائق عينية ميتافيزقية [٧٥] فوقنا لا صلة لنا بها . وإنما نتعامل معها كمؤشرات وكمنارات على الطريق .

ومن هنا كان للعدل مدلوله الأكبر بالنسبة إلى توجيه المسيرة البشرية . ولأجل ذلك أفرز وفصل . وإلا فإن العدل في الحقيقة داخل في إطار التوحيد العام . وفي إطار المثل الأعلى .

٣ ـ النبوة : ـ وهي التي توفر الصلة الموضوعية بين الإنسان وبين المثل الأعلى . وكما قلنا فإن المسيرة البشرية حينما تبنت المثل الأعلى الحق المنفصل عنها والذي هو ليس من إفرازها وإنتاجها المنخفض كانت بحاجة إلى صلة موضوعية . إن هذه الصلة الموضوعية يجسدها النبي (ص) ، النبي على مر التاريخ . والأنبياء صلوات الله عليهم هم الذين يجسدون هذه الصلة الموضوعية .

٤ ـ الإمامة : ـ إن الإمامة هي في الحقيقة تلك القيادة التي تندمج مع دور النبوة فالنبي إمام أيضاً . إن النبي نبي . والنبي إمام . ولكن الإمامة لا تنتهي بانتهاء النبي . فاذا ما كانت المعركة قائمة وإذا ما كانت الرسالة لا تزال بحاجة إلى قائد يواصل المعركة إذن سوف يستمر هذا الجانب من دور النبي ولكن من خلال الإمامة .

٥ ـ الإيمان بيوم القيامة : ـ وهو الذي يوفر الشرط الثاني من الشروط

---

(٧٥) الميتافيزيقيا : مصطلح يشار به إلى الظواهر التي تكمن وراء الطبيعة ، أو الظواهر الغيبية التي لا يقام للتدليل عليها دليل حسي تجربي . ولكن السيد الشهيد لأول مرة . استطاع أن يبرهن على إمكانية الحصول على الدليل الاستقرائي التجربي بالنسبة لفكرة وجود الله سبحانه وتعالى وذلك في كتابه « الاسس المنطقية للاستقراء » .

الأربعة التي تقدمت . فهو الذي يعطي تلك الطاقة الروحية ، وذلك الوقود الرباني الذي يجدد دائماً إرادة الإنسان وقدرة الإنسان . ويوفر الشعور بالمسؤولية والضمانات الموضوعية .

إذن أصول الدين في الحقيقة ، وبالتعبير التحليلي - في ضوء ما ذكرناه - هي كلها عناصر تساهم في تركيب هذا المثل الأعلى ، وفي إعطاء تلك العلاقة الاجتماعية بصيغها القرآنية الرباعية التي تحدثنا عنها قبل أيام .

إن هذه الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية ، هي التعبير الآخر عن صيغة تدمج أصول الدين الخمسة في مركب واحد من أجل أن يسير الإنسان ، ويكدح نحو الله سبحانه وتعالى في طريقه الطويل .

بما ذكرناه توضح دور الإنسان في المسيرة التاريخية . إذ إن الإنسان هو مركز الثقل في المسيرة التاريخية ، وإنه مركز الثقل لا بجسمه الفيزيائي ، وإنما بمحتواه الداخلي . وهذا المحتوى الداخلي توضح أيضاً من خلال ما شرحناه . وأن الأساس في بناء هذا المحتوى الداخلي هو المثل الأعلى الذي يتبناه الإنسان . لأن المثل الأعلى هو الذي تنبثق منه كل الغايات التفصيلية ، والتي هي بدورها تعتبر المحركات التاريخية للنشاطات على الساحة التاريخية .

إذن بناء المثل الأعلى ، وتبني المثل الأعلى هو في الحقيقة الأساس في بناء المحتوى الداخلي للإنسان . ومن هنا ظهر دور هذا البعد الرابع [٧٦] .

ما هو الموقف من العلاقة الاجتماعية ؟

قلنا ضمن حديثنا عن تحليل عناصر المجتمع ، إن المجتمع يتكون من ثلاثة عناصر ، وهي : - الإنسان ، والطبيعة ، والعلاقة الاجتماعية . وقد تحدثنا عن الإنسان ودوره الأساسي في الحلقة التاريخية . وتحدثنا عن الطبيعة وشأنها على الساحة التاريخية . وبقي علينا أن نأخذ العنصر الثالث . وهو

---

(٧٦) إلى هنا انتهت المحاضرة الحادية عشرة وما بعدها هو مفصل المحاضرة الثانية عشرة التي ألقيت يوم الأربعاء الموافق فيه الخامس والعشرون من جمادى الثانية عام ١٣٩٩ .

العلاقة الاجتماعية لنحدد موقفنا من هذه العلاقة الاجتماعية [٧٧] في ضوء ما انتهينا إليه من مواقف قرآنية تجاه دور الإنسان والطبيعة على الساحة التاريخية .

إن العلاقة الاجتماعية تتضمن علاقتين مزدوجتين : -

١ - إحداهما علاقة الإنسان مع الطبيعة .

٢ - والأخرىٰ علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان .

وإن هـذين الخطين من العـلاقة الاجتمـاعية ، نؤمن بـأن كل واحـد منهما مختلف عن الآخر ومستقل استقـلالاً نسبياً عن الآخـر . مع شيء من التفـاعـل والتأثير المتبادل المحدود الذي سوف نشرحه فيما بعد ذلك - إن شاء الله تعالى - .

من حيث الأساس ، هـذان خطان أحدهمـا مختلف عن الآخر ، ومستقـل استقلالاًنسبياً عنه تبعاً لـلاختلاف النـوعي في طبيعة المشكلة التي يـواجهها كـل واحد من هذين الخطين ونوع الحل الذي ينسجم مع طبيعة تلك المشكلة .

المشكلة التي تواجه الخط الأول والحل الإسلامي لها

إن الخط الأول الـذي يمثـل عـلاقـات الإنسـان مـع الـطبيعـة من خـلال

---

(٧٧) لقد سبق للسيد الشهيد - رض - أن ذكر هذا العنصر . هو العنصر المرن من عناصر المجتمع . إذ إن كل مجتمع يتكون من وجود إنسان ينتمي إليه وطبيعة يعيش فيها وعليها . ولكن هذا المجتمع يتمايز عن المجتمعات الأخرىٰ ويأخذ اللون المميز له من خلال طبيعة موقفه من العلاقة الاجتماعية بكلا شقيها : علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان وعلاقة الإنسان مع الطبيعة . وهذا هو أحد الأمور التي تميز النظرية الإسلامية عن سواها من النظريات . سواء على مستوىٰ العوامل المؤثرة في تكوين المجتمعات أو على مستوىٰ العناصر التي تعطي المجتمعات الشكل الذي يميزها عن غيرها . وهنا نجد لزاما التأكيد على حقيقة أن المجتمعات لا يلونها العامل الاقتصادي أو العامل الجغرافي ، أو العامل الجنسي العنصري ، أو العامل الجنسي الغريزي ، أو عوامل الحتمية الإلهية . على الرغم من صحة القول بأن بعض هذه العوامل يؤثر ويسهم في تلوين المجتمعات بلونها المتميز ولكن هذا لا يعني أن هذا يتم في البنية التحتية للظاهرة الاجتماعية وإنما يحصل ذلك نتيجـة للتغييـرات التي تحصـل في تلك البنيـة . وهـذه البنيـة وكما أشير إلى ذلك سابقاً تتكون في البداية وفقاً لطبيعة الموقف الذي يحدده النظام الاجتماعي المعتمد في هذا المجتمع من هذه العلاقة الاجتماعية بكلا وجهيها . وهذا الموقف بطبيعة الحال يحدده شكل ومحتوى المثل الأعلى المعتمد هنا . مما يعني أن خلاف المبادىء والنظم البشرية يتمحور في البداية على شكل ومحتوىٰ تلك العلاقة ثم يتركز عند المثل الأعلى .

استثمارها ، ومحاولة تطويعها ، وإنتاج حاجاته الحياتية منها . إن هذا الخط يواجه مشكلة التناقض بين الإنسان ، والطبيعة . وهذا التناقض الذي يعني تمرد الطبيعة تعصّيها عن الاستجابة للطلب وللحاجة الإنسانية من خلال التفاعل فيما بينهما . إن هذا التناقض هو المشكلة الرئيسية على هذا الخط . ولكن هذا التناقض له حل مستمد من قانون موضوعي يمثل سنة من سنن التاريخ الثابتة . وهذا القانون هو : ـ قانون التأثير المتبادل بين الخبرة والممارسة . وذلك لأن الإنسان كلما تضاءل جهله بالطبيعة ، وكلما ازدادت خبرته بلغتها وبقوانينها ازداد سيطرة عليها وتمكنا من تطويعها وتذليلها لحاجاته ، وحيث إن كل خبرة تتولد في هذا الحقل فإنما تتولد عادة من الممارسة ، وأن كل ممارسة تَوْلّد بدورها خبرة . ولهذا كان قانون التأثير المتبادل بين الخبرة والممارسة قانوناً موضوعياً ، يكفل حل هذا التناقض . ويقدم الحل المستمر والمتنامي لهذا التناقض بين الإنسان والطبيعة . إذ يتضاءل ـ بموجبه ـ جهل الإنسان باستمرار ، وتنمو معرفته باستمرار من خلال ممارسته للطبيعة فيكتسب خبرة جديدة . وهذه الخبرة الجديدة تعطيه سيطرة على ميدان جديد من ميادين الطبيعة [٧٨] . فيمارس على الميدان الجديد ، وهذه الممارسة

---

(٧٨) لنتصور هنا الإنسان البدائي ، الذي لم يكن يملك أي شيء من الخبرة تجاه الطبيعة ومشاكلها . ولم يكن بعد قد استخدم الحجر لكي يساعده في إيجاد سيطرة أكبر على الطبيعة . لقد كان هذا الإنسان خاضعاً ـ تبعاً لذلك ـ بشكل رهيب للطبيعة ـ حيث لم يكن بقادر على مقاومتها . بل إن سيطرتها هي التي تحكم هذه الساحة . ولكن نمو الخبرة البشرية في مجال استخدام الطبيعة وتسخيرها نفسها للقضاء على مشاكل الإنسان ، هو الذي مكنه من السيطرة شيئاً فشيئاً من إخضاع الطبيعة لإرادته .

ومن خلال مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية يمكننا القول عن يقين بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي تدخل في إرشاد البشرية إلى كيفية استخدام الطبيعة وتسخيرها . حيث يظهر في جملة من هذه الآيات أن الوسائل التي أدخلت تغييراً جوهرياً في النمط الاجتماعي والاقتصادي فى الحياة البشرية قد وعاها العقل البشري نتيجة للتوجيه الرباني . وهذا ما يعني أن الوعي البشري قد نما تدريجياً ولم يكن منذ البداية مكتملاً وإنما نشأ بدائياً وسار نحو الرقي شيئاً فشيئاً نتيجة لهذا القانون. ولعل الآية الكريمة ﴿ فَطَوَّعَت لَهُ نَفْسهُ قَتل أخيهِ فَقَتَلَهُ فأصْبحَ مِنَ الخاسِرينَ * فَبَعَثَ اللهُ غُراباً يَبحثُ في الأَرضِ لِيُريَهُ كَيفَ يواري سوءَة أخِيهِ ﴾سورة المائدة ٥ : ٣٠ ـ ٣١ .

تمثل أول إشارة قرآنية لموضوع تنبيه الإنسان للاستفادة من الطبيعة للتخلص من المشاكل التي تعترضه . =

بدورها أيضاً تتحول إلى خبرة ، وهكذا تنمو الخبرة الإنسانية باستمرار ما لم تقع كارثة كبرىٰ طبيعية أو بشرية .

وهذا القانون بنموه ، وبتطبيقاته التاريخية يعطي الحلول التدريجية لهذه المشكلة . فهي مشكلة محلولة تاريخياً ، ومحلولة موضوعياً . ولعل في الآية الكريمة : ﴿ وآتاكم مِنْ كُلِّ ما سألتُموهُ . وَإن تَعُدُّوا نِعمةَ اللهِ لا تُحصُوها﴾[٧٩] ما يشير إلىٰ هذا الحل الموضوعي المستمدّ من قانون التأثير المتبادل بين الخبرة والممارسة وذلك لأن السؤال المشار إليه في الآية الكريمة ﴿ وآتاكم مِنْ كُلِّ ما سألتُموهُ . . ﴾ لا يراد منه الدعاء طبعاً . أو بكلمة أخرىٰ ليس سؤالاً لفظياً . لأن الآية هنا تتكلم عن الإنسانية ككل . عمّن يؤمن بالله ومن لا يؤمن بالله ، ومن يدعو الله . ومن لا يدعو الله . كما أن الدعاء لا يتضمن حتماً تحصيل الشيء المدعو به . نعم إن كل دعاء له استجابة ، ولكن ليس لكل دعاء تحقيق لما تعلق به الدعاء . بينما هنا يقول ﴿ وآتاكم مِنْ كُلِّ ما سَألتُموهُ ﴾ بما يعني الايتاء ، والاستجابة الفعلية بعطاء ما سئل عنه . فأكبر الظن أن هذا

= ومن خلال هذه الآيات فإن النبي نوح (ع) هو أول من استخدم النقل المائي بشكله المألوف حالياً (انظر سورة هود ١١ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ، وسورة المؤمنون ٢٣ : ٢٧) ، وتشير بعض الاحاديث إلى أنه هو الذي اخترع الميزان . فيما يشير بعضها الأخر إلى ان ادريس ع هو أول من بأستعمال القلم وقد كان داود (ع) قد علم البشر عملية نسج الملابس (سورة الأنبياء ٢١ : ٨٠) . ثم بعد ذلك علمهم كيف يستخدمون الحديد (سورة سبأ ٣٤ : ١٠) ثم جاء من بعده سليمان (ع) ليعلم البشر كيفية صنع الزجاج واستخدامه كما يستظهر ذلك من الآية ٤٤ من سورة النمل . وقد جاء بعده ذو القرنين (ع) فعلم الناس عملية صنع السدود. ولعله أول من علم الإنسان كيفية التركيب بين المعادن الفلزية واللافلزية. كما يتضح ذلك بوضوح في الآيات ٩٥ ـ ٩٧ من سورة الكهف .

ونحن إذا ما أضفنا إلى كل ذلك أن الظواهر الاجتماعية التي لعبت دوراً حاسماً في تطوير الحياة البشرية وبناء المجتمعات الحضارية كبناء المجتمعات بسائر وحداتها كالعائلة والعشيرة والقبيلة و. . إلخ وإيجاد الأشكال المختلفة من أنظمة الحكم وإقامة الدولة وما شاكل كانت بأجمعها من توجيه الأنبياء (ع) . أقول نحن إذا ما أضفنا هذا الأمر إلى الأمر الأول وجدنا : أن التطور البشري الاجتماعي والتقني مديون بشكل حاسم لتوجيه الأنبياء (ع) وجهودهم .

(٧٩) سورة إبراهيم ١٤ : ٣٤

السؤال من الإنسانية ككل ، وعلى مر التاريخ ، وعبر الماضي والحاضر والمستقبل . وهو ما يتمثل في السؤال الفعلي والطلب التكويني الذي يحقق باستمرار التطبيقات التاريخية لقانون التأثير المتبادل بين الخبرة والممارسة ، هذه هي المشكلة التي يواجهها الخط الأول من العلاقات ، وهذا هو الحل الذي يوضع لهذه المشكلة .

مشكلة الخط الثاني والحل الاسلامي

وأما الخط الثاني من العلاقات ، فهو علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان ، في مجال توزيع الثروة ، أو في سائر الحقول الاجتماعية ، أو في أوجه التفاعل الحضاري بين الإنسان وأخيه الإنسان . وهو يواجه مشكلة أخرىٰ . غير أن المشكلة هنا ليست التناقض بين الإنسان والطبيعة . وإنما هي التناقض الإجتماعي بين الإنسان وأخيه الإنسان الذي يتخذ على الساحة الاجتماعية صيغاً متعددة وألواناً مختلفة ولكنه يظل في حقيقته وجوهره شيئاً ثابتاً وحقيقة واحدة وروحاً عامة . وهي التناقض ما بين القوي والضعيف . أي بين كائن في مركز القوة ، وكائن في مركز الضعف . فهذا الكائن الذي هو في مركز القوة إذا لم يكن قد حل تناقضه الخاص ، وجدله الإنساني من الداخل فسوف يفرز لا محالة صيغة من صيغ التناقض الاجتماعي . وهذه الصيغة مهما اختلفت في مضمونها القانوني ، وفي شكلها التشريعي ، وفي لونها الحضاري فهي بالنتيجة تبقىٰ صيغة من صيغ التناقض بين القوي والضعيف . فقد يكون هذا القوي فرداً فرعوناً ، وقد يكون عصابة ، وقد يكون طبقة أو يكون شعباً ، أو أمة . غير أن كل هذه الألوان من التناقض تحتوي روحاً واحدة ، وهي روح الصراع . وروح الاستغلال المسلّطة من القوي (الذي لم يحل تناقضه الداخلي وجدله الإنساني، الصراع بينه وبين الضعيف)على هذا الضعيف ومحاولة استغلاله .

إن هذه الأشكال المتعددة من التناقضات الاجتماعية هي التي يواجهها خط العلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان . وهذه الأشكال المتعددة ذات الروح الواحدة كلها تنبع من معين واحد ، ومن تناقض رئيسي واحد ، وهو ذلك الجدل الإنساني الذي شرحناه ـ فيما سبق ـ القائم بين حفنة التراب وبين أشواق

الله سبحانه وتعالى . وما لم ينتصر أفضل النقيضين في ذلك الجدل الإنساني فسوف يظل هذا الإنسان يفرز التناقض تلو التناقض ، والصيغة بعد الصيغة حسب الظروف والملابسات [80] . وحسب الشروط الموضوعية ، ومستوى الفكر والثقافة .

التناقض الاجتماعي بين الإسلام والماركسية .

إن النظرة الإسلامية للمشكلة التي يواجهها خط العلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان هي نظرة موسعة ، ومنفتحة ومعمقة ، لا تقتصر على لون من التناقض ، ولا تهمل ألواناً أخرى منه ، بل تستوعب كل أشكال التناقض ـ على مر التاريخ ـ وتنفذ إلى عمقها ، وتكشف حقيقتها الواحدة ، وروحها المشتركة ، ثم تربط كل هذه التناقضات بالتناقض الاعمق الذي هو الجدل الإنساني .

---

(٨٠) يشير السيد الشهيد في مكان آخر من بحوثه إلى أن المشكلة الاجتماعية مرهونة بمقدار التوفيق ما بين المقياس الفطري للعمل والحياة والذي يجر الإنسان لإيثار مصالحه الذاتية على مصالح المجتمع ومقومات التماسك فيه . وما بين المقياس الذي ينبغي أن يقام للعمل والحياة بشكل يضمن الرفاه والسعادة والعدالة . شريطة أن يكون هذا الضمان ، ضماناً حقيقياً . وبغيره فإن المشكلة الاجتماعية سوف تبقى قائمة مهما قدمت الحلول لمعالجتها ، لأن هذه الحلول لن تتجاوز في أحسن الظروف كونها حلولاً ترقيعية ومسكنة ، إذ سرعان ما ستبرز هذه المشكلة واجهة جديدة بل وواجهات متعددة لها . وهنا يشير السيد الشهيد ـ رض ـ إلى أن الدين وحده هو الذي يضمن الحل وذلك عن طريقين : ـ

أولهما : ـ أن الدين يعمل على تركيز التفسير الواقعي للحياة وإشاعة فهمها في لونها الصحيح كمقدمة تمهيدية إلى حياة أخروية ، يكسب الإنسان فيها من السعادة بمقدار ما يقدمه في حياته المحدودة هذه . وفي ذلك يتم ضمان المصلحة الشخصية التي تصاغ هنا بصياغة جديدة على أساس العمل على رضا الله سبحانه وتعالى حينما يدخل العمل للمجتمع ضمن حسابات المصلحة الشخصية لأن ما يقدمه للمجتمع إنما يقدمه في واقع الحال لنفسه يوم القيامة ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُم ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ ولا يَطَئُونَ مَوطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلاَ ينالُونَ مِن عَدُوٍ نَيْلاً إلاّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إنّ الله لايُضِيعُ أَجرَ المُحسِنِينَ** ﴾ سورة التوبة ٩ : ١٢٠ .

ثانيهما : ـ إن الدين يتعهد بتربية أخلاقية خاصة من شأنها أن تنمي نزعات الخير الذاتية في الإنسان وتشذب نفسه من نزعات الشر التي تدفعه للأنانية السلبية ـ اذا صح التعبير ـ انظر « فلسفتنا » ٤٦ ـ ٤٨ و« اقتصادنا » ٣٢٤ ـ ٣٢٩ .

ومن هنا إيمان الإسلام بأنه الرسالة الوحيدة القادرة على حلّ هـذه المشكلة التي يواجهها خط علاقات الإنسان مع الإنسان ، وهي تلك الرسالة التي تعمـل عـلى مستـويـين في وقت واحـد . فهي تعمــل من أجـل تصفيـة التنـاقضــات الاجتماعية على الساحة ، ولكن في الوقت نفسه وقبل ذلك ، وبعد ذلـك تعمل من أجل تصفية ذلك الجدل في المحتوىٰ الداخلي للإنسان من أجل تجفيف منبـع تلك التنـاقضات الاجتمـاعية . وهنـا يؤمن الإسلام بـأن تـرك ذلـك المعين من الجـدل والتناقض عـلى حالـه ، والاشتغـال بتصفيـة التنـاقضـات عـلى السـاحـة الاجتماعية بصيغها التشريعية فقط إنما يمثـل نصف العملية . أو النصف المبتـور من العملية ، إذ سرعان ما سيفـرز ذلك المعـين صيغاً أخـرىٰ وفق هذه العمليـة التي سوف تستأصل بها الصيغ السابقة .

إذن فلا بد للرسالة التي تريد أن تضـع الحل المـوضوعي للمشكلة من أن تعمل على كـلا المستويـين . وأن تؤمن بجهادين : الجهـاد الذي سمـاه الإسلام « الجهاد الأكبر » لتصفية ذلك التناقض الرئيسي ، ولحل ذلك الجـدل الداخـلي . وجهاد آخر هو الجهاد في وجـه كل صيـغ التناقض الاجتمـاعي ، وفي وجه كـل ألوان استئثار القوي للضعيف ، من دون أن نحصر أنفسنا في نطاق صيغة معينة من صيغ هذا الاستئثار لأن الاستئثار جوهره واحد مهما اختلفت صيغه .

هذه النظرة هي النظرة المنفتحة الواقعية التي أثبت التجربة البشرية باستمـرار انطباقها على واقع الحياة . خلافاً للنـظرة الضيقة التي فسرت بها المـادية والثـوار الماديون ، التناقض . حيث إن ماركس [٨١] على الرغم من ذكائه الفـائق إلا أنه

(٨١) كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) فيلسوف ألماني يهودي الأصل من جهة أجداد أبيه وأمه اللذين كانا بروتستانتيين . مؤسس الفلسفة الماركسية وأقوىٰ مفكريها . وفلسفته تعد واحدة من أبرز الفلسفات البشرية الوضعية التي أعطت موقفاً فلسفياً تجاه غالبية مسائل وذلك بغض النظر عما إذا كان هذا الموقف الذي حققه ذكاء ماركس كان من الناحية الفكرية صحيحاً أم لا . وأهم آثاره كتاب « رأس المال » الذي ضمنه فلسفته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وكتاب حول الدين الذي تكلم فيه عن فلسفته وموقفه الرافض للفكر الميتافيريقي . والبيان الشيوعي الذي تضمن آراءه السياسية والثورية . وقد تعرضت فلسفته لانتقادات مميتة على غالبية الأصعـدة . ورغم إدعاء الدول الاشتراكية والصين وبعض بلدان الهند الصينية بأنهم يعملون بهذه الفلسفة إلا أن الواقع =

لم يستطع أن يتجاوز حدود النظرة التقليدية للإنسان الأوروبي . فلقد كان بحكم كونه فرداً أوروبياً . رهين هذه النظرة التقليدية . فالإنسان الأوروبي يرىٰ العالم دائماً وكأنه ينتهي حيث تنتهي الساحة الأوروبية أو الساحة الغربية بتعبير أعم. وذلك كما يعتقد اليهود بأن الإنسانية كلها في إطارهم : ـ ﴿ **لَيسَ عَلَينا في الأُمِّيِّنَ سَبيلٌ** . . ﴾ [٨٢] .

فأولئك ليسوا بشراً ، وليسوا أناساً ، وأولئك أمّيون [٨٣] همج . كذلك كان الإنسان الأوروبي الذي اعتاد أن يضع الدنيا كلها في إطار ساحته الأوروبية ، وفي ساحته الغربية . فلم يتخلص هذا الرجل [٨٤] من تقاليد هذه النظرة الأوروبية ، كما أنه لم يتخلص من هيمنة العامل الطبقي الذي لعب دوراً في أفكار المادية التاريخية . ومن هنا جاءلنا بتفسير محدود ضيق للتناقض الذي تواجهه الإنسانية على هذا الخط . حيث اعتقد بأن مرد كل التناقضات على

يشهد بخلاف ذلك . ومما لا شك فيه أن أشد الانتقادات التي وجهت إليه ولم يتمكن أنصاره ـ إلى الآن ـ من أن يقللوا من شأنها هي انتقادات السيد الشهيد الصدر ـ رض ـ عبر كتابيه « اقتصادنا » و« فلسفتنا » . ولم يجرأ الماركسيون على الرد على السيد الشهيد (على الرغم من طول الفترة الزمنية التي تفصل ما بين الوقت الحالي وزمن تأليفها والتي تكاد تقرب من ٣٠ سنة) إلا عبر مقال مختصر نشرته مجلة الثقافة الجديدة التي تصدر عن الحزب الشيوعي العراقي . تميز بالتهافت والتناقض وأسلوب الإتهام والتشهير . وقد رد على هذا المقال أحد طلبة السيد الشهيد . مما دعا الكاتب إلى عدم التجرؤ على الرد مرة آخرىٰ .

(٨٢) آل عمران ٣ : ٧٥ .

(٨٣) الأميون : ـ تعني في الإصطلاح اليهودي غير اليهود ، ويضعهم اليهود في مستوى اجتماعي متدنٍ قياساً لهم . وهناك حكايات ونصوص يهودية مذهلة في خصوص التعامل مع هؤلاء . ويمكن للاستزادة مراجعة سفر التكوين في العهد القديم لمعرفة ذلك ، كما يمكن الرجوع إلى الموثوق من بروتوكولات حكماء صهيون . لمعرفة الترجمة العملية لنصوص سفر التكوين . وخلاصة ما يمكن القول به هنا إن الأميين لدى اليهود مهدورو الدم ومباحو الأموال و . . إلخ . وتطلق اللفظة بشكل أخص على المسيحيين ـ وضمن هذا المعنىٰ تأتي قضية خلط دم أحد هؤلاء مع الخبز كي يوزع في العيد اليهودي . والذي يسمىٰ « بفطر صهيون » .

(٨٤) تعتبر واحدة من أغلاط ماركس الفاحشة أنه نظر إلى التاريخ الأوروبي والمجتمع الأوروبي ودرس خصائصها بقدر محدود . ثم أعقب ذلك بتعميم نتائج هذه الدراسة على التاريخ البشري بمجمله والمجتمعات البشرية كافة .

الساحة البشرية يرجع إلى تناقض واحد . وهو التناقض الطبقي بين طبقة تملك كل وسائل الإنتاج أو معظم هذه الوسائل . وطبقة لا تملك شيئاً من وسائل الإنتاج ، وإنما تعمل من أجل مصالح الطبقة الأولىٰ . وتُستثمر في تشغيل وسائل الإنتاج التي تملكها الطبقة الأولىٰ فيما تستولي الطبقة الأولى المالكة على هذه الثروة المنتجة التي جسدت عرق جبين هذا العامل المُستغَل ، ولا يعطىٰ للطبقة الثانية منها إلا الحد الأدنىٰ ، وإلا حد الكفاف الذي يضمن استمرار حياة هذه الطبقة لكي تواصل خدمتها وممارستها ضمن إطار الطبقة الأولىٰ .

هذا هو التناقض الطبقي الذي اتخذه قاعدة وأساساً لكل ألوان التناقض الأخرى، وهذا التناقض يتخذ مدلوله الاجتماعي من خلال صراع مرير بين الطبقة المالكة وما بين الطبقة العاملة . وهذا الصراع المرير بين هاتين الطبقتين ينمو ويشتد كلما تطورت الآلة ، وكلما نمت الآلة الصناعية وتعقدت ، وذلك لأن الآلة كلما نمت وكلما تطورت أدت إلى تخفيض في مستوى المعيشة، وهذا التخفيض يعطي فرصة للطبقة الرأسمالية المالكة في أن تخفض أجر العامل لأنها لا تريد أن تعطي العامل أكثر مما يديم به حياته ونفسه (٨٥) .

إذن تتطور الآلة باستمرار ، وتنخفض كلفة المعيشة باستمرار وباستمرار يخفض الرأسمالي أجرة العامل هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية : إن تطور الآلة وتعقدها يقتضي إمكانية التعويض عن العدد الكبير من العمال بالعدد القليل من العمال ، لأن دقة الآلة ، وعملقة الآلة سوف يعوّض عن الجزء الآخر من العمال . وهذا ما يجعل الطبقة الرأسمالية تلجأ إلى طرد الفائض من العمل باستمرار. وهكذا يشتد الصراع بين الطبقتين ويحتدم التناقض حتىٰ ينفجر في ثورة ، وهذه الثورة تجسدها الطبقة العاملة وتقضي بها على التناقض الطبقي في المجتمع ، وتوحد المجتمع في طبقة واحدة ، وهذه الطبقة الواحدة تمثل حينئذ كل أفراد المجتمع ، وفي حالة من هذا القبيل سوف تستأصل كل

---

(٨٥) ضمن ما يعرف عنه بالقانون الحديدي للأجور والذي يقوم على أساس أن نصيب العامل من الثروة المنتجة والذي يتمثل فيما يتقاضاه من أجور على ذلك يجب أن لا يزيد بأي حال من الأحوال على القدر الذي يتيح له حياة ومعيشة الكفاف .

ألوان التناقض لأن أساس التناقض هو التناقض الطبقي ، فإذا أزيل التناقض الطبقي زالت كل التناقضات الأخرىٰ الفرعية والثانوية [٨٦] .

هذا تلخيص سريع جداً لوجهة نظر هؤلاء الثوار تجاه التناقض الذي عالجناه . إلا أن هذه النظرة الضيقة لا تنسجم في الحقيقة مع الواقع ، ولا تنطبق على تيار الأحداث في التاريخ . فليس التناقض الطبقي وليد تطور الآلة ، بل هو وليد الإنسان . وهو من صنع الإنسان الأوروبي . وليست الآلة هي التي صنعت استغلال الرأسمالي للعامل . وليست هي التي خلقت النظام الرأسمالي ، وإنما الإنسان الأوروبي الذي وقعت هذه الآلة بيده هو الذي أفرز نظاماً رأسمالياً يجسد قيمه في الحياة وتصوراته للحياة [٨٧] . . كما أن التناقض

---

(٨٦) لو استعرضنا المثال البولندي بدقة لوجدنا بوضوح أن التناقض الطبقي ليس هو التناقض الأساس الذي تتشعب منه بقية التناقضات الاجتماعية وتنعكس عنه . وذلك لأن الصراع الدائر بين أطراف المعارضة من جهة وبين السلطة الاشتراكية الحاكمة من جهة أخرىٰ لا يعكس التفسير الاشتراكي للصراع . لأنه صراع يحتل العمال قطبه الأول فيما تحتل السلطة الاشتراكية قطبه الثاني . وهو صراع لا ينطوي على المطالبة باصلاحات فحسب ، وإنما كثيراً ما تسوده الأعمال التي تشير إلى مصيرية هذا الصراع بالنسبة إلى كل طرف . ومن الطبيعي أن هذا لا يمكن تبريره ببقايا الأخلاق الرأسمالية في أحشاء طبقة العمال . لأن هذا الأمر مردود من قبل الماركسية نفسها . وذلك لأن هذه النظرية تفترض بقايا الأخلاق الرأسمالية في السلطة وليس العكس ، على أنه يعاكس نظرية الماركسية الاجتماعية ، حيث تفترض أن الأخلاق وسائر الظواهر الاجتماعية حينما تكون ارتداداً من طبيعة وسائل الانتاج وعلاقات الملكية ، مما يعني أن تحول النظام إلى نظام اشتراكي سيؤدي بالتالي إلى تحول الأخلاق إلى إخلاق اشتراكية . وهذا ما لم يحدث . وأمثلة براغ عام ١٩٦٨ والمجر عام ١٩٥٦ وافغانستان عام ١٩٧٩ اذا ما طولعت بدقة فإن من شأنها أن تبرهن على أن الصراع الطبقي ليس الأساس الذي تنعكس منه سائر التناقضات الاجتماعية .

(٨٧) إن التقنية التكنلوجية المتدنية أو العالية لا تطرح موقفاً جمالياً للحياة فالبخار أو الذرة أو الألكترون باستخداماتها التكنلوجية لا تطرح منهجاً لخير أو لشر الحياة الإنسانية . وإنما حالها حال العلم حالة محايدة . والإنسان هو الذي يعطيها الموقف الجمالي فتصبح وسيلة للخير أو وسيلة للشر فالقنبلة الذرية في الوقت الذي يعرف عنها أنها وسيلة دمار للبشرية بشكل مروع . غير أنها من الممكن أن تلعب دوراً عظيماً في إعمار البشرية وتنمية القدرة البشرية على استغلال الطبيعة واستدرار خيراتها . وها هي المفاعلات النووية اليوم تدخل في العديد من المجالات التي تخدم الإنسان والبشرية . وهي لا تلعب دور الوسيلة فحسب وإنما أيضاً تلعب دور المثير ، وهذا الدور =

الـطبقي ليس الشكل الـوحيد من أشكـال التناقض ، وإنمـا هـنـاك صيـغ كثيرة للتنـاقض على السـاحة الاجتمـاعية . كـما أن التنـاقض الـطبقي ليس التنـاقض الرئيسي بالنسبـة إلى تلك الأشكال ، وإنمـا كل هـذه الأشكال من التنـاقض على الساحة الاجتماعية هي وليدة تناقض رئيسي وهـو جدل الإنسـان . هذا الجـدل المخبوء في داخل محتوىٰ الإنسان . وهو التناقض الرئيسي الذي يفـرز دائماً وأبـداً صيغاً متعددة من التنـاقض . وتعالـوا لنلاحظ ونقـارن بين هـذه النظرة الضيقـة وبين واقع التجربة البشرية المعاصرة . لنرىٰ أي النظرتين أكثر انطباقاً على العـالم الذي نعيشه ؟ ونرىٰ ماذا كنا نتوقع ؟ وماذا كنا ننتظر لو كانت هذه النظرة وكـان هذا التفسير للتناقض صحيحاً وواقعياً ؟ .

كنـا ننتظر ، ونتـوقـع (٨٨) أن يـزداد يـومـاً بعـد يـوم التنـاقض الـطبقي والصـراع بين الـطبقة الـرأسمـاليـة والـطبقـة العـاملة في المجتمعـات الأوروبيـة الصناعية التي تطورت فيها الآلة تطوراً كبيراً ، حيث كان من المفروض أن يشتد في هذه المجتمعات ، كانكلتـرة والـولايات المتحـدة الأمريكيـة وفرنسـا وألمانيـا ، التناقض الطبقي والصراع يوماً بعد يوم ، ويتزلزل النظام الـرأسمالي المستغـل ، ويتداعى يوماً بعد يوم ، وكنا نترقب أن يزداد البؤس والحرمان في جانب الطبقـة العاملة ويزداد الثراء على حساب هؤلاء العاملين في طبقـة الرأسماليين المستغلين من الأمريكان والإنجليز والفرنسيين وغيرهم . وكنا نترقب ـ أيضاً ـ أن تتضاعف النقمة وأن يشتد إيمان العامل الأوروبي والعامـل الأمريكي بـالثورة ، وبضـرورة الثورة وبأنها الطريق الوحيد لتصفية هذا التناقض الطبقي .

لا ينحصر بالأعمال الشريرة للإنسان . وإنما يمتد حتىٰ إلى الأعمال الخيرة . فوسائل الفيديو وسائر أدوات الضبط التلفزيوني والسينمائي مثلما لعبت دور الإثارة لنشر الفساد تلعب دور الإثارة أيضـاً لنشر الخير والصلاح .

إذن فالتقنية التكنلوجية وسائر وسائل الإنتاج تعتبر حالـة محايـدة في دوري الوسيلة والإثـارة معاً . والإنسان هو الـذي يلونها باللون الجمـالي وفقاً لمحتـواه الداخـلي . فظاهرة القتل مثـلاً واحدة ، نجدها في كل المجتمعات التي وجدت فيها وسائل إنتاج بدائية جداً أو متطورة جداً . صحيح أنها تغيرت على مستوىٰ الشكل فحسب . ولكن محتواها والبواعث لها ظلت متشابهة إلى حد بعيد .

(٨٨) وفقاً للنظرية الماركسية في تفسير الصراع الطبقي .

إن هذا هو ما كنا ننتظره لو صحت هـذه الأفكار عن تفسـير التناقض . . ولكن ماذا وقع خارجاً ؟

إن مـا وقع خـارجاً هـو عكس ذلك تمـاماً . حيث نـرىٰ وبكـل أسف أن النظام الرأسمـالي في الدول الـرأسماليـة المستغلة يزداد تـرسخاً يـوماً بعـد يوم ، ويزداد تمحوراً وعملقة يوماً بعد يوم ، ولا تبدو عليه بوادر الانهيار السريع .

أمـا تلك التمنيات الـطيبة التي تمنـاها ثـوارنـا المـاديـون لإنكلتـرا وللدول الأوروبية المتقدمة صناعيـاً ، حيث تمنوا لهـا الثورة في أقـرب وقت بحكم التطور الآلي والصناعي فيها . إن تلك التمنيات الطيبة تحولت بمجمـوعها إلى سـراب . بينما تحققت هذه النبوءات بالنسبة إلى بلاد لم تعش تـطوراً آلياً . بـل إنها لم تعش تنـاقضاً طبقيـاً بالمعنىٰ المـاركسي لأنها لم تكن قد دخلت البـاب العريض الـواسع للتطور الصناعي من قبيل روسيا القيصرية والصين .

ومن ناحية أخرىٰ هل ازداد العمال بؤساً وفقراً ؟ وهل ازدادوا استغلالاً ؟ بالعكس فلقد ازداد العمـال رخاءً . وازدادوا سعـة ، وأصبحوا مـدلّلين من قبل الطبقة الرأسمالية المستغلة . فالعامل الأمريكي يحصل على ما لا يطمع به إنسان آخر يشتغل بكدّ يمينه ويقـطف ثمار عمله في المجتمعـات الاشتراكيـة الأخرىٰ . فهل ازدادت النقمة لدىٰ الطبقة العاملة . أم أن العكس هو الصحيح ؟ (٨٩) .

إن العمال وأكثر الهيئات التي تمثل العمال في الدول الرأسمالية المستغلة قد تحولت بالتدريج إلى هيئات ذات طابع شبه ديمقراطي ، وإلى أشخاص لهم حالة الاسترخاء السياسي ، حيث تركوا هموم الثورة ، وتركـوا منطق الثـورة وأصبحوا يتصـافحون يـداً بيد مـع تلك الأيدي المستغلة ـ أيـدي الـطبقـة الـرأسمـاليـة ـ

---

(٨٩) من الممكن أن يشكل عمال بولندا ومعـارضتهم الشديدة للدولة دليـلاً حياً وملمـوساً عـلى فشل التفسـير الماركسي . عـلى أن الذي يلحظ من معـارضة في البلدان الـرأسماليـة من قبل النقـابـات العمالية يجب أن يلحظ ضمن إطار رغبة هؤلاء الإصلاحية وليست الثورية . فهم يريدون إصلاح الأوضاع ضمن القبول بالنظام القـائم . فيما لا نجـد هذا الشيء في المعـارضة التي تتم في البلدان الاشتـراكية . حيث نجـدهـا معـارضة عمـالية تهـدف من حيث المحتوىٰ والمضمـون للتخلص من النظام القائم . وما يطرح من شعارات أو حجج لهذه المعارضة هو في الواقع غطاء لهذا المحتوىٰ .

وأصبحوا يرفعون شعار تحقيق حقوق العمال عن طـريق النقابـات ، وعن طريق البرلمانات وعن طريق الانتخابات .

إن هذه الحالـة هي حالـة الاسترخـاء السياسي وقـد وقعت في هذه الفتـرة القصيرة من الزمن التي نحسها . ولكن كيف وقع هذا كله ؟

هل كان ماركس سيىء الظن إلى هذه الدرجة بهؤلاء الرأسمـاليين وبهؤلاء المجرمين والمستغلين بحيث تنبأ بهذه النبوءات . ثم ضاعت هـذه النبوءات كلهـا فلم يتحقق شيء منها . . ؟

وهل إن هؤلاء الرأسماليين المستغلين دخل في نفوسهم الرعب من ماركس ومن الماركسية ومن الثورات التحررية في العالم . فحـاولوا أن يتنـازلوا عن جـزء من مكاسبهم خوفاً من أن يثور العامل عليهم . . ؟

هل هذا صحيح ؟

وهل إن المليونير الأمريكي يخالج ذهنه فعلاً أي شبـحَ للخـوف مـن هـذه الناحية ؟

إن أشد الناس تفاؤلاً بمصائر الثورة في العالم لا يمكنه أن يفكـر في أن ثورة حقيقية على الظلم في أمريكـا يمكن أن تحدث قبـل مئة سنـة من هذا التـاريخ . فكيف يمكـن الافتـراض أن المليونـير الأمـريكي أصبـح أمـامـه شبـح الخـوف والرعب ، وعلى أساس هذا الشبح تنازل عن جزء من مكاسبه ! !

أم أن هؤلاء قـد دخلت إلى قلوبهم التقوىٰ فجـأة فاستنـارت قلوبهم بنـور الإسلام الذي أنار قلوب المسلمين الأوائل الذين كانوا لا يعرفون حداً للمشاركة و المواساة والذين كانوا يشاطرون إخوانهم غنائمهم . وسرّاءهم وضرّاءهم ! !

أم أن هؤلاء قد تحولوا بين عشية وضحاها إلى مسلميـن وقلوبهم إلى قلوب مسلمة ! !

إن كـل هذا لم يتحقق منـه أي شيء من ذلك . فلم يكن كـارل مـاركس سيىء الظن بهؤلاء بل لقد كان ظنه منطبقاً على هؤلاء انطباقاً تاماً .

كما أن هؤلاء لم يرعبهم شبح العامل فتنازلوا من أجل إسكاته . ولا أن قلوبهم قد خفقت بالتقوىٰ . فلم تعرف التقوىٰ ، ولن تعرفها لأنها انغمست في لذات المال وفي الشهوات . نعم لم يتحقق شيء من ذلك . ولكن ما الذي وقع ؟ وكيف نفسر هذا الذي وقع . . ؟

إن هذا الذي وقع ـ في الحقيقة ـ كان نتيجة تناقض آخر عاش مع التناقض الطبقي منذ البداية . لكن ماركس والثوار الذين ساروا على هذا الطريق لم يستطيعوا أن يكتشفوا ذلك التناقض ، ولهذا حصروا أنفسهم في التناقض الطبقي ، في التناقض بين المليونير الأمريكي أو الإنجليزي وبين العامل الأمريكي أو الإنجليزي ، ولكنهم لم يدخلوا في الحساب التناقض الآخر الأكبر الذي أفرزه جدل الإنسان الأوروبي ، وأفرزه تناقض الإنسان الأوروبي فغطى على هذا التناقض الطبقي ، بل جنّده ، وأوقفه إلى فترة طويلة من الزمن .

أما ما هو ذلك التناقض ؟

نحن بنظرتنا المنفتحة يمكننا أن نبصر ذلك التناقض وأن نضع أصبعنا عليه لأننا لم نحصر أنفسنا في إطار التناقض الطبقي ، بل قلنا إن جدل الإنسان دائماً يفرز أي شكل من أشكال التناقض الاجتماعي . فذلك التناقض الآخر وجد فيه الرأسمالي المستغل (الأوروبي والأمريكي) أن من طبيعة هذا التناقض أن يتحالف مع العامل ، ومع من يستغله لكي يشكل هو والعامل قطباً في هذا التناقض ، فلم يعد التناقض تناقضاً بين الغني الأوروبي والعامل الأوروبي بل إن هذين الوجودين الطبقيين تحالفا معا وكونا قطباً في تناقض أكبر بدأ تاريخياً منذ بدأ ذلك التناقض الذي تحدث عنه ماركس . أما ما هو القطب الآخر في هذا التناقض ؟ . فهو أن وأنت وهو الشعوب الفقيرة في العالم أو ما يسمىٰ بشعوب العالم الثالث ، فهو شعوب آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية . فهذه الشعوب هي التي تمثل القطب الثاني في هذا التناقض .

إن الإنسان الأوروبي بكلا وجوديه الطبقيين تحالف وتمحور من أجل أن يمارس صراعه واستغلاله لهذه الشعوب الفقيرة . وقد انعكس هذاالتناقض الأكبر اجتماعياً من خلال صيغ الاستعمار المختلفة التي زخرت بها الساحة

التاريخية منذ أن خرج الإنسان الأوروبي والأمريكي من دياره ليفتش عن كنوز الأرض في مختلف أرجاء العالم ، ولينهب الأموال بلا حساب من مختلف البلاد والشعوب الفقيرة .

إن هذا التناقض غطىٰ على التناقض الطبقي ، بل جمّد التناقض الطبقي لأن جدل الإنسان من وراء هذا التناقض كان أقوىٰ من جدل الإنسان من وراء ذلك التناقض . إذ إن الثراء الهائل الذي تكدس في أيدي الطبقة الرأسمالية في الدول الرأسمالية لم يكن كله ، بل ولا معظمه من نتاج عرق جبين العامل الأوروبي والأمريكي وإنما كان نتاج غنائم حرب ، وكان نتاج غنائم غارات على البلاد الفقيرة . وعلى بلاد أخرىٰ استطاع الإنسان الأبيض أن يغزوها وأن ينهبها (٩٠) .

إن هذا النعيم الذي تغرق فيه تلك الدول ليس من عرقَ جبين العامل الأوروبي وليس من نتاج التناقض الطبقي بين الرأسمالي والعامل وإنما هذا النعيم هو من نفط آسيا وأمريكا اللاتينية ، وهو من ألماس تنزانيا ، ومن الحديد والرصاص والنحاس واليورانيوم في مختلف بلاد إفريقية . وهو من قطن مصر ، ومن تنباك لبنان ، وخمر الجزائر . نعم من خمر الجزائر . لأن الكافر المستعمر الذي استعمر الجزائر حول أرضها كلها إلى بستان عنب لكي يقطف هذا العنب

---

(٩٠) لابد هنا من الإشارة إلى أن معظم الدول التي تسمىٰ اليوم بالدول الاشتراكية وتنضوي تحت اصطلاح المعسكر الاشتراكي . لم تدخل في هذا المعسكر نتيجة لصراع التناقضات الناشىء من عوامل المقولة الماركسية ، وإنما دخلت بقوة السلاح السوفياتي . فيما لم تكن ظروفها الداخلية مهيئة بشكل يتلائم وقيام ثورة اشتراكية . وهي لم تكن أكثر من غنيمة روسية من جراء الحرب العالمية الثانية . وهو أمر تعجز عن تفسيره نظرية التناقض الاجتماعي الماركسية . إذ إن هذه الدول كان يفترض أن تقوم بثورة داخلية ومنها ينبثق النظام الاشتراكي على أن تكون هذه الثورة لها الدور الجوهري والأساسي ولهذا لا يمكن اعتبار حرب العصابات التي كان الروس يمولونها بمثابة ثورة داخلية لعبت الدور الأساسي في إقامة الأنظمة الاشتراكية في هذه البلاد . وذلك الجيش الروسي هو الذي لعب الدور الحاسم في ذلك ، فيما كانت حرب العصابات تلك تمتع بدور ثانوي . على أن أحداث براغ عام ١٩٦٨ والمجر عام ١٩٥٦ والتي قمعت بالدبابات الروسية قد أظهرت الوجه الحقيقي لحرب العصابات تلك . مما يعني أن النظام الاشتراكي هناك لم يقام نتيجة انبثاق ديالكتيكي داخلي وإنما نتيجة غزو وتسلط خارجي . وهو ما يناقض النظرية الماركسية تماماً .

ويحوّله إلى خمر ليسكر به العمال ، وليشعر أولئك العمال بالنشوة والخيلاء لأنهم يشربون خمر الجزائر بعدما يقطفون عنب الجزائر فيحولونه إلى خمر .

إن هذا النعيم كله من هذه المصادر ، ومن هذه الينابيع . ولقد سكروا على خمر الجزائر ولم يسكروا على عرق جبين العامل الفرنسي أو الأوروبي أو الأمريكي .

اذن التناقض الذي جمد ذلك التناقض ، والذي أوقف ذلك التناقض هو هذا التناقض الأكبر بين المحور الرأسمالي ككل بكلتا طبقتيه ، وما بين الشعوب الفقيرة في العالم[٩١] ومن خلال هذا التناقض وجد الرأسمالي الأوروبي والأمريكي أن من مصلحته أن يقاسم العامل شيئاً من هذه الغنائم التي نهبها مني ومنك ومن الفقراء والمستضعفين في الأرض . ورأى أن من مصلحته أن يعطي نفحة منها ، فيسكر هو ويسكر العمال أيضاً ، بخمر الجزائر . وأن يتزين بماس تنزانيا . ويتزين العامل أو زوجته بماسة من ماسات تنزانيا .

ولهذا نرىٰ أن العامل بدأت حياته تختلف عن نبوءات ماركس ، وليس ذلك ناجم من كرم طبيعي في الرأسمالي الأوروبي والأمريكي . وليس لتقوىٰ وإنما هي غنيمة كبيرة كان من المفروض أن يعطي جزءاً منها لهذا العامل ،

---

(٩١) ترىٰ أين تغدو معركة التناقض الطبقي إزاء قضيتي الاستعمار ، وتقاسم النفوذ بين القوتين العالميتين (روسيا وأمريكا) للعالم ضمن أطروحة التعايش السلمي ؟ فالأولى (أي الاستعمار) تخلف النظرية الماركسية لأن ما يستجد من الاستعمار على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية السياسية وما شاكل يحدث نتيجة لضغوط خارجية ، وهو ما يخالف مبدأ العلة والمعلول الماركسي الذي يشير إلى أن التغيرات معلولة لعلل كامنة في ذات الأشياء . ولو فسرنا ـ قسراً ـ دولة ما بشيء وكيان واحد . فإن الغزو الخارجي يغدو علة خارجية .
أما المقولة الثانية فتفترض اجتماع النقائض بدلاً من صراعها ، ومصافحة الطبقة البروليتارية للأيادي التي ما زالت ملوثة بدمائها . وهو أمر يخالف الماركسية بشكل كامل .
إن جميع هذه الأمور لا تكشف عن وجود خلل أو شذوذ في اتجاهات ومسيرة الأحداث ، وإنما تعرب بوضوح عن خلل في فهم التناقضات الاجتماعية وتشخيص القطب الأساس الذي تتمحور عنده جميع هذه التناقضات ومنها التناقض الطبقي .

والجزء وحده يكفي لأجل تحقيق هذا الرفاه بالنسبة إلى هذا العامل الأوروبي والأمريكي .

إذن فالحقيقة التي يثبتها التاريخ دائماً هي أن التناقض لا يمكن حصره في صيغة واحدة بل إن له صيغاً متعددة، وذلك لأن كل هذه الصيغ تنبع من منبع واحد وهو التناقض الرئيسي المتمثل بالجدل الإنساني . والجدل الإنساني لا تعوزه صيغة ، فإذا حلت صيغة وضع صيغة أخرىٰ مكانها ولهذا فليس من الصحيح أن نطوق كل التناقضات في التناقض الطبقي ، أو في التناقض بين من يملك ومن لا يملك ، فإذا حللنا هذا التناقض قلنا بأن التناقضات كلها قد حلت . فالتناقض لا يمكن حصره في هذه الصيغة . وإنما التناقض الرئيسي هو استغلال القوي للضعيف [٩٢] .

التأثير المتبادل في العلاقة الاجتماعية القرآنية

قلنا إن خط علاقات الإنسان مع الطبيعة مختلف مشكلة وقانوناً عن خط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان ، وذكرنا أن هذين الخطين كل واحد منهما مستقل استقلالاً نسبياً عن الخط الآخر . ولكن هذا الاستقلال النسبي لا ينفي التفاعل والتأثير المتبادل إلى حد ما بين هذين الخطين . فلكل منهما لون من التأثير الطردي أو العكسي في الخط الآخر ، وهذا التأثير المتبادل بين الخطين يمكن إبرازه ضمن علاقتين قرآنيتين بين هذين الخطين . حيث إن العلاقة الأولى تبرز مدىٰ تأثير خط علاقات الإنسان مع الطبيعة في خط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان . فيما أن العلاقة القرآنية الثانية تبرِز من الجانب الآخر مدىٰ تأثير علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان في علاقات الإنسان مع الطبيعة .

الطبيعة وأثرها في نشوء الاستغلال

أما العلاقة الأولى التي تبرز تأثير علاقات الإنسان مع الطبيعة في الخط الآخر فمؤدى هذه العلاقة هو أنه كلما نمت قدرة الإنسان على الطبيعة ،

---

(٩٢) إلى هنا انتهت المحاضرة الثانية عشرة وتبدأ بعدها المحاضرة الثالثة عشرة التي ألقيت في يوم الثلاثاء الموافق فيه الرابع من رجب عام ١٣٩٩ هـ .

واتسعت سيطرته عليها ، وازداد اغتناءً بكنوزها ، ووسائل إنتاجها . فإنه سوف تتحقق بذلك إمكانية أكبر للاستغلال على خط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان وفقاً لقوله سبحانه وتعالى ﴿ **كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ** . . ﴾ (٩٣) .

فهذه الآية الكريمة تشير إلى هذه العلاقة . حيث تشير إلى أن الإنسانية بقدر ما تتمكن وتستقطب الطبيعة وتتوصل إلى وسائل إنتاج أقوىٰ وأدوات توليد أوسع . فإن انعكاسات ذلك ستكون على حقل علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان على شكل إمكانيات وإغراءات وفتح الشهية للأقوياء لكي يستثمروا أداة الانتاج في سبيل استغلال الضعفاء .

تصوروا مجتمعاً يعيش على الصيد باليد والحجارة والهراوة . إن مثل هذا المجتمع لا يتمكن من أن يمارس بذور الأقوياء ، أو بذور الوحوش فيه . فهؤلاء لا يتمكنون على الأغلب من أن يمارسوا أدواراً خطيرة من الاستغلال الاجتماعي ، لأن مستوىٰ الإنتاج محدود ، والقدرة محدودة ، وكل إنسان لا يكسب عادة بعرق جبينه إلا قوت يومه . حيث لا توجد إمكانية الاستغلال بشكله الاجتماعي الواسع وإن وجدت ألوان أخرى من الاستغلال الفردي .

ولكن لاحظوا في الجانب الآخر مجتمعاً متطوراً استطاع الإنسان فيه أن يصنع الآلة التجارية والآلة الكهربائية ، واستطاع أن يخضع الطبيعة لإرادته . فإن في مثل هذا المجتمع سوف تكون الآلة التجارية والآلة الكهربائية المعقدة المتطورة الصنع على ساحة علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان أداة تشكل بحسب مصطلح الفلاسفة إمكانيه ما بالقوة للاستغلال . وما يبقىٰ هو أن يخرج ما هو بالقوة إلى ما هو بالفعل وذلك على عهدة الإنسان ودوره التاريخي على الساحة الاجتماعية . فالإنسان هو الذي يصنع الاستغلال ، وهو الذي يفرز النظام الرأسمالي المستغل حينما يجد الآلة البخارية والكهربائية ، ولكن الآلة البخارية والكهربائية هي التي تعطيه إمكانية هذا الاستغلال . وهي التي تهيىء له فرصة

---

(٩٣) سورة العلق ٩٦ : ٦ ـ ٧ .

تفتح شهيته ، وتوقظ مشاعره ، وتحرك جدله الداخلي وتناقضه الداخلي من أجل أن يبرز صيغة تتناسب مع ما يوجد على الساحة من قوىٰ الإنتاج ووسائل التوريد .

وهذا هو الفرق بيننا وبين المادية التاريخية ، فالمادية التاريخية اعتقدت بأن الآلة هي التي تصنع الاستغلال ، وهي التي تصنع النظام المتناسب معها . ولكننا نحن لا نرىٰ أن دور الآلة هو دور الصانع ، وإنما دور الآلة هو دور الإمكانية ، ، ودور توفير الفرصة والقابلية ، وأما الصانع الذي يتصرف إيجاباً وسلباً ، أمانة وخيانة ، صموداً وانهياراً ، فهو الإنسان وفقاً لمحتواه الداخلي ، ولمثله الأعلى ولمدىٰ التحامه مع هذا المثل الأعلى .

العدالة وأثرها في عطاء الطبيعة

وأما العلاقة القرآنية الثانية والتي تمثل وتجسد تأثير علاقات الإنسان مع الطبيعة ، فمؤدىٰ هذه العلاقة القرآنية هو أنه كلما جسدت العدالة علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان . وكلما استطاعت هذه العلاقات أن تستوعب قيم هذه العدالة وأن تبتعد عن أي لون من ألوان الظلم والاستغلال من الإنسان لأخيه الإنسان . فإن ذلك كلما وقع ازدهرت علاقات الإنسان مع الطبيعة وتفتحت الطبيعة عن كنوزها ، وأعطت المخبوء من ثرواتها ونزلت البركات من السماء ، وتفجرت الأرض بالنعمة والرخاء . وهذه العلاقة القرآنية هي التي شرحها القرآن الكريم في نصوص عديدة حيث قال سبحانه وتعالى : ـ ﴿ **وأَنْ لَو استَقامُوا علىٰ الطرِيقَةِ لأسقيناهُم ماءً غَدَقاً** . . ﴾ [٩٤] .

﴿ **وَلْو أَنَّهُمْ أَقامُوا التوراةَ والإنجِيلَ وَما أُنزِلَ إلَيهِم مِنْ رَبهِم لأكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ ، وَمِن تَحتِ أرجُلِهِم** ﴾ [٩٥] .

﴿ **وَلَو أَنَّ أَهلَ القُرىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفتَحنَا عَلَيهِم بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ والأرضِ . وَلكِن كَذَّبُوا فأَخذناهُم بِما كانوا يَكسِبونَ** ﴾ [٩٦] .

---

(٩٤) سورة الجن ٧٢ : ١٦ .

(٩٥) سورة المائدة ٥ : ٦٦ .

(٩٦) سورة الأعراف ٧ : ٩٦ .

إن هذه العلاقة مؤداها أن علاقات الإنسان مع الطبيعة تتناسب عكسياً مع ازدهار العدالة في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان . فكلما ازدهرت العدالة في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان أكثر فأكثر ازدهرت علاقات الإنسان مع الطبيعة . وكلما انحسرت العدالة عن الخط الأول انحسر الازدهار عن الخط الثاني . أي أن مجتمع العدل هو الذي يضع الازدهار في علاقات الإنسان مع الطبيعة ، ومجتمع الظُلم هو الذي يؤدي إلى انحسار تلك العلاقات (علاقات الإنسان مع الطبيعة) .

استراتيجية التفرقة في مجتمع الفراعنة

وهذه العلاقة ليست ذات محتوىً غيبي فقط حيث إننا نؤمن أيضاً بمحتواها الغيبي ، ولكن إضافة إلى محتواها الغيبي الرباني فهي تشكل في الوقت نفسه سنة من سنن التاريخ بحسب مفهوم القرآن الكريم . وذلك لأن مجتمع الظلم : مجتمع الفراعنة ـ على مر التاريخ ـ هو مجتمع ممزق ومشتت . فالفرعونية ـ على مر التاريخ ـ حينما تتحكم في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان تستهدف تمزيق طاقات المجتمع وتشتيت فئاته وبعثرة إمكانياته . ومن الواضح أن تشتيت وبعثرة وتفتيت وتجزئة من هذا القبيل لا تتيح لأفراد المجتمع أن يحشدوا قواهم الحقيقية ويسيطروا على الطبيعة [٩٧] .

وهذا هو الفرق بين المثل العليا المنخفضة الفرعونية . وبين المثل الأعلى الحق . مثل التوحيد ـ سبحانه وتعالى ـ فإن هذا المثل الأعلى يوحد الجماعة البشرية ، ويلغي كل الفوارق والحدود باعتبار شمولية هذا المثل وهو ـ تبعاً لذلك ـ يستوعب كل الحدود وكل الفوارق ، ويهضم كل الاختلافات ، ويصهر البشرية كلها في وحدة متكافئة ولا يوجد ما يميز بعضها عن بعض ، لا من دم

---

(٩٧) إن هذا الأمر لا يتنافى ـ بطبيعة الحال ـ مع ما يلحظ من تسلط الحضارة المعاصرة ، حضارة المثل المنخفضة على الطبيعة وسيطرتها عليها . حيث إن هذا التسلط والسيطرة حينما يلحظ من خلال معاييره الخلقية والقيم التي تتحكم فيه ـ تتبدى حينئذ الصورة البشعة لهذه السيطرة والتسّيد . وما الفزع النووي الذي يتملك أبناء البشرية إلا أنموذجاً واحداً على بشاعة وقذارة هذه السيطرة .

ولا من جنس ، ولا من قومية ، ولا من حدود جغرافية أو طبقية (٩٨) .

إن المثل الأعلى بشموليته يوحد البشرية ، ولكن المثل العليا المنخفضة تجزىء البشرية وتشتتها . انظروا إلى المثل الأعلى كيف يقول ﴿ إنَّ هذِهِ أُمَّتُكم أُمَّةً واحِدَةً وأنا رَبُّكُم فاعبُدُونِ . . ﴾ (٩٩) .

﴿ إنَّ هذِهِ أَمَّتكُمُ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأنا رَبُّكُم فاتَّقُونِ . . ﴾ (١٠٠) .

هذا هو منطق شمولية المثل الأعلى التي لا تعترف بحد وبحاجز في داخل هذه الأسرة البشرية . ولكن انظروا واستمعوا إلى المثل المنخفض ، وإلى مجتمع الظلم والهته كيف يقولون أو كيف يتحدث عنهم القرآن الكريم ﴿ إنَّ فِرعَونَ عَلا في الَأرضِ وَجَعَلَ أَهَلها شِيَعاً ﴾ (١٠١) .

ففرعون الذي هو المثل الأعلى المنخفض والفرعونية على مر التاريخ التي تبني العلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس الظلم والاستغلال . هذه الفرعونيةتجزىء المجتمعوتبعثر إمكانياته وطاقاته ، ومن هنا تهدر ما في الإنسان من قدرة على الإبداع والنمو الطبيعي على ساحة علاقات الإنسان مع الطبيعة (١٠٢) .

التقسيمات الفرعونية للمجتمع

إن عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع تقسم المجتمع إلى فصائل وجماعات هي :

---

(٩٨) إشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه المجيد ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنّا خَلَقناكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعلناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا . إنَّ أكرَمكُم عِندَ الله أتقاكُم ، إنَّ الله عَليمٌ خَبيرٌ . . . ﴾سورة الحجرات ٤٩ : ١٣ .

(٩٩) سورة الأنبياء ٢١ : ٩٢ .

(١٠٠) « المؤمنون » ٢٣ : ٥٢ .

(١٠١) سورة القصص ٢٨ : ٤ .

(١٠٢) قبل هذه المحاضرة بأيام قليلة كان السيد الشهيد ـ رض ـ قد كتب بحثاً تحت عنوان « منابع القدرة فيالدولة الاسلامية » وهو بحث رائع في مجال تصوير مدى القدرات الهائلة التي يتميز بامتلاكها النظام الإسلامي في مجال حشد القوى البشرية وتوظيفها من أجل إنجاز مهمة التطوير الحضاري للأمة والقضاء على أوضاعها المختلفة .

أولاً : ـ جماعة الظالمين المستضعفين : ـ وهذه الجماعة يمكن تسميتها في الوقت نفسه الظالمين الثانويين أو بحسب تعبير أئمتنا عليهم الصلاة والسلام « أعوان الظلمة » . وهؤلاء الظالمون المستضعفون . **يشكلون حماية لفرعون** وللفرعونيةويمثلون سنداً في المجتمع لبقاء الفرعونية واستمرار وجودها وإطارها . وفيهم قال الله سبحانه وتعالى : **﴿ وَلَو تَرَىٰ إذِ الظَّالِمونَ مَوقوفونَ عِندَ رَبِّهِم يَرجِعُ بَعضُهُم إلى بعضٍ القَولَ ، يَقولُ الذينَ استُضعِفوا لِلَّذينَ استكبَروا لَولا أنتم لَكُنَّا مُؤمِنينَ . . ﴾** [١٠٣] .

فهنا القرآن يتحدث عن الظالمين فيقول **﴿ إذ الظالمون موقوفون ﴾** ولكن الظالمين صنفهم إلى قسمين : ـ إلى من استضعف منهم ومن استكبر منهم . إذن فالظالمون فيهم مستكبرون وهم الذين يمثلون الفرعونية في المجتمع وفيهم مستضعفون .

وعليه فالطائفة الأولى في التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم هم الظالمون المستضعفون هؤلاء الذين يحشرون يوم القيامة في زمرة الظالمين ثم يقولون للمستكبرين من الظالمين لولا أنتم لكنا مؤمنين . وهذه الطائفة هي التي تشكل الحماية والسند للفرعونية .

ثانياً : ـ الحاشية المتملقون : ـ أما الطائفة الثانية في عملية**التمزقة الفرعونية** لمجتمع الظلم فهم ظالمون يشكلون حاشية ومتملقون . وهم لا يمارسونظلماً بأيديهم بالفعل ولكنهم دائماً وأبداً على مستوى نزوات وشهوات ورغبات فرعون يسبقونه بالقول من أجل أن يصححوا مسلكه ومسيرته . وعنهم قال الله سبحانه وتعالى : ـ **﴿ وَقَالَ الملأُ مِن قومِ فِرعَونَ أَتَذَرُ مُوسىٰ وقومَه لِيُفسِدوُا في الأَرضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبناءَهُم وَنَستحيي نِساءَهُم وإنَّا فَوقَهمُ قاهِرونَ . . ﴾** [١٠٤] .

فهؤلاء هنا شكّلوا دور الإثارة لفرعون . حيث إنهم كانوا يعرفون أنهم

---

(١٠٣) سورة سبأ ٣٤ : ٣١ .

(١٠٤) سورة الأعراف ٧ : ١٢٧ .

بهذا الكلام يضربون على الوتر الحساس في قلب فرعون . وأن فرعون كان بحاجة إلى كلام من هذا القبيل ، فتسابقوا إلى هذا الكلام لكي يجعلوا فرعون يعبر عما في نفسه ، ويتخذ الموقف المنسجم مع مشاعره وعواطفه وفرعونيته .

ثالثاً : ـ الهمج الرعاع : وأما الطائفة الثالثة في عملية التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم فهم أولئك الذين عبر عنهم الإمام علي عليه الصلاة والسلام « بالهمج الرعاع » وهم مجرد آلات مستسلمة للظلم ، لا تحس بالظلم ، ولا تدرك أنها مظلومة . كما أنها لا تدرك أن في المجتمع ظلماً . فهي آلات تتحرك تحركاً آلياً يشبه التحرك الميكانيكي للآلة [١٠٥] ، وتحركهم تحرك التبعية والطاعة دون تدبر ، ودون وعي ، فلقد سلب فرعون منها تدبرها وعقلها ووعيها ، وربط يدها به لا عقلها به ، ولهذا فهي تحرك يدها تحريكاً آلياً وتستسلم للأوامر الفرعونية دون أن تناقشها بل وحتى دون أن تتدبرها . حتى بينها وبين نفسها لا بينها وبين الآخرين .

إن هذه الفئة ـ بطبيعة الحال ـ تفقد كل قدرة على الإبداع البشري في مجال التعامل مع الطبيعة ، وتفقد كل قابليات النمو لأنها تحولت إلى آلات. واذا ما وجد أن هناك إبداع في هذه الفئة فإنما هو إبداع من يحرك هذه الآلات ، وإبداع تلك الفرعونية التي تحرك هذه الآلات . وأما هذه الفئة فلم تعد أناساً وبشراً يفكرون ويتدبرون لكي يستطيعوا أن يحققوا لوناً من الإبداع على هذه الساحة حيث قال الله سبحانه وتعالى : ـ ﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعنا سادَتَنا وكُبَرَاءنَا فأَضَلُّونا السَّبيلا** ﴾ [١٠٦] .

فهنا لا يوجد في كلام هؤلاء ما يشعر بأنهم كانوا يحسون بالظلم أو كانوا

---

(١٠٥) لأنها في العادة منهمكة في تلبية حاجات الهموم الصغيرة التي تجعلها تفقد البصيرة بشكل من شأنه أن يبقيها غافلة عما يجري في الساحة التي تعيش ضمنها . إنها كمن يطرق برأسه إلى الأسفل وهو يتطلع إلى كيفية إرواء الحاجات الأرضية والترابية من دون أن يكلف نفسه ولو لمرة بتحمل عناء رفع هذا الرأس للتطلع إلى ما يجري حوله . وهذا هو الذي يجعل هذه الشريحة الاجتماعية تلبي كل ما يطلب منها دون أن تجد في نفسها فرصة السؤال عن أسباب هذا الطلب ومبررات تلبيتها إياه .وذلك نتيجة لأن كل ما يهمها هو كيفية توفير وسائل العيش المرفه وحياة الراحة والدعة .

(١٠٦) سورة الأحزاب ٣٣ : ٦٧ .

يحسون بأنهم مظلومون ، وإنما هو مجرد طاعة وتبعية . وهؤلاء هم القسم الثالث في تقسيم مولانا أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام حينما قال : ـ الناس ثلاثة « عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق » (١٠٧) .

وهذا القسم الثالث يشكل مشكلة بالنسبة إلى أي مجتمع صالح ، وبقدر ما يمكن للمجتمع الصالح أن يستأصل هذا القسم بتحويله إلى القسم الثاني أي بتحويله إلى متعلم على سبيل النجاة على حد تعبير الإمام ، أو إلى تابع بإحسان على حد تعبير القرآن ، أو إلى مقلد (١٠٨) بوعي وتبصر على حد تعبير الفقه . أقول : إنه بقدر ما يمكن من تحويل هذا القسم إلى القسم الثاني فسيمكن للمجتمع الصالح أن يستمر وأن يمتد .

ولهذا كان من ضرورات المجتمع الصالح في نظر الإمام عليه الصلاة والسلام شجب هذا القسم ، فهؤلاء هم همج ، ورعاع ينعقون مع كل ناعق ليس لهم عقل مستقل ، أو إرادة مستقلة. ولهذا كان الإمام (ع) يرىٰ أن هذا القسم الثالث يجب تصفيته من المجتمع الصالح ، ولكن ليس من خلال القضاء عليه فردياً ، وإنما بتحويله إلى القسم الثاني ضمن أحد الصيغ الثلاثة التي ذكرناها . وذلك من أجل أن يستطيع المجتمع الصالح أن يواصل إبداعه ، ولكي يستطيع كل أفراد المجتمع الصالح أن يشاركوا مشاركة حقيقية في مسيرة الإبداع .

وذلك خلافاً للفرعونية التي تحاول أن توسع من هذا القسم الذي يمثله الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كل ناعق (١٠٩) . فكلما توسعت هذه الفئة أكثر

---

(١٠٧) نهج البلاغة باب الحكم ١٤٧ ص ٤٩٦ .

(١٠٨) المقلد (بكسر اللام) : مصطلح فقهي يشار فيه إلى الإنسان الذي لم يبلغ حد الاجتهاد الذي يمكنه من استنباط الأحكام الشرعية من منابعها الشرعية . وهو أمر واجب تحققه لدىٰ الإنسان المسلم كي تأتي مواقفه وسلوكياته منسجمة مع تعاليم الباري عز وجل . غير أن عملية التقليد المشار إليها محصورة فقط في مجال معرفة الأحكام الشرعية . إذ أنها تغدو عملية محرمة حينما تمتد إلى مجال العقائد الإسلامية التي يحرم التقليد فيها .

(١٠٩) يجب الانتباه الى أن الأنظمة الطاغوتية الحريصة دائماً على توسعة هذه الفئة الاجتماعية وعادة تعمد =

فأكثر قدمت المجتمع خطوة بعد خطوة لأن هذه الفئة لا تستطيع بوجه من الوجوه أن تدافع عن المجتمع ، إذا حلت كارثة في الداخل أو طرأت كارثة في الخارج . ولهذا فكلما توسعت هذه الفئة ، وهذا القسم في المجتمع ازداد خطر فناء المجتمع . وبهذا تموت المجتمعات موتاً طبيعياً . وذلك لأن مفهوم الموت لدىٰ القرآن للمجتمعات وللأقوام وللأمم هو الموت الطبيعي لا الموت المخروم . إذ إن المجتمع له موتان : موت طبيعي وموت مخروم . والموت الطبيعي للمجتمع يكون من طريق توسع هذه الفئة الثالثة وازديادها نوعياً وعددياً في المجتمع إلى أن تحل الكارثة فينهار المجتمع .

رابعاً : ـ المظلومون المهادنون : أما الطائفة الرابعة فهم أولئك الذين يستنكرون الظلم في أنفسهم ، وأولئك الذين لم يفقدوا لبهم أمام فرعون والفرعونية فهم يستنكرون الظلم ولكنهم يهادنونه ويسكتون عنه فيعيشون حالة التوتر والقلق في أنفسهم . وهذه الحالة ـ حالة التوتر والقلق ـ أبعد ما تكون عن حالة تسمح للإنسان بالإبداع والتجديد والنمو على ساحة علاقات الإنسان مع الطبيعة . فهؤلاء يسميهم القرآن الكريم « ظالمي أنفسهم » وذلك في قول الله سبحانه وتعالى ﴿ **إنّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظالِمِي أَنفُسِهِم ، قالوا : ـ فيمَ كُنتُم ؟ . قالوا : كنَّا مُستَضعَفينَ في الأَرضِ . قالوا : أَلَم تَكُن أَرضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِروا فِيها** ﴾ (١١٠) .

فهؤلاء لم يظلموا الآخرين ، وليسوا من الظالمين المستضعفين كالطائفة الأولى ، وليسوا من الحاشية المتملقين وليسوا أيضاً من الهمج الرعاع الذين فقدوا لبهم بل بالعكس هم يشعرون بأنهم مستضعفون : ﴿ **قالوا كُنّا مُستَضْعَفينَ في الأَرضِ** ﴾ وهم لم يفقدوا لبهم كما أنهم يدركون واقعهم ولكنهم كانوا عملياً

= إلى تغليفها بأساليب قد تضفي عليها الطابع الحضاري من أجل أن تحظى بقبول أوساط اجتماعية أخرىٰ غير هذه الفئة . وتدعيم استمرار هذه الفئة في عدم التفاتها ووعيها على واقعها المتردي .ومن أهم الأساليب المعاصرة وسائل اللهو والإشغال المختلفة . سواء كانت هذه الوسائل تتخذ طابع الرياضة وفنونها أو الحفلات والأعياد المجردة من تراث الأمة وحضارتها . أو ما شاكل .

(١١٠) سورة النساء ٤ : ٩٧ .

مهادنين . ولهذا عبر القرآن عنهم بأنهم ظلموا أنفسهم . ومن الطبيعي عندئذ أن لا يترقب من هذه الطائفة أن تساعد بإبداع حقيقي في مجال علاقات الإنسان مع الطبيعة .

خامساً : الهاربون من مسرح الحياة : ـ إن الطائفة الخامسة في عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع هي : الطائفة التي تتهرب من مسرح الحياة وتبتعد عن المسرح وتتهرب منه . لتترهب . وهذه الرهبانية موجودة في كل مجتمعات الظلم ـ على مر التاريخ ـ وهي تتخذ صيغتين : ـ

ـ الأولى : صيغة جادة تتمثل في رهبانية جادة تريد أن تفر بنفسها كي لا تتلوث بأوحال المجتمع . وهذه الرهبانية الجادة التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله ﴿ **وَرَهبانِيَّة ابتَدَعُوها ما كَتبنَاها عَلَيهِم** ﴾ (١١١) .

يشجبها الإسلام لأنها موقف سلبي تجاه مسؤولية خلافة الإنسان على الأرض .

ـ والثانية : صيغة مفتعلة للرهبانية تتمثل فيمن يترهب ويلبس مسوح الرهبان ولكنه ليس راهباً في أعماق نفسه ، وإنما يريد بذلك أن يخدر الناس ويشغلهم عن فرعون وظلم فرعون ويسطو عليهم نفسياً وروحياً ، وهذا هو الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿ **إنَّ كَثيراً مِنْ الَأحبارِ والرُّهبانِ لَيَأكُلُونَ أموالَ النّاسِ بالباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ** ﴾ (١١٢) .

سادساً : ـ المستضعفون : ـ وهم الجماعة السادسة والأخيرة في عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع . فالفرعونية حينما جزأت المجتمع إلى طوائف ، وفرعون حينما اتخذ من قومه شيعاً ، استضعف طائفة معينة منهم خصها بالاستضعاف والإذلال ، وهدر الكرامة لأنها كانت الطائفة التي يتوسم أن تشكل إطاراً للتحرك ضده . ولهذا استضعفها بالذات ﴿ **وَإذ نَجيَّناكُم مِن آلِ فِرعَونَ يَسُومُونَكُم سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحونَ أبناءَكُم ويَستَحيونَ نِساءَكُم . وفي ذلِكُم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُم عَظِيمٌ** . . ﴾ (١١٣) .

---

(١١١) سورة الحديد ٥٧ : ٢٧ . (١١٢) سورة التوبة ٩ : ٣٤ . (١١٣) سورة البقرة ٢ : ٤٩ .

ولكن ماذا بعد انحسار الظلم

لقد علمنا القرآن الكريم في سنة أخرىٰ من سنن التاريخ أن موقع أي طائفة في التركيب الفرعوني لمجتمع الظلم يتناسب عكسياً مع موقعه بعد انحسار الظلم ، وهذا معنىٰ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾ (١١٤) .

إن تلك الطائفة السادسة التي كانت منحدر التركيب ، يريد الله سبحانه وتعالىٰ أن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين . وهذه علاقة أخرىٰ وسنة تاريخية أخرىٰ .

إذن إلى هنا استخلصنا هذه الحقيقة وهي : ـ أن المجتمع يتناسب مدىٰ الظلم فيه تناسباً عكسياً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة . فيما يتناسب مدىٰ العدل فيه تناسباً طردياً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة ومن هنا كان مجتمع الفرعونية المجزء والمشتت مهدور القابليات والطاقات والإمكانيات . ولهذا تحبس السماء قطرها . وتمنع الأرض بركاتها . وأما مجتمع العدل فهو على العكس تماماً مجتمع تتوحد فيه كل القابليات وتتساوىٰ فيه كل الفرص والإمكانيات . وهذا المجتمع هو الذي تحدثنا الروايات عنه من خلال ظهور الإمام المهدي ـ عليه الصلاة والسلام ـ (١١٥) ، وتحدثنا عما تحفل به الأرض

---

(١١٤) سورة القصص ٢٨ : ٥ .

(١١٥) ظهور الإمام المهدي ـ عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ من المسائل المتفق عليها لدى الأطراف الإسلامية الشيعية والسنية على حد سواء غير أنهم يختلفون في تشخيص زمان ولادة الإمام حيث تذهب الشيعة إلى القول بأنه قد ولد غير أنه اختفى وغاب وهو الإمام محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عليهم السلام أجمعين وهو الإمام الثاني عشر ويوافقها في ذلك غالبية المؤرخين . إلا أن بعض الأطراف الإسلامية السنية تنفي ذلك وتقول بأنه سيولد في آخر الزمان .

وعلى الرغم من أن الفكر الإسلامي القرآني لا ينفي إمكانية حدوث غيبة كبيرة حيث أنها لأنبياء الله إدريس والعزير ، وعيسىٰ ولولي الله الصالح الخضر ـ والذي تختلف الروايات فيما اذا كان نبياً أو غير ذلك ـ عليهم السلام أجمعين وأن من المتفق لدىٰ الفريقين أن هؤلاء على الرغم من طول غيبتهم سيظهرون ويسهمون في إشادة دولة الإمام المهدي ـ عج ـ وأنهم سوف يصلّون خلفه . =

والسماء في ظل الإمام المهدي (ع) من بركات وخيرات [116] ، وليس ذلك إلا

= وعلى الرغم من أن القوانين العلمية هي الأخرىٰ لا تنفي إمكانية تعمير الإنسان لفترة زمنية كبرىٰ . ما دام أنه يعتمد نظاماً خاصاً في الغذاء والوقاية من الأمراض وما شاكل من أمور تشترك فيها ديمومة الحياة الإنسانية .

وعلى الرغم من أن إمكانية الإعجاز الإلهي ولطفه قائمة في هذا المورد . أقول أنه على الرغم من كل هذه الأمور التي تعزز من مصداقية القول بأن الإمام قد ظهر وغاب والتي يدعمها المبدأ الإسلامي : لا تخلو الأرض من حجّة ، أو : ـ لابد لكل أمة من وجود رجل هداية . إلا أن الذي يمكن أن يكون مورد اهتمام الجميع ـ أو هكذا ينبغي أن يكون ـ هو كيفية التمهيد والاستعداد لظهور الإمام المهدي (عج) والذي يتوقف على ظهوره قيام الدولة الإسلامية العالمية وانتشار العدل في أفياء البشرية بعد أن ملئت من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . أو ما يعني إنقاذ الإنسانية من دمار اليوم وإيصالها إلى دولة العدل الإلهي . فمسألة الإمام المهدي (عج) ليست خاصة بطائفة دون أخرىٰ . وإنما هي مسألة الإسلام والقرآن لذا لابد من السعي بشكل جاد لإيلاء هذه القضية الاهتمام الأقصىٰ لدىٰ جميع المسلمين وصياغة جميع برامج العمل الإسلامي وخططه بشكل يتفق مع مسار هذه القضية . وبرمجة السلوكية الإسلامية بصورة من شأنها أن تعد الإنسان المسلم المعاصر لتحمل المسؤوليات الضخمة في إطار هذه القضية .

ومن المناسب الرجوع هنا إلى موسوعة الإمام المهدي (عج) في كتبها الأربعة ومقدمتها التي صاغها يراع السيد الشهيد والتي طبعت تحت عنوان « بحث حول المهدي » أما الكتب الأربعة لهذه الموسوعة فهي تاريخ الغيبة الصغرىٰ ، وتاريخ الغيبة الكبرىٰ ، وتاريخ ما بعد الظهور ، واليوم الموعود وهي من تأليف تلميذ السيد الشهيد ، الحجة السيد محمد الصدر . وقد بحثت ضمن إطار المسألة التي ذكرناها .

(١١٦) هناك أحاديث كثيرة تصف دولة الإمام المهدي (عج) بعموم الخير والبركة ولعل الأحاديث التالية تكفي في تسليط بعض الأضواء على ذلك فقد قال الرسول (ص) « ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ، ثم لا يجد أحداً يأخذها* » وعن الرسول (ص) أيضاً قوله « فيبعث الله عز وجل رجلاً من عترتي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، يرضىٰ ساكن السماء وساكن الأرض ، لا تدخر الأرض من بذرها شيئاً إلا أخرجته ، ولا السماء من قطرها شيئاً إلا صبته عليهم مدراراً** » .

وعن الإمام أمير المؤمنين (ع) : « ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها ولأخرجت الأرض نباتها ولذهبت الشحناء من قلوب العباد . واصطلحت السباع والبهائم ، حتىٰ تمشي المرأة بين العراق إلى الشام لا تضع قدميها إلا على النبات »*** .

* انظر صحيح البخاري ٢ : ٣٦ .

** انظر المستدرك على الصحيحين ٤ : ٤٦٥ للحاكم النيسابوري

*** انظر بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الأطهار محمد باقر المجلسي الطبعة الثالثة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٩٨٣ ، ٥٢ : ٣١٦ .

لأن العدالة دائماً وابداً تتناسب طرداً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة . وهي العلاقة القرآنية الثانية بين الخطين .

الثابت والمتحرك في التشريع الإسلامي

خرجنا[117] مما سبق بنظرية تحليلية قرآنية كاملة لعناصر المجتمع ، ولأدوار هذه العناصر وللعلاقة القائمة بين الخطين المزدوجين في العلاقة الاجتماعية ، أي خط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان ، وخط علاقات الإنسان مع الطبيعة ، وانتهينا في ضوء هذه النظرية القرآنية الشاملة إلى أن هذين الخطين أحدهما مستقل عن الآخر استقلالاً نسبياً ، ولكن كل واحد منهما له تأثير في الآخر على الرغم من ذلك الاستقلال النسبي .

إن هذه النظرية القرآنية في تحليل عناصر المجتمع وفهم المجتمع فهماً موضوعياً تشكل أساساً للاتجاه العام في التشريع الإسلامي ، فالتشريع الإسلامي في اتجاهاته العامة وخطوطه ، يتأثر وينبثق ويتفاعل مع وجهة النظر القرآنية والإسلامية إلى المجتمع وعناصره وأدوار هذه العناصر والعلاقات المتبادلة بين الخطين . وهذه النظريات التي قرأناها والتي انتهينا إليها في ضوء المجموعة المذكورة سابقاً من النصوص القرآنية ، هذه النظريات هي في الحقيقة الأساس النظري في الاتجاه العام للتشريع الإسلامي لأن الاستقلال النسبي بين الخطين ، خط علاقات الانسان مع أخيه الإنسان وخط علاقات الإنسان مع الطبيعة ، يشكل القاعدة لعنصر الثبات[118] في الشريعة الإسلامية والأساس لتلك المنطقة

---

(117) من هنا تبتدأ المحاضرة الرابعة عشر والتي ألقيت في يوم الاربعاء الموافق فيه الخامس من رجب المرجب عام ١٣٩٩ .

(118) وهو ما يشمل جميع الأحكام الشرعية التي سبق للشارع المقدس أن أصدر فيها حكماً وقيدها بإطار الحديث الشريف : « حلاله ـ أي الرسول (ص) ـ حلال إلى يوم القيامة ، وحرامه حرام إلى يوم القيامة* » .

دون فرق بين ورودها في القرآن الكريم ما عدا المنسوخ من أحكامه أو في قسم الأحكام التي لم تختصها السنة الشريفة بزمان أو مكان أو واقعة معينة .

* أصول الكافي ٢ : ١٧ ـ ١٨ (م . ٧)

الثابتة من التشريع التي تحتوي على الأحكام العامة المنصوصة ذات الطابع الدائم المستمر في التشريع الإسلامي بينما منطقة التفاعل والمرونة بين الخطين تشكل في الحقيقة الأساس كما أسميناه في كتاب « اقتصادنا » بمنطقة الفراغ [١١٩] حيث تشكل الأساس للعناصر المرنة والمتحركة في التشريع الإسلامي .

إن هذه العناصر المرنة والمتحركة في التشريع الإسلامي هي انعكاس تشريعي لواقع تلك المرونة وذلك التفاعل بين الخطين . فيما نلاحظ أن العناصر الأولى الثابتة والصامدة في التشريع الإسلامي هي انعكاس تشريعي لذلك الاستقلال النسبي الموجود بين الخطين .

ومن هنا نؤمن بأن الصورة التشريعية الإسلامية الكاملة للمجتمع تحتوي في الحقيقة على جانبين، فهي تحتوي على عناصر ثابتة، كما أنها تحتوي على عناصر متحركة ومرنة . وهذه العناصر المتحركة والمرنة التي ترك للحاكم

---

(١١٩) وهي المنطقة التشريعية التي تركها الشارع المقدس من دون أن تملء بأحكام شرعية ثابتة .
وقد أشار السيد الشهيد إلى أن فكرتها الأساسية : تقوم على أساس أن الإسلام لا يقدم مبادئه التشريعية للحياة . بوصفها علاجاً موقوتاً ، أو تنظيماً مرحلياً . يجتازه التاريخ بعد فترة من الزمن إلى شكل آخر من أشكال التنظيم وإنما يقدمها باعتبارها الصورة النظرية الصالحة لجميع العصور . فكان لابد لإعطاء الصورة هذا العموم والاستيعاب ، أن ينعكس تطور العصور فيها ، ضمن عنصر متحرك يمد الصورة بالقدرة على التكيف وفقاً لظروف مختلفة* .
ولا تدل منطقة الفراغ على نقص في الصورة التشريعية ، أو إهمال من الشريعة لبعض الوقائع والأحداث ، بل تعبر عن استيعاب الصورة ، وقدرة الشريعة على مواكبة العصور المختلفة ، لأن الشريعة لم تترك منطقة الفراغ بالشكل الذي يعني نقصاً أو إهمالاً ، وإنما حددت للمنطقة أحكامها بمنح كل حادثة صفتها التشريعية الأصيلة مع إعطاء ولي الأمر صلاحية منحها صفة تشريعة ثانوية ، حسب الظروف . فإحياء الفرد للأرض مثلاً عملية مباحة تشريعية بطبيعتها ، ولولي الأمر حق المنع عن ممارستها ، وفقاً لمقتضيات الظروف** .
* انظر « اقتصادنا » ص ٧٢٢ (م . س)
** ن . م ص ٧٢٥ .
(١٢٠) الحاكم الشرعي : مصطلح فقهي يشار فيه وفق رأي السيد الشهيد الصدر إلى المجتهد المطلق (وهو الذي يمكنه اجتهاده من استخراج الحكم الشرعي من دليله المقرر في مختلف أبواب الفقه) حينما يتعلق الأمر بالقضاء وأحكامه . الذي هو من اختصاصه وحده انظر الفتاوى الواضحة للسيد الشهيد الصدر (رض) ١ : ١١٤ - ١١٥ .

الشرعي [١٢٠] أن يملأها . قد فرضت أمامه مؤشرات إسلامية عامة أيضاً لكي يملء هذه العناصر المتحركة وفقاً لتلك المؤشرات الإسلامية العامة . وهذا بحث يحتاج إلى كلام أكثر من هذا ـ تفصيلاً وإطناباً ـ ومن المفروض أن نستوعب هذا البحث ـ إن شاء الله تعالى ـ لكي نربط الجانب التشريعي من الإسلام بالجانب النظري التحليلي من القرآن الكريم لعناصر المجتمع .

نظرية الإسلام عن أدوار التاريخ .

وبعد ذلك يبقىٰ علينا بحث آخر في نظرية الإسلام عن أدوار التاريخ ، وعن أدوار الإنسان على الأرض . إذ إن القرآن الكريم يقسم حياة الإنسان على الأرض إلى ثلاثة أدوار هي : ـ دور الحضانة [١٢١] ، ودور الوحدة ودور التشتت والاختلاف[١٢٢] وهذه أدوار ثلاثة تحدث عنها القرآن الكريم [١٢٣] وبين

---

(١٢١) هناك عدة آراء عن بداية المجتمع البشري أبرزها أن المجتمع البشري كان يعيش وعياً عقلياً كاملاً في مقابل رأي آخر يقول بأن هذا المجتمع كان عقله ووعيه بدائيا وقد نما هذا الوعي بالتدريج . ويبدو أن الرأي الأخير (الذي يتبناه السيد الشهيد ـ رض ـ كما يظهر ذلك من تسميته للدور الأول بدور الحضانة) هو الذي تؤكده الآيات القرآنية ومن ضمنها الآية التي تشير إلى أن ابن آدم (ع) حينما قتل أخاه لم يكن يعرف حتىٰ كيفية دفن أخيه « المائدة ٥ : ٣٠ ـ ٣١ » وما يرد على هذا الرأي بأن الآية القرآنية ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسماءَ كُلَّها ﴾ « سورة البقرة ٢ : ٣١ » قد أشارت إلى علم آدم وتعليمه من قبل الله تعالى وهو مردود لخصوصية آدم في ذلك المجتمع التي تشابه مع الحفاظ على النسبة خصوصية أي نبي عن المجتمع الذي يبعث له . ولربما نلحظ في بساطة النبوات التي كانت قد تزامنت مع بداية المجتمع البشري ثم تدرجت إلى أن وصلت إلى مستوىٰ الرسالات التشريعية الكاملة ، ما يعضد هذا الاعتقاد . لأن الوعي البشري لو كان متكاملاً لاستدعى ذلك وجود نبوات متكاملة .

(١٢٢) أشار القرآن الكريم إلى هذين الدورين عبر قوله تعالى : ﴿ كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّين مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ وأَنزلَ مَعَهُمُ الكِتابَ بالحَقِّ لِيَحكُم بينَ النّاسِ فيما اختلَفُوا فيهِ ﴾ سورة البقرة ٢ : ٢١٣ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فاختَلفُوا ﴾ سورة يونس ١٠ : ١٩ .

(١٢٣) من الواضح أن هناك دوراً رابعاً تحدث عنه القرآن الكريم وهو ما يمكن أن نسميه بدور العبادة أو ما يسمىٰ إسلامياً باليوم الموعود وهو الذي أشارت إليه عدة آيات تصريحاً وتلميحاً كقوله تعالى ﴿ وَنُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىَ الذينَ استُضْعِفُوا في الأَرضِ ، وَنجعَلَهُمْ أَئمَّةً وَنَجعلَهُمُ الوارثِينَ ﴾ سورة القصص ٢٨ : ٥ على أن هدف الخلق الذي أشارت إليه الآية القرآنية ﴿ وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ =

لكل دور الحالات والخصائص والمميزات التي يتميز بها ذلك الدور . وهذا أيضاً بحث سوف نخرج منه بنظرية شاملة كاملة لهذا الجانب من تاريخ الإنسان . وكل ذلك لا يمكن أن يسعه يوم واحد وبحث واحد [١٢٤] إذن فمن الأفضل أن نؤجل ذلك [١٢٥] .

= والإنسَ إلاّ لَيعبُدُونِ . . ﴾سورة الذاريات ٥١ : ٥٦ هو الآخر يشير إلى وجود هذا الدور في الحياة الإنسانية لأنه ليس من المعقول أن يطرح الله هدفاً للخلق ثم لا تصل الخليقة إلى هذا الهدف في دور يكون فيه نهاية دور التشتت والاختلاف الذي قام حسب تعبير الآية الكريمة « البقرة ٢ : ٢١٣ » نتيجة للظلم والعدوان .

ويبدو أن السيد الشهيد لم يذكر هذا الدور لاكتفائه بذكر الأدوار التي مر بها التاريخ الإنساني .

(١٢٤) من المؤسف جداً أن العديد من الموضوعات التي أثارها السيد الشهيد والتي وعد بأنه سوف يتحدث عنها ثم لم يتحدث عنها باعتبار توقف المحاضرات ما زالت إلى الآن غير مطروقة وهي بلا شك تمثل حاجة ماسة في عالم الفكر الإسلامي . وإن بقاء هذه المواضيع من دون تفصيل لها من قبل أصحاب السيد الشهيد من العلماء الأعلام خاصة يثير مشاعر الخيبة والأسف . على أننا نجد أن العديد من الموضوعات التي طرحها السيد الشهيد هي الأخرى ما زالت تحتاج إلى إثراء وتوسعة .

(١٢٥) يبدأ بعد ذلك حديث عن حب الدنيا الذي وصفه السيد الشهيد بحديث القلب . وهو حديث توجيهي أخلاقي . غير أن خروجه عن إطار البحث القرآني رغم روعته وجاذبيته . جعلنا نفصله عن هذه المجموعة من المحاضرات على أمل أن نرجع اليه في بحث آخر .

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ أصول الفلسفة الماركسية — جورج بوليتزر
٢ ـ أصول الكافي — الكليني
٣ ـ اقتصادنا — السيد الشهيد محمد باقر الصدر
٤ ـ بحار الأنوار — المجلسي
٥ ـ بحث حول الولاية — السيد الشهيد محمد باقر الصدر
٦ ـ بحوث في المذهب الاجتماعي في الإسلام — جلال الدين الصغير
٧ ـ تاريخ الخلفاء — السيوطي
٨ ـ تاريخ الفكر الاجتماعي — بارنزوبيكر
٩ ـ تاريخ اليعقوبي — اليعقوبي
١٠ ـ تعليقة النووي على صحيح مسلم — النووي
١١ ـ تفسير الخازن — الخازن
١٢ ـ تفسير الدر المنثور — السيوطي
١٣ ـ تفسير الرازي — الرازي
١٤ ـ تفسير الطبري — الطبري
١٥ ـ تفسير القرآن العظيم — ابن كثير الدمشقي
١٦ ـ تفسير الكشاف — الزمخشري

١٧ ـ خلافة الانسان وشهادة الأنبياء — السيد الشهيد محمد باقر الصدر
١٨ ـ دروس في علم الأصول — السيد الشهيد محمد باقر الصدر
١٩ ـ دور الأفكار التقدمية في تطوير المجتمع — كونستانتيوف
٢٠ ـ سنن البيهقي — البيهقي
٢١ ـ صحيح البخاري — البخاري
٢٢ ـ صحيح الترمذي — الترمذي
٢٣ ـ صحيح مسلم — مسلم
٢٤ ـ الصواعق المحرقة — ابن حجر الهيثمي
٢٥ ـ الفتاوى الواضحة — السيد الشهيد محمد باقر الصدر
٢٦ ـ فلسفتنا — السيد الشهيد محمد باقر الصدر
٢٧ ـ القرآن الكريم
٢٨ ـ قصة الحضارة — ول ديورانت
٢٩ ـ قصة الفلسفة — ول ديورانت
٣٠ ـ القائد .. القيادة والانقياد في سيرة الإمام أمير المؤمنين — جلال الدين الصغير
٣١ ـ المستدرك على الصحيحين — الحاكم النيسابوري
٣٢ ـ مسند أحمد — أحمد بن حنبل
٢٣ ـ مشكلة الحرية — زكريا إبراهيم
٣٤ ـ منتخب كنز العمال — المتقي الهندي
٣٥ ـ نشوء القومية في العالم الإسلامي — جلال الدين الصغير
٣٦ ـ نهج البلاغة — الإمام أمير المؤمنين (ع)
٣٧ ـ وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة — الحر العاملي